دوستويفسكي

رواية:

المِثل

أو كما سُميت في ترجمة أخرى

المزدوج

ترجمة: سامي الدروبي





المركز الثقافي العربي

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:



كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق - متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

المِثل

رواية مترجمة (١٨٤٦)..

الكاتب: ديستويفسكي

ترجمة: سامي الدروبي

عن هذا الكتاب..

«المِثْل» (Dvoinik) كتبت هذه الرواية سنة 1844 - 1845 ونشرت سنة 1846 في «حوليات الوطن» المجلد 46، في شهر شباط (فبراير) 1846.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



تقديم: بقلم الدكتور سامي الدروبي

نُشرت رواية «المِثْل» بعد صدور رواية «الفقراء» بشهر واحد. قلم يستقبلها النقاد والكتاب والقراء بمثل ما استقبلوا به رواية «الفقراء» من حماسة. ولكن الناقد الروسي الشهير بيلنسكي قام بإبراز دلالتها الاجتماعية، فعقد مقالًا تناول فيه بطلها جوليادكين، معتبرًا أنه: «واحد من أولئك الناس الحسّاسين الذين نجد أمثالهم في الطبقات المتوسطة والدنيا، فهو سريع التأذِّي، شديد الطموح، يتراءى له دائمًا أنه مستهدف، وأنه يحاصَر وتُدبَّر له المكائد...».

قال بيلتسكي إنه يرى في هذه القصة من الموهبة ومن عمق الفكر ما لم ير مثله في قصة «الفقراء». وختم بيلنسكي مقاله بنبوءات عن دوستويفسكي فقال: «سوف تظهر أثناء حياته مواهب كثيرة تعارضه، ولكن هذه المواهب كلها سيطويها النسيان أما موهبته فتظل في ذروة المجد».

صدق بيلنسكي... لسوف يطوي النسيان مواهب كثيرة، وأسماء كانت كبيرة في زمانه وكان يُنظر إليها على أنها أعظم من دوستويفسكي. وبالفعل طواها النسيان أما موهبة دوستويفسكي فقد ظلّت وستظل في ذروة المجد. ولكن بيلنسكي كان ينظر إلى كل أثر من آثار الأدب من زاوية ضيقة خاصة، هي زاوية الأدب الاجتماعي الجديد الذي ينادي به ويدعو اليه. ولم يكن مهيَّأً لأن يرى كل ما في رواية «المثل» من عمق نفسي. فلئن كان جوليادكين ضحية ظلم إجتماعي من بعض النواحي، وبمعنى من المعاني، فإن هذا لا يختصر قيمة رواية «المِثْل»... إن جوليادكين إنسان «تتفصم» شخصيته على حد تعبير علماء النفس الحديثين... إنه مزدوج الشخصية... فمن رآه من خارج سمّاه مجنوناً وكفى... وقد يضحك إضافة إلى هذا. وكذلك يفعل دوستويفسكي... فإنه يراه من داخل، أو قل إنه يعيش معه تجربته النفسية، وهو لذلك لا يكاد يضحك عليه، ولا يحمل القارئ على الضحك عليه. بل على العكس، إنه يُبرز جانب المأساة في حياة إنسان يتعذب، لا عن ظلم اجتماعي فحسب، عن مرض نفسي قد يتّصل بالظلم الاجتماعي، وقد لا يتصل به كثيرًا. فمن لم يكن قادرًا، بحد أدنى، من تجربة شخصية، على أن يرى ما يراه دوستويفسكي في بطله من الداخل، فلن يستطيع أن يعرف كل العمق النفسي في تصوير شخصية هذا البطل بالعين البصيرة والريشة البارعة.

ولذلك رأينا بيلنسكي يعود إلى الكلام عن رواية «المثل» في مقالة يكتبها بعد سنة، فإذا هو هذه المرة، مع إظهار إعجابه بموهبة المؤلّف، يأخذ على الكتاب «طابعه الخيالي غير الواقعي» ويعيب فيه غموض حبكته، وطول إسهاباته وتكراراته، وينصح دوستويفسكي باختصار هذه الرواية عند إعدادها للنشر في طبعة جديدة.

وقد شعر دوستويفسكي بمرارة شديدة من سوء تقدير النقاد لروايته، وعبّر عن هذه المرارة في بعض رسائله. ومع ذلك فإنه عند عودته من سيبيريا، وشروعه في إعداد طبعة جديدة لمؤلفات شبابه، يتأثر برأي النقاد والقراء في كتابه، فيأخذ فعلًا في إعادة كتابة «المثل»، ولكن وقته لم يتسع لهذا العمل. وفي العام 1865 نشر

طبعة جديدة للكتاب لا تختلف عن الطبعة الأولى إلا في أمور يسيرة، فهو لا يزيد عن أن ينقح هنا عبارة ويختصر هناك فقرة، أو يحذف هنالك رسالة، غير أن نيته كانت منصرفة كما تدل على ذلك مسوَّدات يرجع عهدها إلى 1861- 1864، إلى إحداث تغييرات كبيرة في هذه الرواية، وتدل هذه المسودات على أنه كان يريد أن يجعل من بطله جوليادكين الأول واحدًا من أنصار الإشتراكية ينتمي إلى فورييه وينضم إلى حلقة بتراشفسكي ويطمع في قيادة ثورة. وأن يجعل من جوليادكين الثاني جاسوسًا يشي بالثوريين ويفضح أمرهم.

سامي الدروبي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الأول

في نحو الساعة الثامنة استيقظ ياكوف بتروفتش جوليادكين، الكاتب في إحدى الإدارات الحكومية، بعد نوم طويل. فتثاءب، وتمطى، ثم فتح عينَّيه تمامًا آخر الأمر، ومع ذلك ظلّ مستلقيًا على فراشه دقيقتين، ساكنًا لا يتحرك، وكأنه لا يعلم علم اليقين أهو استيقظ حقًا أم هو لا يزال نائمًا، ولا يعلم علم اليقين أَكُلُ مايراه حوله هو جزء من العالم الواقعي أم هو إمتداد للرؤى المضطربة التي رآها في حلم.

غير أن حواس السيد جوليادكين أخذت تستوعب شيئًا فشيئًا، بمزيد من الدقة والحدة، مجال إدراكاته المألوفة. فها هو ذا يرى ما ألف أن يراه من نظرات محدقة إليه: نظرات جدران الغرفة التي يغشاها الغبار والدخان، ويميل لونها إلى خضرة متسخة، ونظرات منضدته المصنوعة من خشب الأكاجو، ونظرات كراسيه التي هي تقليد لكراسي خشب الأكاجو، ونظرات منضدته المصبوغة باللون الأحمر وديوانه التركي المغطى بقماش مشمع يضرب لونه إلى حمرة وتزينه زهيرات خضراء؛ ونظرات ثيابه التي خلعها بالأمس على عجل ورماها على الديوان كتلًا مكورة. وها هو ذا يرى آخر الأمر، من خلال نافذته، نظرة حزينة كابية يلقيها عليه نهار عكر حائل اللون من نُهَّرِ الخريف، فتثقل هذه النظرة على صدره: إن في هذه النظرة كثيرًا من العبوس، وإن في التقطيب الذي يصاحبها كثيرًا من الحدة والشراسة، فلم يبق في ذهن السيد جوليادكين أي شك: ليس هو الآن في عالم محدد من عوالم الرؤى والأحلام، بل هو حقًا في العاصمة، في مدينة سان بطرسبرج، في شارع «الدكاكين الستة»، في مسكنه بالطابق الثالث من عمارة كبيرة. فلما اكتشف السيد جوليادكين هذا الإكتشاف الهام، عاد يغمض عينيه، كأنه يأسف على رؤى حلمه الأخير ويتمنى أن يرتدَّ إليه ولو لحظة. لم يلبث أن وثب عن سريره بعد هنيهة، ربما لأنه اهتدى إلى الفكرة المركزية التي كانت تدور حولها تهاويل فكرة مضطربة مشوشة حتى ذلك الحين. وسرعان ما هرع نحو مرآة صغيرة مستديرة كانت موضوعة على المنضدة، إن الوجه الذي يتراءى في المرآة رثٌّ بعض الرثاثة، وعيناه اللتان تشبهان أن تكونا مغمضتين قد تورمتا من النوم. إنه وجه من تلك الوجوه التي ليس لها طابع يميزها، فلا يمكن أن تلفت النظر من أول وهلة، ومع ذلك فقد بدا على صاحب الوجه أنه راضٍ عنه كل الرضا بعد أن تفرس فيه.

قال السيد جوليادكين بصوت خافت: «الحمد الله! لو قد حدث شيء في هذا الصباح، لو قد وقع لي ما يزعج، كأن تنبت في أنفي دمل أو شيء من هذا القبيل، إذن لكانت قصة سخيفة.. ما ينبغي التشكي. ليس هنالك دمامة؛ وكل شيء يجري على خير ما يشتهى حتى الآن».

ابتهج السيد جوليادكين من حسن سير أموره، فأعاد المرآة إلى مكانها المألوف. ورغم أنه حافي القدمين، ورغم أنه ما يزال في ملابس الليل، هرع نحو نافذة غرفته التي تطل على فناء العمارة، وأخذ ينظر إلى ما يجرى فيها، بكثير من الإهتمام.

وقد لاح أنه راضٍ كل الرضى عما رأى، فقد أشرق وجهه بابتسامة غبطة. ثم اقترب من المائدة على رؤوس الأصابع. وبعد أن ألقى نظرة على ما وراء الحاجز، حيث يوجد مخدع خادمه بتروشكا، فتأكد أن بتروشكا ليس هناك، فتح أحد أدراج المائدة، ومدّ يديه إلى أعماقه، فأخرج من تحت كومة من الأوراق المصفرة المتسخة محفظة خضراء اللون بالية بعض البلى، وفتحها بكثير من الحذر والتأني وألقى نظرة عجلى على جيبها الخفي. لا بد أن كدسة الأوراق النقدية الخضراء والشهباء والزرقاء والمتعددة الألوان، قد أنعش منظرها نفس السيد جوليادكين، إذاً صدق ما ارتسم على وجهه من معنى حين وضع المحفظة مفضوضة على المائدة. وها هو ذا يفرك يديه منشرح القلب فرحاً أشد الفرح. وأخيرًا أخرج كدسة الأوراق النقدية هذه التي كانت له موضوع آمال خفية كثيرة، فأخذ يعدها مرة أخرى، بعد أن عدها قرابة مائة مرة منذ أمس، جاسًا كل ورقة منها بالابهام والسبابة في كثير من الجد والاجتهاد.

وتمتم يقول بعد أن فرغ من حسابها: «سبعمائة وخمسين روبلًا، أوراقاً نقدية.. يمينًا إنه مبلغ عظيم.. مبلغ جميلٌ ممتع». كذلك تابع يقول بصوت مرتجف يكسره انفعال اللذة، قابضًا على الكدسة بيديه، مبتسمًا ابتسامة الجد والوقار «نعم، مبلغٌ جميلٌ جداً... مبلغٌ يسر له قلب كل انسان. وددت لو أرى إنسانًا يحسب مثل هذا المبلغ تافهًا، في هذه اللحظة! إن مبلغًا كهذا يمكن أن يمضي بالمرء بعيدًا بعيدًا...». «ولكن ماذا جرى؟ أين ذهب بتروشكا اللعين». كذلك تساءل السيد جوليادكين، ثم مضى بملابسه تلك نفسها يلقي نظرة على ما وراء الحاجز مرة أخرى. ليس بتروشكا هناك. ولكن، في مقابل ذلك، ها هو ذا السماور الموضوع على الأرض، المهجور، يغلي غضبًا ويهدد في كل لحظة بأن يطفح، حتى لكأنه يريد أن يقول للسيد جوليادكين بلغته السرية اللثغاء الموشوِّشة، شيئًا من هذا القبيل: «هلا تناولتني يا سيدي الشهم. أنا مستعد. أنا مستعد كل الإستعداد». قال السيد جوليادكين لنفسه: «لعنه اللّه... هذا الكسلان، هذا الأحمق الذي يثير الحنق. أين ذهب يتسكع؟».

استاء السيد جولديادكين استياءً له ما يسوغه، فمضى إلى حجرة المدخل، وهي ممّر بسيط صغير ينتهي بباب يطل على السلم، فشقّ الباب فرأى خادمه عندئذ وقد أحاط به جماعة من سكان المنزل وأناس ممن يضيعون وقتهم في الثرثرة. كان بتروشكا يقص عليهم حكاية وكانوا هم يصغون إليه. ولا بد أن الموضوع الذي كان يجري عليه الحديث، بل وجريان هذا الحديث أصلًا، لم يعجبا السيد جوليادكين قَط، لأنه سرعان ما نادى بتروشكا وعاد إلى غرفته مستاءً استياءً شديدًا بل قولوا غاضبًا حانقًا. قال لنفسه: « إن هذا الوغد لا يتورع أن يبيع إنسانًا في سبيل كوبكٍ واحد، ولا سيما مولاه... وقد فعل ذلك وانتهى الأمر... باعني... أراهن على أنه باعني بأقل من كوبك».

سأل السيد جوليادكين خادمه:

- ماذا هناك؟.

- جيء بالبذلة يا سيدي.

- إلبسها وتعال.

ارتدى بتروشكا بذلته ودخل غرفة مولاه مبتسمًا ابتسامةً بلهاء، كانت بذلته غريبة إلى أبعد حدود الغرابة. إنها البذلة العادية التي يلبسها الحجّاب، ولكنها مهترئة كثيرًا، خضراء اللون ذات شرائط مذهبة، قد تنسلت خيطانها، وبدا واضحًا أنها فُصِّلت لرجل أطول من بتروشكا بنصف متر.

وكان بتروشكا يحمل بيده قبعة مزدانة بشرائط مذهبة وريش خضراء. وعلى فخذه يتدلى سيف له غمد من جلد. ويجب أن نذكر، إكمالًا للوحة، أن بتروشكا، على عادته الراسخة المتأصلة، وهي عادة التجول بملابس المنزل التي تستحق أن توصف بأنها أكثر من مهملة، كان حافي القدمين.

فتش السيد جوليادكين خادمه من جميع النواحي، فبدا راضيًا عن هذا التفتيش. واضح أن البذلة قد استؤجرت لمناسبة ذات أبهة. ومن جهة أخرى كان بتروشكا، أثناء هذا التفتيش، يتابع بكثير من الإنتباه، كل حركة من حركات مولاه، دالًا على استطلاع شديد واهتمام غريب ينبىء بنفاد الصبر، ولا شك في أن هذا قد أربك السيد جوليادكين كثيرًا.

- طيب. والعربة؟

- العربة وصلت أيضًا.

- للنهار كله؟.

- نعم للنهار كله، خمسة وعشرون روبلًا.

- هل حذاءاي موجودان أيضًا؟.

- نعم.

- يا أبله! ألا تستطيع أن تتكلم بأدب؟ ألا تستطيع أن تقول: نعم سيدي؟ هات الحذاءين..

لاح على السيد جوليادكين أنه مبتهج أشدّ الابتهاج بحذاءيه الجديدّين. وأمر لنفسه بعد ذلك بشاي، وطلب إلى بتروشكا أن يعد له ما يجب إعداده للاغتسال والحلاقة. وأنفق في الحلاقة وقتًا طويلًا، ثم أنفق في الاغتسال وقتًا أطول، واحتسى الشاي على عجل، من أجل أن يفرغ بعد ذلك للمهمة الكبرى ألا وهي إلباس شخصه. ارتدى سرواليه اللذين يشبهان أن يكونا جديدين، ولبس قميصًا ذا أزرار مذهبة، وصديرة تزينها أزهار جميلة زاهية الألوان، وعقد على عنقه ربطة من حرير مبرقش، ثم ارتدى ردنجوته ([1])، الجديد أيضًا، الذي أحسن تنفيضه بالفرشاة.

وكان وهو يرتدي ثيابه ما ينفك يلقي على حذاءيه نظرات حب وحنان. فهو في كل لحظة يرفع هذا أو ذاك منهما ليعجب بشكله، مدمدمًا بين أسنانه بكلام متصل لا يتوقف، ومضيفًا إلى هذا الحديث الداخلي من حين الى حين علامات في وجهه تفيض رضى، يجب أن نقول ذلك إن السيد جوليادكين كان في ذلك الصباح ذاهلًا

بعض الذهول ولا شك، لأن البسمات وحركات الوجه التي كان يرشقه بها بتروشكا وهو يساعده في ارتداء ثيابه قد غابت عن انتباهه تمامًا. حتى إذا فرغ من ملبسه من القدمين إلى الرأس، وبعد أن أصلح زيه دون أن يغفل عن أيسر التفاصيل، وضع محفظة نقوده في جيب ردنجوته.

وكان بتروشكا أثناء ذلك قد دسَّ قدميه في حذاءيه وأصبح على أتم تهيؤ. فلما تأكد السيد جوليادكين من أن الإعدادات قد تمت، وأنه لا شيء يوجب أن يبقيا في الغرفة بعد ذلك، خرج يهبط السلم بخطى محمومة سريعة، وقلبه يخفق خفقانًا شديدًا من فرط الإنفعال.

وتقدمت نحو باب المبنى عربة زرقاء مزدانة بأشعرة الشرف والنسب، محدثة ضجة كبيرة. تبادل بتروشكا بضع غمزات متواطئة مع الحوذي ومع المتسكعين الذين كانوا هنالك، وهو يساعد مولاه في ركوب العربة؛ ثم صاح بالحوذي، وهو لا يكاد يستطيع حبس ضحكة بلهاء، قائلًا له: «هيا»، ووثب يستقر على الدكة في الخلف. تحركت العربة وسط هدير الجلاجل وزمزمات العجلات متجهة نحو شارع نفسكي. فما إن تجاوزت العربة الزرقاء باب المنزل حتى أخذ السيد جوليادكين يفرك يديّه بحركات متشنجة، وحتى أفلتت منه ضحكة طويلة صامتة هي ضحكة رجل ذي مزاج مرح استطاع أن ينجح في تدبير مكيدة موفقة، فهو مبتهج بذلك من أعماق قلبه.

غير أن اندفاعة الفرح هذه قد انتهت بسرعة، وظهر على وجه السيد جوليادكين تعبير غريب يفيض قلقًا.

وها هو ذا، رغم رطوبة الجو ورغم الضباب، ينزل زجاج الباب، ويأخذ يتفرس المارة على جانبي الطريق وقد بان في وجهه الهمُّ. ولكنه ما إن أحس أن الناس يلاحظونه حتى اصطنع هيئة الثقة بالنفس وتقنع بمظهر الوقار. فلما وصل إلى ملتقى شارع ليتانيايا وشارع نفسكي أحس بقشعريرة، لعل سببها أن يكون إحساسًا مزعجًا، فإذا بوجهه يتصعر تصعر وجه رجل شقيّ داس أحد الناس على دمل في قدمه سهوًا، ثم إذا هو يرتمي إلى أبعد ركن مظلم من العربة بحركة مباغتة تشبه أن تكون خائفة جزعة.

ذلك أن السيد جوليادكين قد رأى إثنين من زملائه هما موظفان شابان يعملان في الدائرة التي يعمل هو فيها.

وقد أحس السيد جوليادكين إحساسًا واضحًا بأن زميلَّيه قد دهشا هما أيضًا دهشةً شديدة من الالتقاء بزميلهما في ظروف كهذه الظروف، فهذا أحدهما يشير إلى السيد جوليادكين بيده. وقد بدا للسيد جوليادكين أيضًا أنه الآخر يناديه باسمه بصوت عالٍ، وذلك أمر لا محل له يسمع في الشارع طبعًا.

بقيَّ صاحبنا في ركن العربة دون أن يجيب. قال لنفسه: «يا لهم من صبية صغار! أي عجبٍ في هذا كله. رجل في عربة، فأي عجب في هذا؟ رجل في حاجة إلى الذهاب بعربة، فذهب بعربة... حقًا انهم لمزبلة، هؤلاء الصبية...، أمرُ بسيط... حقًا

انهم لمزبلة، هؤلاء الصبية... أنا أعرفهم، صبية يستحقون السوط. كل ما يهمهم هو أن يقبضوا أجورهم ويتجولوا هنا وهناك. لو كان الأمر بيدي لوضعتهم حيث يجب أن يكونوا، ولكن حتى يكون لهذا نفع...

ولم يكمل السيد جوليادكين جملته... فإنه قد ذعر حتى كاد يموت ذعرًا حين رأى عربة فخمة تمرُّ على يمين عربته، يجرها حصانان من قازان، وقد ألف أن يراها. إن الشخص الجالس في هذه العربة قد لمح وجه السيد جوليادكين الذي كان في تلك اللحظة قد أخرج رأسه من باب العربة طيشًا. فبدا على السيد أنه دهش دهشةً كبيرة لهذه المصادفة التي لم تكن في الحسبان، فمال ما استطاع الميل وأخذ يتفحص بكثير من الإستطلاع والانتباه الركن الذي أسرع صاحبنا يقبع فيه من العربة.

كان هذا السيد هو اندره فيليبوفتش، الرئيس الإداري للقسم الذي يعمل فيه جوليادكين مساعدًا لمدير المكتب. فلما رأى جوليادكين أن آندره فيليبوفتش قد عرفه تمامًا وأنه يتفرس فيه بكل عينيه، ولما أدرك من جهة أخرى أنه لا يستطيع الاختباء احمرَّ احمرارًا شديدًا حتى الأذنين.

قال في نفسه: «أيجب عليَّ أن أحييه، أن أرد على علائم الإهتمام التي يبديها، أن أكشف له عن نفسي... أم الأفضل أن أتظاهر بأنني لست أنا بل شخص آخر يشبهني شبهًا قويًا، وفي هذه الحالة أنظر إليه كأن لم يكن شيء؟... إن السيد جوليادكين ما ينفك يلقي على نفسه هذه الأسئلة وقد تملكه ذعرٌ لا يوصف. إنه يدمدم قائلًا: «نعم. نعم، لست أنا، طبعًا، لست أنا»، نازعًا قبعته أمام آندره فيليبوفتش ناظرًا إليه لا يحول بصره عنه؛ وهو يتمتم بصوت يشبه أن يكون مختنقًا: «أنا، أنا، ما أنا، لا شيء، يمينًا لست أنا، لست أنا حتمًا». ولكن العربة الفخمة كانت قد تجاوزت عربة السيد جوليادكين، وكانت الجاذبية المغناطيسية في نظرة رئيس السيد جوليادكين قد غابت. ومع ذلك فإن جوليادكين الذي ما يزال أحمر الوجه مبتسمًا، ظلّ يدمدم... وقال لنفسه أخيرًا:

«ما كان أغباني حين تظاهرت بأنني لم أعرفه... كان يجب عليَّ أن أحييه، نعم، أن أحييه صراحةً، من مستوى واحد، بل بشيء من تحية يمكن أن تقول له: نعم يا آندره فيليبوفتش، أنا أيضًا مدعو إلى العشاء... الأمر بسيط جدًا كما ترى». وتُعاوِده ذكرى غلطته، فيحترق شعورًا بالخجل والعار، ويقطب حاجبيه، وينظر إلى مقدمة العربة كأنه يلتهمها بنظراته إلتهامًا، حتى ليحس من يراه أنه يريد أن يسحق بهذه النظرات جميع أعدائه وأن يحيلهم إلى رماد وأوحى إليه بفكرة على حين فجأة، فها هو ذا يشد الحبل المثبت في كوع الحوذي، فيأمر الحوذي بوقف العربة والعودة القهقرى إلى شارع ليتاينايا. وكان سبب هذه الرجعة بسيطًا: فقد شعر جوليادكين في تلك اللحظة برغبة لا سبيل إلى مقاومتها في أن يبوح بشيءٍ هام جدًا لطبيبه كريستيان إيفانوفتش. وهو على كل حال لا يعرف طبيبه هذا إلا منذ زمن قصير جدًا، أو قل إذا شئت الدقة أنه لم يره إلا مرةً واحدةً، وذلك في الأسبوع الماضي. لقد استشاره يومئذ في أمر طبيّ تافه. «ولكن ألا يشبه الطبيب الكاهن من حيث أن على المرء أن يعترف له بكل شيء، الحماقة أن يخفي المرء عن طبيبه أي شيء (كذلك كان بطلنا يقول لنفسه وهو يخرج من العربة أمام مدخل منزل مؤلف من خمس طوابق بشارع

ليتاينايا) «نعم... هو كذلك... أليس الأمر كذلك، هل الأمر كذلك؟ هل يجوز هذا؟ هل هذا مناسب؟ ولكن... أي ضرٍّ في هذا؟». هكذا استمر جوليادكين يدمدم وهو يصعد السلم متقطع الأنفاس لا يستطيع أن يهدئ دقات قلبه إلا بكثير من العناء، وهو قد ألِفَ أن يدق دقًا قويًّا جدًا متى كان بطلنا يصعد إلى أحد الناس.

«نعم أي ضير في هذا؟ أنا أتٍ إليه من أجل صحتي. لا لوم عليَّ في هذا... أكون غبيًا إذا أخفيت عنه. سأتظاهر بأنني جئت إليه عابرًا وسوف يرى ما هو الأمر». وفيما كان جوليادكين يفكر هذا التفكير وصل الطابق الثاني ووقف أمام باب الشقة رقم 5؛ هذه لوحة جميلة من نحاس قد نقش عليها:

(كريستيان إيفانوفتش لاوتنشبتش

دكتور في الطب والجراحة).

واستفاد بطلنا من زمن التوقّف هذا ليشكل لنفسه وجهًا باشًا هاشًا، بل ولطيفًا محببًا. وهمَّ أن يشد حبل الجرس. غير أن فكرةً برقت في ذهنه في هذه اللحظة نفسها، وهي فكرة في محلها تمامًا على كل حال. أليس من الأفضل تأجيل زيارته إلى الغد؟ ما من حاجة إليها في هذا اليوم نفسه في الواقع... ولكنه سمع وقع خطوات على السلم فجأة، فإذا هو يُنفِّذ نقيض ما نواه، فيدقّ جرس كريستيان إيفانوفتش، وقد بدا في وجهه العزم والتصميم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الثاني

إنّ كريستيان إيفانوفتش لاوتنشبتش، الدكتور في الطب والجراحة، رجل قويّ البنية جيد الصحة وإن يكن متقدمًا في السن. إن حاجبيه الكثيفيّن ولحيتَّيْ وجنتيه قد أخذت تشيب. وإن نظرة عينيه المعبرتيّن الساطعتيّن تبدو وحدها قادرة أن تستأصل جميع الأمراض. وهو يحمل على صدره وساماً رفيعاً.

كان في ذلك الصباح جالسًا على مقعد مريح في مكتبه يشرب فنجانًا من القهوة جاءته به امرأته، ويحرِّر في الوقت نفسه وصفات لمرضاه. لقد أمر منذ هنيهة بمرهم لرجلٍ عجوز يعاني من البواسير، فبعد أن شيَّعه حتى الباب، عاد يجلس على مقعده منتظرًا الزيارة القادمة. وفي تلك اللحظة إنما دخل عليه السيد جوليادكين.

إن كل شيء يحمل على الإعتقاد بأن كريستيان إيفانوفتش لم يكن يتوقع هذه الزيارة قط، بل وأنه لم يكن يرغب أبدًا في رؤية السيد جوليادكين أمامه، فهذا ما يدل عليه الإضطراب المفاجيء الذي ظهر فيه، والتعبير الغريب بل الغاضب الذي لاح في وجهه. والسيد جوليادكين، من جهته، يشعر دائمًا بكثيرٍ من الضيق والحرج حين يكون عليه أن يواجه أحد الناس وأن يحدثه في شئونه. وإذ لم يتسع وقته لتحضير مقدمة يبدأ بها كلامه - وذلك يشكل عنده عقبة كبيرةً دائمًا - فقد اضطربت حاله فدمدم ببضع كلمات مشوشة يعتذر بها عن مجيئه؛ ولم يعرف بعد ذلك أي وضع يتخذ، فجلس على كرسي، ولكنه لم يلبث أن لاحظ أن أحداً لم يدعه إلى الجلوس، فشعر بأن عمله غير لائق، فأراد أن يصلح ما اقترف من مخالفة للآداب الإجتماعية، فأسرع ينهض عن الكرسيِّ المغتصب، ويقف على قدميه؛ ثم ثاب إلى رشده فشعر مضطرباً بأنه قد ارتكب غلطتين متلاحقتين فاندفع يرتكب غلطة ثالثة وأملًا في تبرير نفسه أخذ بأقوال غير مفهومة تصاحبها إبتسامة شاحبة. وأخيرًا احمرَّ وجهه احمرارًا شديدًا، واضطرب اضطرابًا كبيرًا، فصمت، وعاد إلى مكانه على الكرسي ثم لم ينهض عنه. ومع ذلك فإنه من أجل أن يسترد ثقته بنفسه لم ينسَ أن يرشق صاحبه بنظرة من تلك النظرات الثاقبة التي تمتاز بمزية خارقة هي أنها تسحق جميع أعدائه وتحيلهم رمادًا. وفوق هذا، فقد كانت تلك النظرة تدل على استقلال بطلنا استقلالًا كاملًا، فهي تؤكد تأكيدًا فصيحًا أن السيد جوليادكين إنسان سويّ، وأنه رجل عادي، كسائر الناس، راضٍ عن مصيره ولا يطلب المزيد.

تنحنح كريستيان إيفانوفتش، علامة الاستحسان لسلوك بطلنا، ثم حدق إليه بنظرة فاحصة. فقال جوليادكين مبتسمًا: «إنما جئت يا كريستيان إيفانوفتش أطلب منك رحابة الصدر مرة أخرى...».

كان واضحًا أن السيد جوليادكين يجد مشقة في الإهتداء إلى كلماته...

قال كريستيان إيفانوفتش وهو ينفث نفثة كثيفة من الدخان ويضع سيجاره على المائدة:

-هِمم... نعم، نعم... عليك مع ذلك أن تواظب على إستعمال الدواء الذي وصفته لك، ولقد سبق أن أوضحت لك أن علاجك إنما يكون بتغيير عاداتك... أنت في حاجة إلى تسليات تسرّي عنك. أنت في حاجة إلى أصدقاء تتردد إليهم، أنت في حاجة إلى معاشرة الناس ومخالطة المجتمع. وعليك في الوقت نفسه أن لا تكون عدو الزجاجة وأن تصاحب أناساً يحبون الحياة ويقبلون عليها ويغرفون من مباهجها.

فأسرع السيد جوليادكين يقول، وهو لمّا يزل مبتسمًا، إنه يرى أن سلوكه سويّ جدًا، شبيه بسلوك الآخرين، وأن تسلياته، التسليات التي يتعاطاها الآخرون؛ وأنه يستطيع خاصة أن يذهب إلى المسرح، وأنه يملك ما هو في حاجة إليه من مال كسائر الناس؛ وأنه يعمل صباحًا في مكتبه ويبقى مساءً في بيته؛ أي أنه إنسان كسائر البشر. حتى لقد انتهز السيد جوليادكين هذه الفرصة فألمع إلماعًا خفيًا إلى اعتقاده بأنه ليس دون غيره من الناس، فهو يملك شقة في عمارة مناسبة، حتى أن في خدمته خادمًا هو بتروشكا. ولكن السيد جوليادكين، حين وصل إلى هذا الموضع من حديثه، توقف عن الكلام فجأةً.

قال الطيب:

- همم... لا... لا.. أنا لم أتكلم عن هذا... ليس هذا ما أردتُ أن أطلبه منك. وإنما أردت أن أعرف هل أنت على وجه العموم تحب صحبة الناس وتحب أن تنظر إلى الحياة من جانبها الجميل؟... أي بكلمة واحدة: هل سلوكك في الحياة هو سلوك إنسان سوداوي أم هو سلوك إنسان متفائل؟.

- أنا يا كريستيان ايفانوفتش...

قاطعه الطبيب قائلًا:

- همم... أكرر: أنت في حاجة إلى تغيير طراز حياتك تغييرًا جذريًا. إن عليك أن تتغلب على «طبعك».

شدد كريستيان إيفانوفتش تشديدًا قويًا على كلمة «تتغلب»، وتجمع على نفسه في وضعٍ ممتازٍ جدًا ثم أردف يقول:

- عليك أن لا تهرب من التسليات، عليك أن تختلف إلى المسارح والحلقات، وعليك خاصة أن لا تهمل الزجاجة. إياك والبقاء في بيتك فليس ينفعك في شيء أن تلازم بيتك.

دمدم جوليادكين يقول وهو يرشق محدثه بنظرة مفهومة ويبدو عاجزاً عن العثور على الكلمات التي يفصح بها عن فكره:

- أنا أحب الهدوء يا كريستيان ايفانوفتش. نحن في البيت إثنان فقط: أنا وبتروشكا... أقصد خادمي يا كريستيان ايفانوفتش. أريد أن أقول بذلك يا كريستيان إيفانوفتش أنني أسير في طريقي، نعم، في طريقي الخاص، يا كريستيان إيفانوفتش. أنا مكتفٍ بنفسي، ولست رهنًا بأحد، هذا إذا لم يخطىء ظني. على أن ذلك كلّه لا يمنعني من التنزه يا كريستيان إيفانوفتش.

- ليس التنزه في هذه الأيام بالممتع كثيرًا، فإن الجو أقرب إلى أن يعد رديئًا.

- صحيح يا كريستيان إيفانوفتش. ورغم أنني بطبعي شديد التحفظ والانكماش على نفسي، كما سبق أن تشرفت بإيضاح ذلك لك فيما أعتقد، فإنني أتابع طريقي، وهو طريق انعزالي. أنا أعرف أن دروب الحياة واسعة... أعني... معذرة يا كريستيان إيفانوفتش أقصد، لست قديرًا في مجال فصاحة اللسان.

- همم... هكذا؟

- أقول هذا يا كريستيان إيفانوفتش من أجل أن تعذرني إذا لم أعبّر عن نفسي بفصاحة كافية.

كذلك نطق السيد جوليادكين بلهجة فيها شيء من المطالبة، وكان واضحًا أنه يجد مشقة في العثور على كلماته. وأردف يقول وهو يبتسم إبتسامة غريبة:

- من هذه الناحية، لستُ كسائر الناس يا كريستيان ايفانوفتش، أنا لا أجيد الخطب الطويلة والجمل الرشيقة، ولكني في مقابل ذلك يا كريستيان إيفانوفتش أعمل، نعم أعمل يا كريستيان إيفانوفتش...

- أمم... طيب... وماذا تعمل؟.

ساد الصمت لحظة. نظر الطبيب الى السيد جوليادكين نظرة فاحصة مرتابة. كما ألقى السيد جوليادكين على محدّثه نظرة مثقلة بالحذر والشك.

تابع بطلنا يقول بلهجة شاكية تنم عن انزعاجه، وقد بدا عليه الإضطراب إزاء هذا العناد القوي لدى محدّثه:

- أنا يا كريستيان إيفانوفتش... أنا يا كريستيان إيفانوفتش أنا... أنا أحب الهدوء والسكون والركون... وأكره ذلك التحرّك الكثير الذي يتحرّكه المرء في المجتمع بغير طائل. فهناك، أقصد في المجتمع الراقي، يجب على المرء أن يعرف كيف يصقل خشب الأرض بنعليه (هنا ظهر على جوليادكين أنه ينقر الأرض بكعب حذائه)... نعم ذلك أمر مطلوب هناك... ويجب على المرء هناك أن يحسن إستعمال الجناس... أن يعرف كيف يجامل وكيف يمدح بحذق وبراعة... نعم... كل ذلك لا بد منه هناك. وانا يا كريستيان إيفانوفتش لم أتعلم شيئًا من هذا كله... لم أتعلم في حياتي هذه الحيل... لم يتسع وقتي لتعلمها... أنا امرؤ بسيط، بلا مكر ولا دهاء، ولا طلاء خارجي. في هذا المجال، يا كريستيان إيفانوفتش، ليس لي قدرة؛ أنا هنا ألقي سلاحي وأتركه تمامًا.

نطق السيد جوليادكين بهذه الأقوال الأخيرة بلهجة تدل دلالة بليغة على أنه لا يأسف أي أسف لإلقاء سلاحه في ميدان الترهات السخيفة، وعلى أنه لا يأسف أي أسف لكونه غير حاذق في حيل المجتمع ومكر الناس. وكان كريستيان إيفانوفتش يصغي إليه مطرقًا وقد أطال شفتيه تعبيرًا عن عدم الاستحسان. كان كمن يتوجس شرًا. وأعقب كلام بطلنا المسهب صمت طويل.

قال كريستيان إيفانوفتش أخيرًا بصوت خافت:

- أحسب أنك ابتعدت قليلا عن موضوعك. أعترف لك بأنني لم أستطع أن أتابع تفكيرك إلا بكثير من العناء.

- لست قديرًا في مجال الفصاحة يا كريستيان إيفانوفتش، سبق أن تشرفت بذكر ذلك لك يا كريستيان إيفانوفتش. لا... لست قديراً في ميدان الفصاحة (كذلك ردد السيد جوليادكين بلهجة غدت على حين فجأة قاطعة، جازمة، حادّة).

همهم الطبيب:

- همم...

واستأنف بطلنا كلامه يقول بصوت مخنوق لكنه وقور رصين، متوقفًا على كل جملة:

- كريستيان إيفانوفتش، حين دخلت عليك بدأت كلامي معتذرًا والآن أريد أن أكرر ما سبق أن قلته، ومن أجل ذلك أسألك التسامح ورحابة الصدر. ليس هناك ما أخفيه عنك يا كريستيان إيفانوفتش. أنا إنسان ليس له شأن يذكر يا كريستيان إيفانوفتش، وأنت تعلم ذلك. ولكنني لا يؤسفني، لحسن حظي، أنني إنسان ليس له شأن يذكر. بالعكس يا كريستيان إيفانوفتش. ومن أجل أن أفصح عن كل فكري أقول لك أنني فخور بكوني إنسانًا ليس له شأن يذكر. ما أنا بالرجل الماكر الذي يدير المكائد... وهذا أمر أعتزّ به أيضًا. لا أقوم بعمل الأعمال خفيَّةً، بل أعمل صراحةً، في وضح النهار، دون احتيال. ورغم أنني قادر.. نعم قادر، أنا أيضًا، على الإيذاء، فإنني لا أريد الإيذاء يا كريستيان إيفانوفتش، لا أريد أن ألطخ نفسي، بل أفضل أن تبقى يداي طاهرتين. ومع ذلك فأنا أعرف وسائل الإيذاء... لكنني لا أريد أن أوذي يا كريستيان إيفانوفتش. أقول لك على سبيل الحقيقة والمجاز معًا، إنني أغسل يديَّ وأطهرهما.

كان السيد جوليادكين منتعشًا. وفي هذا الموضع من حديثه لزم صمت بليغ جدًا، ثم أردف يقول:

- أنا أسير في طريقي قدمًا يا كريستيان إيفانوفتش، في وضح النهار، لا أبحث عن دروب ملتوِّية، لأنني أحتقر الأساليب الملتوية وأتركها لغيري. ولست أرغب في إذلال أناس لعلهم أشرف منك ومني... عفوًا... أقصد أشرف مني ومن غيري يا كريستيان إيفانوفتش، لا أشرف منك ومني. إنني أكره الفخر. إنني أحتقر النفاق الدنيء، وأحتقر الوشايات والأقاويل والنمائم. إنني ألبس قناعًا في حفلة تقَّنع، لا في جميع الأيام، تجاه جميع الناس. وأريد في الختام أن ألقي عليك سؤالًا يا كريستيان إيفانوفتش، سؤالًا واحدًا: كيف تنتقم أنت من عدوّ، من عدوٍّ رهيب، أو من عدوٍّ تعده رهيبًا على الأقل؟.

هنا توقف جوليادكين عن الكلام راشقًا كريستيان إيفانوفتش بنظرة تحدٍ. لقد صب كلامه المسهِب المطنِب بوضوح وجلاء وثقة لا يدانيها وضوح ولا جلاء ولا ثقة، فكان يزن كل قول من أقواله ساعيًا إلى إحداث أقوى تأثير ممكن. ولكن ما إن أنهى خطابه حتى أخذ يتفرس في محدثه وهو يشعر بقلق شديد، بقلق عظيم. إنه يلتهمه الآن بنظراته إلتهامًا، ينتظر جوابه خائفًا وجلًا مشوشًا نافد الصبر تفيض نفسه همًّا

وغمًّا، فما كان أشد استغرابه وذهوله حين لم يزد كريستيان إيفانوفتش على أن دمدم ببضع كلمات بين أسنانه؛ ثم قرب كرسيّه من المائدة وقال له بلهجة جافة ولكنها لا تخلو من أدب وتهذيب، أن وقته ثمين جدًا، وأنه لا يفهم هذه الأقوال كلها فهمًا واضحًا؛ وأنه يظّل مع ذلك في خدمته وتحت تصرفه، ولكن في حدود اختصاصه، أما في كل ما عدا ذلك فلا يتحمل أية تبعة. قال الطبيب ذلك ثم أخرج ريشة، وتناول ورقة فثناها ثم قطعها على قد الورقة التي تكتب عليها الوصفات الطبية، ثم أعلن لبطلنا أنه سيصف له علاجًا مناسبًا.

تمتم جوليادكين وهو ينتصب على قدميه ويخطف يد الطبيب اليمني:

- لا.. لا.. يا كريستيان إيفانوفتش... لا حاجة إلى هذا. لا حاجة الى هذا البتّة. حقًا يا كريستيان إيفانوفتش لا ضرورة لهذا.

ولكن بينما كان السيد جوليادكين يقول هذا الكلام كان شخصه يعاني تحولًا غريبًا. إن بروقًا عجيبة تومض في عينيه الرماديتين، وإن ارتجافًا اختلاجيًا يهز شفتيه، وإن عضلات وجهه ترتعش. إن جسمه كله ينبض. واستطاع بالاستمرار في حركته الأولى أن يوقف يد الطبيب، ثم تسمَّر في مكانه جامدًا لا يتحرك، ولاح عليه أنه يتردد إليه بما يجب عليه أن يفعله.

مشهد غريب جرى عندئذ بين الرجلين. الطبيب متحير لحظة، مسمر على كرسيه، ثم فاقد صبره، محملق في السيد جوليادكين. وجوليادكين يحدق إلى الطبيب هو أيضًا بهذه الشدَّة نفسها وهذا العنف وينتصب كريستيان إيفانوفتش أخيرًا، متشبثًا بياقة ردنجوت زبونه. فيقف الرجلان وجهًا لوجه للحظات، جامديّن صامتيّن، لا يحول أحد منهما بصره عن صاحبه. وعندئذ يظهر الرد الثاني لدى السيد جوليادكين، يظهر ظهورًا مباغتًا غريبًا ليس في الحسبان.

إن شفتيه تختلجان، وإن ذقنه ترتجف ارتجافات عنيفة، وها هو ذا ينفجر آخر الأمر باكيًا. إنه يشهق، ويهز رأسه، ويلطم صدره بيده اليمنى، بينما يده اليسرى متشنجة على ياقة سترة كريستيان إيفانوفتش. أراد أن يتمتم ببضع كلمات، أراد أن يقدم بعض الشروح، ولكن ما من كلمة أمكن أن تخرج من فمه.

واستطاع كريستيان إيفانوفتش أخيرًا أن يتوب من ذهوله الطارىء وأن يعود إلى صوابه.

دمدم يقول وهو يدفع السيد جوليادكين إلى المقعد:

- كفى، أرجوك، هدىء نفسك، أقعد.

قال السيد جوليادكين بصوت أصّم مهموم:

- لي أعداء يا كريستيان إيفانوفتش، نعم، لي أعداء. أعداء عُتّاة آلوا على أنفسهم أن يضيعوني...

- هيا... دعك من هذا!... أي أعداء هم هؤلاء! ما ينبغي لك أن تفكر في أعدائك. اقعد، اقعد..

بذلك ختم الطبيب كلامه وقد استطاع أخيراً أن يقعِدَ السيد جوليادكين.

كفَ بطلنا عن الهيجان. ولكن عينَّيه ما تزالان ثابتتّين على وجه كريستيان إيفانوفتش. وكان واضحًا أن كريستيان إيفانوفتش منزعج، فهو يذرع الغرفة طولًا وعرضًا. وساد صمت طويل.

قال السيد جوليادكين أخيرًا، وهو ينهض منكسر النفس مغلوبًا:

- أشكرك يا كريستيان إيفانوفتش، أشكرك شكرًا لا حدود له. إنني متأثر أشدَّ التأثر بكل ما صنعته من أجلي اليوم. لن أنسى فضلك ما حييت، وسأظل معترفًا بجميلك أبد الدهر.

فكان رد الطبيب على هذه المحاولة الجديدة من السيد جوليادكين أن قال له:

- كفى.. أقول لك كفى.. هدىء نفسك. ثم أضاف وهو يدفعه مرة أخرى إلى الكرسي:

- قل لي الآن: ما الذي يشغل بالك؟، ما الذي يقلق نفسك؟ حدثني عن متاعبك.. وقل لي قبل كل شيء: من هم هؤلاء الأعداء الذين تشير إليهم؟ ما الذي يجري على غير ما تحب؟.

قال السيد جوليادكين مطرقًا إلى الأرض:

- لا يا كريستيان إيفانوفتش، لا.. دعنا من هذا كله الآن.. سنتحدث فيه مرة أخرى.. دعنا من هذا كله ليوم آخر، ليوم أنسب من هذا اليوم يا كريستيان إيفانوفتش، ليوم يصبح فيه كل شيءٍ واضحًا، ليوم تسقط فيه الأقنعة عن بعض الوجوه.. ليوم ينجلي فيه كل شيء. أما الآن... أقصد... بعد كل ما جرى بيننا... تعرف ذلك بنفسك يا كريستيان إيفانوفتش... فاسمح لي أن أتمنى لك يومًا سعيدًا يا كريستيان إيفانوفتش..

بهذا ختم السيد جوليادكين كلامه ناهضًا متناولًا قبعته، وقد لاح في وجهه الحزم.

- لك ما تشاء.. همم..

وصمت الطبيب لحظة ثم أردف يقول:

- إعلم على كل حال أنني، من جهتي، سأفعل كل ما يمكنني أن أفعله... إعلم أنني أريد لك الخير صادقًا كل الصدق.

- أنا أفهمك يا كريستيان إيفانوفتش، أنا أفهمك. نعم، أفهمك كل الفهم اليوم. ومهما يكن من أمر، فأرجوك أن تغفر لي ازعاجي إياك يا كريستيان إيفانوفتش..

- همم.. لا.. ليس هذا ما أردت أن أقوله. على كل حال، إفعل ما يحلو لك وواظب على العلاج كالعادة.

- سأواظب على العلاج، كالعادة، كما أمرتني يا كريستيان إيفانوفتش، نعم... سأواظب... وسأشتري الدواء من الصيدلية نفسها... ليست الصيدلة في أيامنا هذه بالتجارة البسيطة يا كريستيان إيفانوفتش.

- بأيّ معنى تقول هذا؟

- بالمعنى العادي يا كريستيان إيفانوفتش، أريد أن أقول بذلك أن الأمور تجري على هذا النحو في هذه الأيام..

- إمم...

- نعم، فإن أيسر شاب رقيع، لا الصيادلة وحدهم، يسمح اليوم بجميع الوقاحات في معاملة إنسان خيّر.

- همم... ماذا تقصد؟.

أقصد يا كريستيان إيفانوفتش، شخصًا بعينه نعرفه جميعًا يا كريستيان إيفانوفتش، نعرفه حق المعرفة، أنا وأنت... أقصد فلاديمير سيميونوفتش، إذا شئت أن أسميه..

- ها...

- نعم يا كريستيان إيفانوفتش، ولكنني أعرف كذلك أناسًا لا يتورعون عن مجافاة آداب المجتمع من أجل أن يقولوا ما يفكّرون فيه.

- ها.. كيف ذلك؟

- الأمر بسيط. ولكن هذه الحالة حالة خاصّة في حقيقة الأمر هناك أناس يعرفون، عند اللزوم، أن يقدموا لك طبقًا من الطعام هو حسك بالقشدة!.

- حسك بالقشدة؟.

- نعم.. حسك بالقشدة... يا كريستيان إيفانوفتش... هذا تعبير شعبي... نعم، هناك أناس يعرفون كيف يخفون خبثهم وراء ستار من الملاطفة... هناك أناس من هذا القبيل ياكريستيان إيفانوفتش.

- الملاطفة؟.

- نعم، الملاطفة.. التهنئة.. إليك مثال: كان أحد أصدقائي الحميمين، في هذه الأيام الأخيرة...

وصمت كأنما بدأ عليه التردّد.

كذلك سأل الطبيب وهو يتفرّس وجه السيد جوليادكين بانتباه شديد:

- ماذا كان عليه؟.

- نعم، كان على أحد أصدقائي الحميمين أن يهنئ صديقاً آخر من أصدقائي، وهو رجل محبَّب جدًّا، لطيف جدًّا، يمكن أن يسمى صديقٍ ممتازًا. لقد رُقّي هذا الصديق الثاني إلى درجة أعلى في الإدارة التي يعمل فيها، فإليك العبارات التي قالها له الصديق الأول مهنئًا: «يسعدني أعمق السعادة يا فلاديمير سيمينيوفتش أن أقدم إليك تهانيَّ، أن أقدم أصدق تهانيّ، ومما يزيدني سعادة أن الزمان الذي تعيش فيه، كما لا يجهل ذلك أحد، هو زمان أبناء ذوي الغنى والنفوذ».

كان السيد جوليادكين يشفع كلماته الأخيرة هذه بتحريك رأسه تحريكًا يفيض بمعاني الدهاء، ويشفعها بغمزات مكر يوجّهها إلى محدّثه:

- همم... إذًا هذا ما قاله له؟.

- نعم هذا ما قاله له ياكريستيان إيفانوفتش، قالها بهذا النص حرفيًّا، قالها وهو يحدق أيضًا في عينيّ آندره فيليبوفتش، عمِّ صاحبنا، عمِّ فلاديمير سيمينوفتش.

وفي الواقع يا كريستيان إيفانوفتش، فيمَ يهمني أن يُرقّى إلى رتبة معاون قاض، فيمَ يهمني ذلك؟ وأكثر من هذا إنه يريد أن يتزوج، على أن حليب مرضعته لما يجفّ على شفتيه، إذا أذنت لي بهذا التعبير... نعم... لقد قلت لهذا الفلاديمير سيمينوفتش... ها قد ذكرت لك كل شيء... فاسمح لي أن أنصرف.

- همم...

- نعم يا كريستيان إيفانوفتش، إسمح لي الآن أن أنصرف. وبعد الإلماع الى أبناء ذوي الغنى والنفوذ، أردت أن أصيب بحجر واحد طائرين. كنا عند أولسوفي إيفانوفتش. وكان ذلك أول من أمس. فإلتفت نحو كلارا أولسوفيفنا التي كانت قد غنت أغنية عاطفية، وقلت لها: «لقد غنيت هذه الأغنية بكثير من العاطفة في الواقع، ولكن الذين استمعوا إليك لم يعجبوا بك بقلب نقيّ جدًا». كانت غمزتي واضحة جدًّا يا كريستيان إيفانوفتش. أنت تفهمها حق الفهم. لقد أفصحتُ لها بهذه الغمزة إفصاحًا واضحًا عن أن الذين يستمعون إليها لا ينشدونها هي، بل ينشدون من ورائها شيئًا آخر.

- آ... وماذا فعل هو؟.

- بلعها... يا كريستيان إيفانوفتش... على حد التعبير الشعبي.

- همم...

- نعم.. تمامًا ياكريستيان إيفانوفتش. أما الشيخ، أبو الآنسة، فقد قلت له: «أولسوفي إيفانوفتش، أنا أعرف كل ما أدين لك به، وأقدّر ما أسبغته عليَّ من حسنات منذ طفولتي حقّ قدره.. ولكنني أرجوك أن تفتح عينيك يا أولسوفي إيفانوفتش. انظر حواليك! أما أنا فأحاول أن أخرج المسألة إلى الضوء يا أولسوفي إيفانوفتش».

- آ... هكذا...

ـ تماماً ياكريستيان إيفانوفتش.. هكذا..

- وهو، ماذا فعل عندئذ؟.

- هو؟ ماذا تتوقع أن يفعل يا كريستيان إيفانوفتش؟ لقد أخذ يهرف ويخبط في كلامه خبط عشواء.. قال لي: «أنا أعرفك جيًّدا... إن صاحب المعالي إنسانٌ يفيض كرمًا وجودًا...»، ثم استرسل في حديث غامض مبهَم: ماذا تتوقّع؟ لقد أخرفت السنون عقله كما يقال.

- ها ... هكذا جرت الأمور إذا.

- تمامًا يا كريستيان إيفانوفتش. ونحن جميعًا كذلك. هو شيخ عجوز، قلت لك ذلك. إحدى قدميه في القبر، كما يقال ولكن يكفي أن تسترسل أمامه في نمائم حتى يصبح كله آذاناً صاغية.

- نمائم؟.

- تمامًا ياكريستيان إيفانوفتش. إنهم يحيكون الآن مؤامرة. والدب الكبير، العم، أسرع يضع يده في العجين، وكذلك إبن الأخ، صاحبنا الصبي، طبعًا!... لقد تواطؤوا عدد من النساء العجائز، ولا شك أنهم طبخوا طبقًا على طريقتهم... هل تعرف ماذا اخترعوا من أجل أن يغتالوا إنسانًا؟.

- من أجل أن يغتالوا إنسانًا؟.

- تمامً يا كريستيان إيفانوفتش، من أجل أن يغتالوا إنسانًا. من أجل أن يغتالوه معنويًا. أطلقوا شائعة... ما زلت أقصد صديقي الحميم في الواقع... فهمته؟

حرّك كريستيان إيفانوفتش رأسه، علامة التأييد.

- نعم... روَّجوا عنه إشاعة... أعترف لك ياكريستيان إيفانوفتش أنني أستحي أن أذكر لك الإشاعة التي روّجوها...

- همم...

- أشاعوا عنه أنه قد تعهَّد تعهُّدا رسميًا بالزواج.. أنه قد خطب أخرى... هل تتصوّر هذه الأخرى التي أشاعوا أنه خطبها؟.

- صحيح؟.

- صاحبة مطعم حقير، ألمانية، امرأة عامية، يتناول وجباته في مطعمها، زعموا أنه خطبها.. سدادًا لديونها عليه.

- هم الذين يحكون هذا؟.

- هل تصدق يا كريستيان إيفانوفتش؟ أفهمك أنا أيضًا، من جهتي، أحسّ بأن...

قاطعه قائلًا:

- قل لي من فضلك: أين تسكن الآن؟.

- أين أسكن يا كريستيان إيفانوفتش؟.

- نعم... أريد أن أعرف... أظن أنك كنت في الماضي تعيش..

- صحيح يا كريستيان إيفانوفتش، كنت أعيش، كنت أعيش..نعم، كنت في الماضي أعيش... هذا واقع... كنت أعيش...

كان السيد جوليادكين يجيب بذلك مرفقًا كلماته بضحكة ضعيفة. ولاح أن جوابه قد بث القلق والاضطراب في نفس محدّثه.

قال الطبيب:

- لا... لقد أسأت فهم سؤالي... أردت أن أقول إنني من جهتي...

- أنا أيضًا أردت أن أقول يا كريستيان إيفانوفتش، أنني من جهتي...

كذلك قال السيد جوليادكين ضاحكا. ولكن يظهر أنني أطلت زيارتي يا كريستيان ايفانوفتش. آمل أن تأذن لي بالانصراف الآن..

- همم...

- تماماً يا كريستيان إيفانوفتش، أنا أفهمك، أنا أفهمك كل الفهم... وأخيرًا اسمح لي أن أتمنّى لك يومًا سعيدًا.

هكذا ردّد السيد جوليادكين بغير أي كلفة أو حرج إزاء محدثه. ثم انحنى محييًا وخرج من الغرفة، تاركًا الطبيب في ذروة الذهول.. هبط السلم وهو يبتسم إبتسامة مشرقة، ويفرك يديه فرحًا. حتى إذا صار عند باب العمارة استنشق الهواء النقي، وشعر بتحرر وانطلاق. وأوشك أن يعد نفسه أسعد إنسان على وجه الأرض، وهَمَّ أن يتجه نحو مكتبه، لولا أنه سمع فجأة قرقعة عجلات ورنين جلاجل... إنها عربة واقفة أمام الباب. فرفع عينيه وتذكّر كل شيء. وفتح بتروشكا باب العربة. فشعر السيد جوليادكين في هذه اللحظة بإحساس غريب أليم. واصطبغ وجهه بحمرة بضع لحظات. لكأن قلبه قد طُعِن... ووضع قدمه على درجة العربة، ثم إلتفتَ ينظر نحو نوافذ كريستيان إيفانوفتش. لقد حزر! كان الطبيب واقفًا هناك يرقبه مستطلعًا، متعجبًا، يلاعب لحيته بيده اليمنى. قال جوليادكين لنفسه وهو يرتمي في ركن من العربة: «هذا الطبيب غبيّ. نعم، غبيٌ جدًا. قد يكون بارعًا في معالجة مرضاه. ولكن ذلك لا يمنع أنه غبي كإوزّة».

استقر السيد جوليادكين في العربة أخيرًا. وعوى بتروشكا يقول للسائق: «هيا». ودرجت العربة من جديد متجهة نحو شارع نفسكي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الثالث.

إنقضى ذلك الصباح في حركة جهنمية.

فحين وصلت العربة إلى شارع نفسكي أمرَّ السيد جوليادكين بالوقوف على مقربة من جوسيتيني دفور، ثم قفز من العربة وأسرع يدخل تحت القناطر يحاذيه خادمه الوفي بتروشكا، وما هي إلا لحظة حتى كان في أحد مخازن المصوغات الذهبية والفضية، ولم يلبث، وقد بدا مرهقًا بالهموم والتبعات الثقال، يساوم على طقم كامل للمائدة، وعلى طقم للشاي، فاستطاع أن يحصل عليهما بألف وخمسمائة روبل، وبهذا السعر نفسه حصل على علبة سيجار أخاذة المظهر وعلى طقم كامل من أمواس الحلاقة بالفضة، واهتم أيضًا ببعض الأشياء المفيدة والجميلة، ووعد وعدًا جازمًا في آخر الأمر بأن يعود غدًا، بل بأن يرسل أحدًا بعد الظهر لاستلام هذه المشتروات. وحرص على أن يسجّل عنوان المخزن تسجيلًا دقيقًا، وأصغى بإنتباه إلى البائع الذي أثار مسألة العربون، فوعده بأن يدفعها في الوقت المناسب، ثم ودّع البائع المشدوه مسرعًا وخرج. طاف السيد جوليادكين الشارع دون أن يحوّل بصره عن بتروشكا، يتبعه رهط من أصحاب الدكاكين. وكان واضحًا أنه يبحث عن مخزن آخر. وفيما هو يطوف الشارع توقّف عند أحد «الصرافين»، فأبدل أوراقه المالية الكبيرة بأوراق مالية صغيرة، وبدا، رغم خسارته في التبديل، مغتبطًا بهذه العملية اغتباطًا كبيرًا، لأنها ضخّمت حجم محفظته تضخيمًا واضحًا. وبعد ذلك دخل مخزن أقمشة للسيدات، فأوصى هنالك أيضًا على أشياء كثيرة، متعهدًا تعهدًا قاطعًا بأن يعود في الغداة، وسجّل كذلك العنوان، وأجاب على سؤال البائع عن العربون بأنه سيدفعه في حينه. ثم دخل دكاكين أخرى، فسأل عن أسعار أشياء شتى، مساومًا في كل مكان، فكان يخرج من مخزن ليدخل إلى مخزن آخر ثم يعود إلى المخزن الذي سبق أن دخله مناقشًا التجار حول الأسعار مناقشة طويلة لا تنتهي، باذلًا نشاطًا كبيرًا على وجه العموم. حتى إذا ترك حي جوسيتيني دفور، اتجه إلى مخازن عرض الأثاث، فسأل عن أثاث كامل لست حجرات، وتلبث طويلًا أمام مقعد طريف من المقاعد التي تُعَدُّ «آخر صيحة» من صيحات الموضة، ثم خرج من المخزن بعد أن تعهد للبائع بأن يرسل من يستلم هذه الأشياء كلّها حالًا، وبعد أن وعد بدفع عربون على عادته.

وزار مخزنًا آخر من مخازن عرض الأثاث أيضًا، فأوصى على أشياء أخرى. كان يبدو أن حاجته إلى بذل النشاط لا ينضب لها معين. ومع ذلك فقد لاح عليه آخر الأمر أنه سئم هذا المكر كلّه. حتى لقد أخذ ضميره يعذّبه على حين فجأة، لا يدري إلّا اللّه لماذا.. وهو، خاصة. لا يتمنّى في هذه اللحظة، على أية حال من الأحوال، أن يجد نفسه وجهًا لوجه أمام أندره فيليتش، أو حتى أمام كريستيان إيفانوفتش... وفي أثناء ذلك دقّت الساعة الثالثة. فاستقلّ السيد جوليادكين في عربته. لقد أنهى أعمال الشراء التي سعى فيها سعيًا حثيثًا، ولم يشتر بعد نهار من البحث إلا قفازَيْن وزجاجة عطر بروبل ونصف روبل.

ولا يزال أمامه متسع من الوقت. لذلك أمر الحوذي أن يمضي به إلى مطعم مشهور في شارع نفسكي كان لا يعرفه إلا بالاسم. فلما وصل إلى المطعم خرج من عربته، وأسرع يدخل صالته بنية الإستراحة قليلًا، وتناول أكلة خفيفة، وانتظار «ساعته» خاصّة. أكل كما يأكل امرؤ ينتظر عشاء مهمًا دسمًا. فيقرر أن يأكل شيئًا بسيطًا يهدئ به الجوع. وشرب كذلك كأسًا صغيرةً من الفودكا، ثم قبع في أحد المقاعد. وبعد أن أجال بصره في القاعة، استغرق بهدوء في قراءة جريدة محلية صغيرة.

قرأ سطرين أو ثلاثة أسطر، ثم نهض ينظر إلى نفسه في المرآة، فرتّب شعره و هندامه قليلًا، ثم اقترب من النافذة، فألقى نظرة ليتأكد من أن عربته لا تزال في مكانها... ثم عاد إلى مقعده وتناول جريدته من جديد... كان واضحًا أنه قلِقٌ، مضطربٌ، وألقى نظرة على الساعة المعلّقة في الحائط وكانت تشير إلى الساعة الثالثة والربع. لا يزال عليه إذًا أن ينتظر مدة طويلة. وقدّر السيد جوليادكين أنه ليس من اللائق كثيرًا أن يبقى أمام مائدة خالية، فأمر لنفسه بفنجان من الشوكولا، رغم أنه لم تكن به أي رغبة في احتساء شيء من الشوكولا في تلك اللحظة والحقُّ يُقال. شرب الشوكولا متمهّلًا ولما لاحظ بعدئذ أن عقرب الساعة قد قطع مسافة طويلة نهض ليدفع الحساب. وفي تلك اللحظة نقره أحد على كتفه. فإلتفت ورأى أمامه اثنين من زملائه، هما اللذان إلتقى بهما صباحًا في شارع لتباينايا - وهما شابان مبتدئان في الحياة وفي الوظيفة الحكومية، وكانت علاقة بطلنا بهما علاقة ملتبسة، فلا هي علاقة مودّة، ولا هي علاقة عداوة صريحة.

كان الطرفان كلاهما يحاولان أن يراعيا قواعد اللياقة، ولكن كان يبدو أن قيام تقارب وثيق بينهما أمر مستحيل. أما في اللحظة الحاضرة فقد لاح أن هذا اللقاء قد أزعج السيد جوليادكين كثيرًا، فهو يقطب حاجبيه، بل يبدو مضطربًا وظلّ صامتًا لا يدري ماذا يفعل.

وسرعان ما أخذ الشابان الموظفان يزقزقان قائلين:

- ياكوف بتروفتش، ياكوف بتروفتش! أأنت هنا؟ يا لها من مصادفة!

لكن السيد جوليادكين، وقد انزعج قليلًا، بل استاء من هذه الدهشة التي أظهرها الموظفان على هذا النحو الفَجّ، وبهذه الطريقة التي ليس فيها تحرّج ولا كلفة، أسرع يردّ عليهما قائلا:

- ها... هذا أنتما أيها السيدان!

- ثم اصطنع لهجة انطلاق كاذب وجرأة زائفة، فقال:

- أنتما إذًا هاربان أيها السيدان! هه هه هه! ومن أجل أن يبرز المسافة بينه وبينهما، ومن أجل أن يرد هذين الشابين الغرَّيْن الطائشين إلى مكانهما، حرّك يده بحركة من يريد أن يربت على كتفي واحد منهما. ولكن طابع الألفة الملاطفة التي أراد أن يطبع بها حركته لم يوفَّق، فبدلًا من أن يقوم بحركة هادئة محتشمة فعل شيئًا آخر تمامًا، وسأل الشابين:

- وبعد... ألا يزال صاحبنا الدب في المكتب؟

- من تقصد يا ياكوف بتروفتش؟

- الدب... ألا تعرفان من يُطلق عليه اسم الدب؟

قال جوليادكين ذلك وأخذ يضحك. وإلتفتَ نحو النادل يتناول باقي الدراهم، ثم أضاف:

- هو آندره فيليبوفتش طبعًا

وضع النقود في جيبه، ثم كرر سؤاله بلهجة جادة جدًّا هذه المرة. فتبادل الموظفان نظرة ذات دلالة، وقال أحدهما يجيبه:

- نعم يا ياكوف بتروفتش... لا يزال في المكتب، حتى إنه قد طلبك.

- ها... لا يزال هناك... طيب... فليبقَ هناك. وقد طلبني إذًا؟

- نعم طلبك يا ياكوف بتروفتش. ولكن ماذا جرى لك؟ أراك متعطِّرًا متدهِّنًا... أنيقًا كل الأناقة!

- نعم، أيها السيدان، نعم... الخلاصة....

قال السيد جوليادكين ذلك وحوَّل عنهما بصره محاولًا أن يبتسم... وإذ رأى الموظفان أنه يبتسم أخذا يضحكان بقهقهة صاخبة. فقطّب السيد جوليادكين وعبس، ثم قال بعد لحظة صمت، عازمًا، في ما يظهر، على أن يكشف لهما عن حقيقة مهمة:

- أحب أن أقول لكما، أيها السيدان، على مودة وصداقة، إنكما لم تعرفاني حتى الآن فى ضوء معيّن... ولست ألوم أيًّا منكما على ذلك ولعلّي أنا المسؤول عنه.

وزمّ السيد جوليادكين شفتيه وتفرّس في محدَّثيْه، وقد بدا في وجهه الجد والوقار. فتبادل الشابان مرة أخرى نظرة عجلى مندهشة. ثم أضاف:

- إنكما، أيها السيدان، لم تعرفاني بعد وليس من المناسب في هذه الساعة وفي هذا المكان أن أشرح لكما من أنا. ولكنني أحب أن أقول لكما بضع كلمات. إن هناك، أيها السيدان، أناسًا لا يحبّون الطرق الملتوية كثيرًا، ولا يلبسون قناعًا إلا حين يذهبون إلى حفلة يضع الناس فيها أقنعة. أناسًا يؤمنون بأن حياتهم يجب ألا تنقضي في تعلّم إتقان تلميع البلاط بنعالهم. إن هناك أيضًا، أيها السيدان أناسًا لا يعدّون أنفسهم في ذروة السعادة حين يرتدون سراويل جميلة التفصيل. وهناك آخر الأمر أناسٌ يكرهون أن يبذلوا جهودهم كثيرًا في ما لا طائل تحته، ويحتقرون الاستعراضات والدسائس والتملّق، ويتحاشون فوق ذلك كله، أيها السيدان، أن يحشروا أنوفهم حيث لا يجب أن تكون. والآن اسمحوا لي أن أستأذنكم بالانصراف.

توقف جوليادكين عن الكلام. وبدا على الشابين الموظّفين أنهما مسروران بكلامه المسهب كل السرور، لأنهما لم يلبثا أن انفجرا ضاحكين في كثير من الوقاحة. إلتهب السيد جوليادكين غيظًا وقال:

- اضحكا أيها السيدان... اضحكا ما اتسع وقتكما للضحك...

ثم أضاف مستاءً وهو يتناول قبعته ويتجه نحو الباب:

- من يعش يرَ..

ولكنه عاد يلتفت نحوهما مرة أخيرة، ليقول:

- ومع ذلك أيها السيدان، أحب أن أقول لكما أيضًا، أحب أن أذهب إلى أبعد من ذلك، ما دمنا هنا بين أربعة جدران، فأقول لكما: هذه مبادئ في الحياة: «الصمود عند الاخفاق، ورباطة الجأش عند النجاح، والامتناع عن الإضرار بأحد على أيّ حال من الأحوال». لست بالرجل الذي يحسن تدبير المكائد، وإني بذلك لفخور، ولست أصلح للدبلوماسية. يقال أيها السيدان إن الطائر يطير نحو الصياد قدمًا. إلا أن في هذا القول نصيبًا من صدق، وإني لأصدّقه على كل حال، ولكن قولا لي: مَن الصياد ومن الطائر في عالمنا؟... تلك مسألة يجب أن تُناقش أيها السيدان.

وبعد لحظة من صمت يفيض بلاغة، اصطنع السيد جوليادكين هيئة أخرى جادة وقورة، إلى أبعد حدود الجدّ والوقار، ثم حيا محدثَيْه مقطب الحاجبين مزموم الشفتين، وخرج تاركًا صاحبَيْه على أشد حالة من الذهول.

سأله بتروشكا بلهجة قاسية، وقد بدا عليه السأم من التجول في هذا البرد القارص:

- إلى أين تذهب الآن؟

وكرر سؤاله، فإذا به يلتقي بنظرة رهيبة صاعقة، بتلك النظرة التي سبق أن استعملها السيد جوليادكين مرتين في الصباح، ولجأ إليها الآن مرة أخرى وهو يهبط درجات باب المطعم.

- إلى جسر اسماعيلوفسكي.

صاح بتروشكا بالحوذي:

- إلى جسر اسماعيلوفسكي. هيا!...

«المفروض ألا يبدأ العشاء عندهم قبل الساعة الرابعة... وقد لا يبدأ قبل الخامسة... ألست ذاهبًا قبل الأوان؟ ولكن ماذا لو وصلت قبل الموعد! هذا عشاء عائلي، نعم... أستطيع أن أسمح لنفسي بالمجيء دون التقيد - بالرسميات -... بغير كلفة»، كما يُقال في أوساط الناس المهذبين. لماذا لا يكون من حقّي أن أتصرّف «بغير كلفة»؟ لقد أنبأنا الدب أن كل شيء سيكون «بغير كلفة» في منزلهم... فلماذا لا أستعمل أنا هذا الحق؟... ذلك كان مجرى خواطر السيد جوليادكين أثناء الطريق. ومع ذلك كان اضطرابه لا ينفك يزداد كان واضحًا أنه يتهيّأ لمواجهة موقف حرج شائك، إذا لم نقل أكثر من ذلك. كان السيد جوليادكين يهمس، ويلوّح بيده اليمنى، وينظر من خلال باب العربة بغير انقطاع.

حقًّا إن من يراه في هذه اللحظة على حالته تلك لا يمكن أن يتصور أنه ذاهب إلى عشاء، إلى عشاء عائلي، «من غير كلفة»، كما يقال في أوساط المهذَّبين، ووصل

أخيرًا قرب جسر اسماعيلوفسكي، عيّن للحوذيِّ إحدى العمارات، فاجتازت العربة باب العمارة مقرقعة، وتوقّفت عند سلم الجناح الأيمن من المبنى ولمح السيد جوليادكين على نافذة الطابق الثاني وجه امرأة فبعث إليها بقبلة على راحة يده. والحق أنه لم يكن يدرك نفسه ماذا يفعل... كان في تلك اللحظة لا ميتًا ولا حيًا. وخرج من العربة شاحب الوجه مضطرب النفس. صعد درجات المدخل، ونزع قبعته بحركة آلية، وعدّل ثيابه، واندفع يصعد السلم مصطكّ الركبتَيْن.

سأل الخادم الذي جاء يفتح له الباب:

- هل أولسوفي إيفانوفتش في بيته؟

فأجابه الخادم:

- نعم هو في بيته... بل ليس هو في بيته...

- كيف؟ ما هذا الذي تقوله يا صديقي؟ أنا آتٍ للعشاء أيها الرجل الشهم. ثم إنك تعرفني.

- طبعًا. ولكني أُمرت ألا أدعك تدخل.

- أنت... أنت مخطئ... ولا شك هذا أنا... أنا مدعو... مدعو إلى العشاء يا صاحبي...

كذلك قال السيد جوليادكين متدفقًا في الكلام، نازعًا عنه معطفه، عازمًا على الدخول إلى الصالون.

قال الخادم:

- معذرة، ممنوع. لقد أُمرتُ بأن لا أستقبلك... وأُمرت بأن أمنعك من الدخول. هذا كل شيء.

امتقع لون السيد جوليادكين. وفي هذه اللحظة فُتح باب إحدى غرف البيت، وأقبل منها إلى حجرة المدخل الخادم العجوز الذي يعمل عند أولسوفي إيفانوفتش.

قال الخادم الأول يخاطب العجوز:

- يا إيميليان جيراسيموفتش... انظر إلى هذا السيد... إنه يريد الدخول، وأنا...

- أنت غبي يا ألكسي امضِ إلى الخدمة في الصالونات وابعث إليَّ بذلك الوغد سيميوفتش.

قال جيراسيموفتش ذلك ثم إلتفتَ إلى السيد جوليادكين فأعلن له بلهجة مهذبة ولكنها قاطعة:

- ممنوع يا سيدي، مستحيل استحالة مطلقة يا سيدي. مولاي يرجوك أن تعذره. إنه لا يستطيع أن يستقبلك.

- هل أوضح لك بدقة أنه لا يستطيع أن يستقبلني؟

كذلك قال جوليادكين خجِلًا ثم أضاف:

- معذرة يا جيراسيموفتش... ولكن لأي سبب هذه الاستحالة المطلقة؟

- هكذا... مستحيل استحالة مطلقة.. لقد أعلنت وصولك، فقيل لي: «اطلب منه أن يعذرنا». الخلاصة... لا يستطيع مولاي أن يستقبلك.

- ولكن لماذا؟ كيف ذلك؟ كيف؟

- عجيب! اسمح لي...

- ولكن لماذا؟ هذا غير ممكن. قل لي... لماذا؟ أنا مدعو إلى العشاء... «على كل حال إذا كان يطلب أن أعذره فذلك أمر آخر... وعلى ذلك يا جيراسيموفتش.. اشرح له.... أرجوك».

- عفوًا... اسمح لي...

قال جيراسيموف ذلك وهو يبعد بيده السيد جوليادكين جازمًا، فاتحًا بذلك ممرًا عريضًا لسيدَيْن دخلا الدهليز. إنهما آندره فيليبوفتش وابن أخيه، فلايمير سيمونوفتش. تفرّس الرجلان كلاهما في السيد جوليادكين مذهولين. وأراد آندره فيليبوفتش أن يقول شيئًا، ولكن السيد جوليادكين كان قد عزم أمره، فها هو يغادر حجرة المدخل خافض العينين محمرَّ الوجه، مشعّث الهيئة وعلى شفتيه ابتسامة حزينة.

- سأمر في ما بعد يا جيرا سيموفتش. سأجيء لأفهم الأمر لا شك في أن كل شيء سيتضح في حينه.

دمدم بذلك وهو يجتاز العتبة منتقلًا إلى فسحة السلم.

- ياكوف بتروفتش، ياكوف بتروفتش...

كذلك نادى آندره فيليبوفتش وهو يهرع وراء بطلنا. وكان بطلنا قد أصبح على فسحة الطابق الأدنى فإلتفت بقوة نحو آندره فيليبوفتش.

سأله بصوت قاطع:

- ما الذي تريده يا آندره فيليبوفتش؟

- ما الذي جرى يا ياكوف بتروفتش؟ ماذا بك؟

لا شيء يا آندره فيليبوفتش لقد جئت إلى هنا من تلقاء نفسي هذا شأن من شؤون حياتي الخاصّة يا آندره فيليبوفتش.

- ماذا تقول؟

- أقول إن هذا شأن من شؤون حياتي الخاصة يا آندره فيليبوفتش، وأحسب أنه ليس لأحد أن يأخذ عليّ شيئًا من سلوكي في ما يتصل بعلاقاتي الرسمية.

- ماذا تقول؟ في ما يتصل بعلاقاتك الرسمية؟... ولكن ماذا بك أيها السيد؟ ماذا بك؟

- لا شيء... يا آندره فيليبوفتش لا شيء إطلاقًا. بنيَّة وقحة... ولا شيء غير ذلك.

- كيف؟ كيف؟

اضطرب آندره فيليبوفتش وذُهل، فأصبح لا يعرف ماذا يقول... وكان السيد جوليادكين أثناء ذلك الحوار لا يزال واقفًا على فسحة سلم الطابق الأدنى، محدِّقًا ببصره إلى رئيسه وكأنه يهمّ أن يثب عليه في كل لحظة، وإذ أدرك بطلنا اضطراب محدّثه خطا خطوة إلى أمام بغير شعور تقريبًا، فتراجع آندره فيليبوفتش خطوة أيضًا. فتقدّم جوليادكين مزيدًا من التقدم فنظر آندره فيليبوفتش حواليه وقد بدا في وجهه القلق، وفجأة أخذ السيد جوليادكين يصعد السلم بخطى سريعة... ولكن خصمه وثب أسرع منه فدخل البيت وأغلق الباب وراءه.

لبث السيد جوليادكين وحيدًا على السلم زاغت عيناه وظلّ واقفًا هنالك، مصعوقًا مسمَّرا يجترّ خواطر غريبة عادت إلى خياله. إنها ذكرى تتصل بموقف عجيب وُجد فيه منذ مدة قصيرة.

دمدم يقول وهو يحاول أن يبتسم:

- هه هه...

وفي تلك اللحظة سمع وقع أقدام وصوت كلام في الطابق الأدنى... لا شك أنهم مدعوّون آخرون من ضيوف أولسوفي إيفانوفتش. ثاب السيد جوليادكين إلى رشده، فأسرع يرفع ياقة فراء معطفه ويخفي وجهه فيها ما استطاع إخفاءه، ثم أخذ يهبط السلم بخطى سريعة متواثبًا متعثِّرًا يوشك أن يسقط عند كل خطوة. كان يشعر بوهن، ويحس بنوع من الخدر. وقد بلغ من الإضطراب أنه حين وصل إلى درجات المدخل لم ينتظر أن تتقدّم العربة إليه، بل اتجه هو إليها مجتازًا الفناء الموحل. وحين همَّ أن يصعد إلى العربة أحسّ فجأة برغبة قوية في أن يغور تحت الأرض أو يختبئ هو وعربته في حجر من حجور الفئران. خيّل إليه أن جميع من كانوا في هذه اللحظة عند أولسوفي قد وقفوا ينظرون إليه، أحس بأنه لو إلتفتَ لحظة واحدة لمات على الفور في مكانه.

- ما الذي يضحكك أيها الغبيّ؟

كذلك سأل بتروشكا بعنف بينما كان الأخير يساعده في ركوب العربة.

- أنا؟ لا شيء! لست أضحك... إلى أين نذهب الآن؟

- إلى البيت. بسرعة.

صاح بتروشكا بالحوذي وهو يستقر في مؤخرة العربة:

- إلى البيت!

- «بوز غراب». كذلك قال السيد جوليادكين في نفسه.

وتحركت العربة... وقطعت جسر اسماعيلوفسكي، فإذا بالسيد جوليادكين يشد الحبل قويًّا بعد مدة على حين فجأة، ويأمر الحوذيّ بالعودة القهقرى، فيدير الحوذي

الحصانين، ويصل بعد دقيقتين مرة أخرى إلى فناء العمارة التي يقع فيها منزل أولسوفي إيفانوفتش.

صاح بطلنا:

- قف. لا داعي. أخرج.

وكأن الحوذي كان يتوقّع أن يصدر إليه هذا الأمر الجديد، فلم يحتجّ بل دار في الفناء من دون أن يتوقّف وخرج إلى الشارع.

لم يأمره السيد جوليادكين بأن يعود به إلى منزله، بل أمره بأن يقطع جسر سيميونوفسكي، ثم أمره بدخول شارع صغير، ثم بالتوقف عند حانة حقيرة المظهر. هنالك نزل من العربة، فنقَّد الحوذي أجره، وأمر بتروشكا أن يمضي وأن ينتظره في البيت. أما هو فقد دخل الحانة، فاتخذ لنفسه مكانًا وأمر بعشاء. كان في حالة نفسية سيئة. إن رأسه مقرّ سديم لا يصدّق (الجملة صحيحة). سار في الصالة زمنًا، وهو نهب قلق شديد وجلس آخر الأمر دافنًا جبينه في يديه، وأخذ يفكر بكل ما أوتي من قوة باحثًا عن حل للمشكلة التي يطرحها الموقف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الرابع

في ذلك اليوم الرائع الفخم، وهو عيد ميلاد كلارا أولسوفيفنا، البنت الوحيدة لمستشار الدولة بيرنديف الذي كان في الماضي حاميًا للسيد جوليادكين، أقيمت حفلة عشاء ذات أبهة وعظمة وجلال، لم يشهد لها مثيل منذ زمن طويل في منازل كبار الموظفين، من حي اسماعيلوفسكي وغيره. حفلة عشاء لها مظاهر وليمة من ولائم بالتازار. يذكّر بذخها وترفها وتنسيقها بالمآدب البابيلونية الكبرى. ما كان يعوز هذه الحفلة شيء لا شمبانيا كليكو، ولا المحار، ولا الفاكهة التي تُشترى من محلات إيليسييف وميلوتين الشهيرة. وكانت الصالونات مزدحمة بجمهرة مرموقة متلألئة من الناس تضمّ جميع كبار موظفي الحكومة. وقد اختتم ذلك اليوم المشهود الذي تميّز بتلك الوليمة الفاخرة بحفلة راقصة. كانت عائلية طبعًا، ولكن ذلك لا يمنع أنها كانت رائعة وفخمة إلى أبعد حدود الروعة والفخامة، سواء من ناحية حسن الذوق أو من ناحية علوّ مقام الحاضرين. أنا أعلم أن الحفلات الراقصة التي من هذا النوع موجودة، ولكنها نادرة. إنها أعياد كبرى يحتفل بها احتفالًا عائليًا، وهذه الأعياد لا تقوم عادة في بيوت راقية جدًا، كبيت مستشار الدولة بيرنديف مثلًا. بل إنني لأذهب إلى أبعد من ذلك فأدّعي أن مستشاري الدولة لا يقدرون جميعًا على إقامة مثل هذه الحفلات! آه... يا ليتني كنت شاعرًا... شاعرًا له مواهب هوميروس أو بوشكين (ذلك أنني بمواهب دون مواهب هذين الشاعرَيْن لا أجازف...)، إذًا لصوّرت لك، أيها القارئ، بريشة بارعة وألوان زاهية، الخطوط الكبرى من ذلك الأصيل المظفر.

لو كنت شاعرًا أملك تلك المواهب لبدأت قصيدتي بوصف العشاء... ولألححت خاصة على تلك اللحظة الفذة الفريدة الفخمة، التي رُفع فيها أول كأس احتفاء بملكة ذلك اليوم: كنت سأظهرك أولًا على المدعوّين وقد تجمّدوا انتظارًا، وصمتوا صمتًا مهيبًا، صمتًا هو إلى بلاغة ديموستين أقرب منه إلى البكم. ثم أقدّم إليك آندره فيليبوفتش، عميد هذا الحفل، الذي يمتاز فوق ذلك بجميع حقوق التصدّر، إذ نهض مزيَّن الصدر بالأوسمة، تزيُّنًا ينسجم وشعره الأشيب، فنطق بأولى التمنيات، رافعًا كأسه المملوءة بخمر نادر، خمر يُستورد من مملكة بعيدة للاحتفال بحوادث هي على هذا القدر من خطورة الشأن وعلوّ القيمة، خمر هي شراب ثمين أشبه برحيق الآلهة منه بخمر البشر، ولصوَّرت لك بعد ذلك المدعوين وأبوَيْ ملكة اليوم السعيدين، لحظة رفعوا كؤوسهم اقتداءً بآندره فيليبوفتش، وقد ثبتت نظراتهم عليه بانتظار خطابه.

ولأريتك آندره فيليبوفتش نفسه، وقد تأثّر تأثرًا عميقًا، فذرف في كأسه دمعة خاطفة، ثم لصوّرته لك يكيل المديح للجميلة ويعرب لها عن تمنياته، ويقترح على المدعوّين أخيرًا أن يشربوا نخبها، ويفرغ هو كأسه... ولكنني أعترف لك بكثير من التواضع أيها القارئ أنني كنت سأعجز حتمًا عن وصف تلك اللحظة التي تمتاز بروعة قصوى، أعني اللحظة التي رأيت فيها كلارا أولسوفيفنا، ملكة هذا العيد يزهو وجهها كوردة من ورود الربيع، وتحمرّ سعادةً وخَفَرًا، ثم ترتمي بين ذراعَيْ أمها الحنون وقد فاضت نفسها انفعالًا. وكنت سأعجز كذلك عن تصوير هذه الأم الحنون

وهي تذرف دموع السعادة، وعن تصوير الأب أولسوفي إيفانوفتش مستشار الدولة. لقد كان هذا الشيخ المحترم الوقور ينشج باكيًا. نعم، لقد كان هذا الرجل الذي فقد خلال السنين الطويلة التي قضاها في الوظائف استعمال ساقية، ولكن كافأه القدر على ذلك مكافأة عادلة، فزوده بمال كثير، ومنزل جميل، وأملاك عدة. ووهب له، خاصة، ابنة جميلة كالنهار. أقول كان هذا الرجل ينشج باكيًا كطفل، ويؤكّد من خلال الدموع أن «صاحب السعادة محسن عظيم...». لا... ما كان لي بحال من الأحوال أن أصف الإنفعال الشديد الذي استولى في تلك اللحظة على الحضور الذين تعلّقت أبصارهم بشفتَيْ آندره فيليبوفتش.

إن موظفًا شابًا من موظفي السجل (كان مظهره في تلك الدقيقة أقرب إلى مظهر مستشار محترم منه إلى مظهر موظف بسيط في السجل)، لم يستطع أن يحبس في تلك اللحظة دموعه، فعبر بذلك عن انفعال سائر الحضور.

وكان مظهر آندره فيليبوفتش من جهة، لا يشبه في تلك اللحظة مظهر مستشار، ولا مظهر رئيس دائرة... لا... وإنما كان مظهره مظهرًا آخر، مظهرًا لا أستطيع أن أصفه، ولكنه ليس مظهر مستشار على كل حال... فلقد كان يحلّق... كان فوق كل هذا...

وأخيرًا، لو كنت أملك تلك المواهب... ولكن أين أنا من الأسلوب الناصع الرفيع. أين أنا من الأسلوب القويّ المشرق الذي يمكنني من وصف الجو العاطفي المؤثر في تلك اللحظات الرائعة التي تهيب بالمرء أن يرتفع إلى السمو الأخلاقي، وهي لحظات من الحياة يبدو كل شيء فيها أنه يسهم في تأكيد ظفر الفضيلة على الجمود والكفر والرذيلة والحسد... لا... إنني أوثر أن أصمت، وأتلفّع بالصمت، بصمت هو أبلغ من الكلام. أن أصف لكم ذلك الفتى السعيد الذي شارف على السادسة والعشرين من عمره، فلاديمير سيميونوفتش، ابن أخ آندره فيليبوفتش. إنه الآن واقف يقترح، بدوره، نخبا آخر.

جميع النظرات المعلّقة به: نظرات الأبوين المخضلّة بالدموع، ونظرات عمه الساطعتين اعتزازًا، والنظرات التي تفيض خفرًا وحياء من ملكة اليوم، والنظرات التي تشعّ حماسة من أكثر المدعوّين. وأخيرًا، نظرات بعض زملاء هذا الشاب اللامع، وهي نظرات تقرأ فيها شيئًا من حسد. أريد أن أصمت ولكن هذا الفتى مليء بما يجذب إليه ويغري فيه. والحق أن مظهره أقرب إلى مظهر شيخ، بالمعنى الحسن من معاني هذا التشبيه طبعًا. إن وقفته ووجهه المحمر ورتبته (وهي رتبة معاون قاضٍ)، التي تلتحم به إلتحامًا، فكأنهما شيء واحد، ذلك كله كان في تلك اللحظة كأنه يهتف قائلًا: «تلك هي الدرجات القصوى من السعادة التي يمكن أن تقود الفضيلة إنسانًا إليها...». لا ولا أريد أن أروي لكم تفصيلًا كيف اقترح أنطون أنطونوفتش سيتوشكين، الموظّف برتبة رئيس دائرة، زميل آندره فيليبوفتش، وزميل أولسوفي إيفانوفتش في الماضي، والصديق القديم للأسرة، وعرّاب الفتاة فوق ذلك، نعم كيف اقترح هذا الشيخ العجوز ذو الجمجمة التي تشبه القمر، نخبًا آخر هو أيضًا، وكيف غنّى على طريقة الديك بعض الأمازيح أضحك جميع المقفّاة. إن هذا التجرؤ الذي كان نسيانًا لائقًا للياقة - إن صحَّ التعبير - قد أضحك جميع

الحضور حتى الدموع. فهذه كلارا أولسوفيفنا نفسها تنهض بموافقة أبويها فتقبّله وتشكره في كثير من اللطف والمرح. وحسبي أن أضيف أن المدعوّين، كما ينتظر في ختام وجبة كهذه الوجبة، قد أخذوا يشعرون، بعضهم نحو بعض، بعواطف حارَّة جدًا، أخوية جدًا.

ونهضوا أخيرًا عن المائدة. فأما الرجال المتقدّمون في السن بعض التقدّم، فإنهم بعد أن تبادلوا كلمات تتسم بالمودة والصداقة الحميمة، انسحبوا في وقار إلى الصالون القريب. وأما الشباب - وكان الوقت ثمينًا ما ينبغي أن يضيع سدى - فلم يلبثوا أن جلسوا إلى موائد القمار الخضراء شاعرين شعورًا عميقًا بالقيمة الخاصّة لكلٍّ منهم. وأما السيدات اللواتي مكثن في الصالون الكبير فسرعان ما تلطّفن تلطفًا نادرًا فذًا، وأخذن يتحدّثن في شؤون الزينة. وهذا ربّ المنزل، الشيخ المحترم الذي فقد استعمال ساقيه في خدمة العدالة والحقيقة، وكوفئ على النحو الذي ذكرناه آنفًا، يطوف على حلقة ضيوفه متوكّئًا على عكّازيْن، تسنده ابنته وفلادمير سيميونوفتش. وتستبد بالشيخ النبيل على حين فجأة لطافة عجيبة فيقرّر أن يقيم حفلة راقصة مرتجلة من دون أن يهتم بالنفقات. وهذا فتى نشيط (هو ذلك الموظف في السجل، الذي قلنا إنه أشبه بشيخ محترم منه بمراهق)، يرسل فورًا للمجئ بموسيقى على جناح السرعة.

وصل الموسيقيون بعد قليل، وعددهم أحد عشر موسيقيًا، وفي الساعة الثانية والنصف تمامًا دوّت أولى ألحان رقصة فرنسية، ثم تبعتها رقصات أخرى... لا داعيٍ إلى أن أقول إن ريشتي لا تملك من الرهافة والقوة ما يمكّنني من أن أصف وصفًا أمينًا هذه الحفلة الراقصة المرتَجَلة التي تكرَّم بها رب المنزل المبيضّ الرأس. وما أوتيَ من لطف فذٍ وكرم نادر. وأنّى لي أنا القصّاص المتواضع الذي يروي مغامرات السيد جوليادكين، وهي مغامرات عجيبة - أعترف بذلك - أن أنقل إلى القارئ ذلك التألق الخارق والانسجام الرائع في ذلك العيد الذي ائتلف فيه الجمال والتلألؤ والفرح والمرح ائتلافًا موفقًا مع الأناقة المحتشمة والاحتشام الأنيق. كيف أصف ألعاب وضحكات جميع هاته السيدات اللواتي كنَّ أشبه بغادات أساطير منهنَّ بنساء موظفين - وذلك مديح أزجّيه لهنّ - كيف أصف وجناتهنّ وأكتافهنّ التي تشبه أن تكون ألوانها ألوان زهر الليلك. كيف أصف قاماتهن الممشوقة وأقدامهنّ الصغيرة الماكرة النشيطة... وكيف أصف فرسانهنّ اللاعبين هؤلاء الممثلين المحترمين للإدارة الحكومية.

إن المراهقين والكهول، الفرحين والرصينين من الشبان، والمرحين والحالمين، والذين يمضون بين كل رقصة ورقصة إلى الصالون الأخضر الصغير ليدخّنوا غليونًا، والذين لا يدخنون بين كل رقصة ورقصة... إن هؤلاء جميعًا يحملون أسماء مجيدة، ويحملون جميعًا ألقابًا شريفة، يفيضون لباقة ورشاقة وأناقة. ويشعرون شعورًا عميقًا بقيمتهم ومنزلتهم. ويكادون يتخاطبون جميعًا بالفرنسية، وحتى الذين يستعملون منهم اللغة الروسية يعبّرون عن أنفسهم بطريقة رفيعة راقية مزاوجين بين المرَح وبين الجُمَل المثقلة بالمعاني. في صالون التدخين، في صالون التدخين فقط، كانوا يسمحون لأنفسهم بشيء يسير من الخروج على اللغة الراقية، فتفلت من

ألسنتهم جملة مألوفة لطيفة من هذا النوع: «هيه... يا بييرو التقيّ النقيّ... لقد عرفت كيف تفضح صاحبتك»، أو «مرحى أيها الوغد فاسيا، لقد وصلت إلى غاياتك، عرفت كيف تتعب غادتك بغير رحمة وتجعلها تتلوّى».

ولكن قلمي يخونني أيها القارئ، كما سبق أن تشرّفت بأن قلت لك هذا. لذلك أوثر أن أصمت أو قل أن أعود إلى السيد جوليادكين البطل الحقيقي لهذه القصة الصادقة.

يجب أن أقول إن حالته الآن غريبة بعض الغرابة، إذا لم أقل أكثر من ذلك. إنه حاضر هناك، هو أيضًا، أيها السادة. ليس حاضرًا في حفلة الرقص، ولكنه يشبه أن يكون حاضرًا فيها. ليس لديه أية نيّة سيئة يا سادتي. إنه لا يريد أن يسيء إلى أحد. ولكنه مع ذلك في منعطف سيئ. هو الآن، - وإنه لغريب حتى أن نقول هذا - في دهليز سلّم الخدمة في منزل أولسوفي إيفانوفتش. لا شيء في ذلك يا سادتي، لا شيء في ذلك. إن السيد جوليادكين لم يفكّر في أي سوء. هو الآن قابع في ركنه الصغير. لقد لطا في ركن صغير غير دافئ جدًّا بطبيعة الحال، ولكنه ركن مظلم في مقابل ذلك، تخفيه بعض الإخفاء خزانة ضخمة وحواجز قديمة. إنه في وسط كومة من الخرق العتيقة والأواني القديمة، مختفٍ في هذه اللحظة، يراقب، ويتابع مجرى الحوادث مشاهدًا محايدًا. إنه حتى الآن، أيها السادة، لا يزيد على أن يلاحظ. في وسعه طبعًا أن يدخل هو أيضًا أيها السادة... ولماذا لا يكون في وسعه أن يدخل! ليس عليه حتى يدخل إلا أن يتقدّم خطوة واحدة. سيعرف كيف يدخل برشاقة. هو قابع هناك منذ ثلاث ساعات، في البرد، وراء الخزانة والحواجز، وسط كل هذه الأكداس. إنه ينتظر، ومن أجل أن يبرر نفسه أمام نفسه، تذكّر منذ لحظة جملة للوزير الفرنسي السابق فيليل: «من صبر ظفر». لقد قرأ هذه العبارة سابقًا في كتاب لا قيمة له وهي تعود الآن إلى ذاكرته في وقتها تمامًا. إنها تناسب وضعه الراهن جدًّا، ويجب أن نقول أيضًا إن أفكارًا كثيرة تراود خاطر إنسان يمكث في دهليزٍ بارد مظلم، في خلال ثلاث ساعات، منتظرًا أن تنتهي الحوادث الجارية إلى حلّ موفّق.

هكذا، بعد أن تذكّر جملة الوزير الفرنسي في الوقت المناسب، خطر بباله - لا يدري إلا الله لماذا - الوزير التركي القديم مارزيميريس، ثم خطرت في باله مارجراف لويز الجميلة، التي كان قد قرأ قصتها في أحد الكتب، ثم خطر بباله بعد ذلك أن اليسوعيين قد اتخذوا مبدأ لهم أن يعدّوا جميع الوسائل حسنة، متى كانت تؤدي إلى تحقيق الغاية المنشودة. إن تذكر هذه الحقيقة التاريخية قد بث في نفس السيد جوليادكين شيئًا من الثقة. حتى لقد استخرج منها على الفور أن هؤلاء اليسوعيين، جميع اليسوعيين من أولهم إلى آخرهم، أغبياء أقصى الغباوة، وإنه لقادر على أن يضعهم جميعًا في جيبه!... آه... ليت الغرفة التي يوجد فيها البوفيه خالية، ولو دقيقة واحدة (هي الغرفة التي تتصل رأسًا بالدهليز الذي يقبع فيه السيد جوليادكين في هذه اللحظة)... لو كانت خالية إذًا لاجتاز هذه الغرفة، رغم جميع اليسوعيين، ولانتقل بعد ذلك إلى الصالون الكبير، فإلى غرفة القمار، من أجل أن يدخل من هناك إلى القاعة التي يُرقص فيها رقص البولكا. نعم، لو كانت الغرفة خالية إذًا لمرَّ حتمًا، مهما كلّف الأمر... إن في وسعه أن يتسلّل خفية.. فلا يلاحظه أحد، وتنجح حيلته...

وسيعرف عندئذ ماذا بقي عليه أن يفعل... تلك كانت، في هذه اللحظة، الحالة النفسية لبطل قصتنا الصادقة، رغم أنه لا يزال يصعب علينا كثيرًا أن نصف عواطفه وصفًا دقيقًا.

طبعًا، لقد استطاع أن يصل إلى سلم الخدمة وإلى الدهليز على أساس التفكير التالي: «ما داموا قد وصلوا هم، فلماذا لا أصل أنا؟». أما أن يمضي إلى أبعد من ذلك، فهذا أمر آخر... إنه لم يجرؤ أن يفعل... لا عن جُبن طبعًا، بل بمحض إرادته: فهو يؤثر أن يتصرّف خفية... وهو الآن يترقّب فرصة التسلل خلسة. إنه يترقّب هذه الفرصة منذ ثلاث ساعات. ولماذا لا يصبر؟ إن فيليل نفسه قد صبر. «ولكن ما شأن فيليل هنا؟». كذلك قال السيد جوليادكين لنفسه فجأة: «ثم من هوفيليل؟... أما أنا فيجب عليَّ الآن أن أتمكّن من الدخول... فما العمل؟ ألا إنك أشبه بأولئك الممثلين الثانويين الذين لا يفعلون شيئًا ولا يقولون شيئًا على خشبة المسرح... بل إنك لشخص غبيّ أبله» هكذا قال جوليادكين لنفسه وهو يقرص خذه المتجلّد بأصابعه المتخدّرة من شدة البرد. «ما أنت إلّا جوليادكين مسكين، لا أكثر من ذلك... أنت اسم على مسمّى!..».

يجب أن نذكر أن هذه المداعبات الصغيرة التي داعب بها جوليادكين شخصه قد نطق بها من دون أي هدف معين، بل تزجية للوقت فحسب. ولكن ها هو ذا يتقدّم. لقد خلا البوفيه. لم يبقَ فيه أحد. لاحظ جوليادكين ذلك من كوة صغيرة... خطوتان، فإذا هو على الباب. وهمَّ أن يفتح الباب...

«أأمضي أم لا أمضي؟ نعم، أأمضي أم لا أمضي؟ بل سأمضي... لماذا لا أمضي؟ الشجاع يجد طريقه دائمًا». بثّ هذا التفكير بعض الثقة في نفس بطلنا. ولكن ها هو ذا يتراجع فجأة. «لا... لا يجب... هب أحدًا دخل في هذه اللحظة... هذا واحد يدخل فعلًا. لماذا تكاسلت ببلاهة حين كانت الطريق خالية؟ يجب أن أقتحم وأن أدخل مهما كلف الأمر... يجب أن أقتحم. الكلام سهل. جرِّب أن تقتحم وأنت على ما أنت عليه من طبع متردّد، ومزاج جبان. لقد خفت... كدجاجة. هو الهلع والجزع... ما في ذلك شك... أنا أعرفك... هو الجبن... أعرفه فيك... لا جدال في هذا... إذًا ليس عليك إلا أن تبقى حيث أنت، مثل رزمة لا أكثر... لو كنت في منزلي الآن لكنت بسبيل احتساء فنجان لذيذ من الشاي. وإذا تأخّرت عن العودة سيأخذ بتروشكا يفيق حتمًا... أليس الأفضل أن أعود إلى المنزل؟ وإلى جهنم كل ما عدا ذلك! هيا سأعود. انتهى الأمر...».

ما إن اتخذ جوليادكين هذا القرار حتى وثب وثبة مفاجئة إلى أمام، كأن نابضًا قد انفلت فيه على حين بغتة. فإذا هو، بخطوتين اثنتين، في القاعة المخصَّصة للبوفيه، وما لبث أن خلع معطفه بسرعة، ونزع قبعته، فدسّهما في ركن، ثم رتّب شعره وزينته بعض الترتيب، و... و... أخيرًا تقدّم... فاجتاز الصالون، وتسلّل من هناك إلى غرفة أخرى، فمرَّ بين المقامرين المحمومين دون أن يلاحظه أحد... وبعدئذ... ابتداءً من تلك اللحظة أصبح السيد جوليادكين لا يدرك شيئًا مما يجري حوله، وها هو ذا يظهر في قاعة الرقص منقضًا انقضاض الصاعقة.

وشاعت المصادفة التي تشبه التعمّد، أن يكون الرقص متوقفًا في تلك اللحظة بعينها. السيدات يتجوَّلنّ في القاعة جماعات متألّقة والرجال مجتمعون حلقات تتحدّث، وبعضهم يطوفون في القاعة محتجزين حسناواتهم للرقصة القادمة. ولكن السيد جوليادكين لم يرَ إلا كلارا أولسوفيفنا، وآندره فيليبونوفتش إلى جانبها. ولاحظ أيضًا فلاديمير سيميونوفتش، ثم لاحظ ضابطين أو ثلاثاً، وشابتّين أو ثلاثة، ثم عدّة شبان لهم مظهر مليء بوعود كثيرة... وعود يكون بعضها في بعض الأحيان قد تحقّق... وكأن النابض الذي دفع جوليادكين دفعًا إلى دخول حفلة الرقص التي لم يُدعَ إليها كان لا يزال يحرّكه هو نفسه. فها هو ذا يتقدم ثم يتقدم، فيصطدم في طريقه بمستشار ويدوس على قدمه، ثم يسير أثناء اندفاعه على أطراف من ثوب سيدة عجوز فيمزّقه، ويزحم خادمًا كان يطوف على المدعوين بطبق، ويصدم سيدًا آخر أيضًا، ولكن دون أن يلاحظ شيئًا من هذا كله، أو قلْ متظاهرًا بأنه لا يلاحظ شيئًا ولا يرى شيئًا، وإنما هو يتقدّم ثم يتقدّم إلى أن وجد نفسه وجهًا لوجه أمام كلارا أولسوفيفنا، وردت سابقًا تحت اسم: أولسوفيفنا.

لا شك أبدًا، نعم لا ريب إطلاقًا في أنه لو استطاع في هذه اللحظة بعينها أن يغيب تحت الأرض إلى الأبد، لفعل ذلك بغير أي تردّد، وبسرور عظيم. ولكن فات الأوان، وما وقع قد وقع.

أمر لا يُغتفر... ما الذي بقي عليه أن يفعله؟ قال السيد جوليادكين لنفسه: «الصمود عند الإخفاق، والاستمرار عند النجاح. ليس السيد جوليادكين إنسانًا ماكرًا يدير المكائد، إنه لا يملك فن تلميع خشب الأرض بنعليه... ذلك هو الأمر، وشرّ ما في المسألة أن هؤلاء اليسوعيين يتدخّلون... اليسوعيون... لا شأن له بهم الآن. وها هم جميع أولئك الناس الذين كانوا حتى تلك اللحظة يتجولون ويتحدّثون ويضحكون، ها هم يتوقّفون فجأة بما يشبه السحر، ويصمتون ويتحلّقون دائرة حول السيد جوليادكين.

أما بطلنا فكأنه لا يرى شيئًا ولا يسمع شيئًا... كان لا يستطيع أن ينظر إليهم... لا... ما كان له أن ينظر إليهم بحال من الأحوال. كان واقفًا هنالك مسمَّرا على قدميه، مطرقًا إلى الأرض.

قال في نفسه: «يمينًا لأطلقن على رأسي رصاصة في هذه الليلة... أما الآن فليكن ما يكون». وما كان أشد دهشته وأعمق انشداهه هو نفسه حين أخذ يتكلم فجأة. بدأ السيد جوليادكين كلماته بالتهنئات والتمنيات المألوفة.

انطلق يزجي التهنئات بلا مشقة، ولكنه حين وصل إلى التمنيات أخذ يدمدم، وشعر في ذات نفسه أنه أخذ يجمجم بكلام غير مفهوم، فقد فسد كل شيء حتمًا، وذلك ما وقع. لقد تخبّط لسانه... فتوقّف عن الكلام... غاص في الكلمات، احمرّ وجهه وفقد توازنه... رفع عينيه.. طاف بهما على الحضور طويلاً.. تفرّس في الناس.. وانهار.

المدعوون من حوله جامدون. بُكمٌ ينتظرون النهاية. وأخذت دمدمات تُسمع خارج الحلقة. وانطلقت ضحكات. نظر السيد جوليادكين إلى آندره فيليبوفتش نظرة مَذَلّة وخضوع؛ فردّ عليه آندره فيليبوفتش بنظرة كانت خليقة أن تلقيه على الأرض جثة

هامدة بلا شك، لو لا أنه كان قد أصبح أقرب إلى الموت منه إلى الحياة قبل ذلك، وطال الصمت.

تمتم جوليادكين يقول بصوت لا يكاد يُسمع، وهو يشبه أن يكون ميتًا من شدة الذهر:

- مردّ هذا كله إلى ظروفي الخاصّة، إلى حياتي الخاصّة يا آندره فيليبوفتش. ليس هذا خطوة رسمية يا آندره فيليبوفتش.

أجابه آندره فيليبوفتش بصوت أجشّ:

- ينبغي لك أن تستحي أيها السيد، ينبغي لك أن تستحي.

كان آندره فيليبوفتش في ذروة الاستياء، وتناول يد كلارا أولسوفييفنا وأدار ظهره للسيد جوليادكين.

- ليس لي أن أستحي يا آندره فيليبوفتش ممَّ أستحي؟

كذلك تمتم السيد جوليادكين، بينما كانت عيناه تطوفان على الحفل باحثين بين أفراد هذا الجمهور المتجمّد عن وجه معروف، عن إنسان من بيئته، من منزلته الاجتماعية.

وأردف يقول بصوت لا يزال خافتًا:

- ليس هذا بشيء، أؤكد لكم ما هذا بشيء. ذلك أمر يمكن أن يقع لجميع الناس.

وحاول جوليادكين أن يخرج من الحلقة متردِّدا متعثرًا فأفسح له ممر. واستطاع بطلنا أن يتسلّل بين صفَّيْن من المشاهدين المبهوتين المستطلعين المتعجّبين. لقد كان قدره يقوده. أدرك السيد جوليادكين ذلك إدراكًا كاملًا. لا شك أنه كان مستعدًا لأن يدفع أغلى ثمن في سبيل أن يجد نفسه مرة أخرى في ركنه الصغير ذاك، من دهليز سلم الخدم، من دون أن يكون عليه من أجل ذلك أن يخالف قواعد الحشمة والأدب. ولكن ذلك كان مستحيلًا بعد الذي وقع. لذلك وجّه جميع جهوده نحو العثور على ركن صغير هادئ. ركن صغير يستطيع أن يندسَّ فيه. أن يلبد فيه. لو استطاع أن يقع على مثل هذا الركن لمكث هناك منزويًا ساكنًا مسالمًا لا يزعج أحدًا. ولا يلفت إليه نظر أحد. ولاستطاع بسلوك لا مأخذ عليه أن يحظى بحُسن معاملة المدعوّين وربّ المنزل.

ولكن جوليادكين شعر في تلك اللحظة بنوع من دوار. شعر بأن قواه تخور، وأنه يوشك أن يسقط. وكان قريبًا جدًا من الركن الصغير المنشود. فالتجأ إليه واعتصم به، واستقرّ هناك. ثم لم يلبث أن اتخذ وضع مشاهد يلاحظ ملاحظة محايدة. وفي الوقت نفسه اختطفت يداه ظهرَيْ كرسيين واستولتا عليهما استيلاءً حازمًا. وأخذت عيناه، وقد استردتا نشاطهما، تقتحمان أعين أصدقاء كلارا أولسوفيفنا المتجمّعين حوله. كان على مقربة منه ضابط فارع القامة، قويّ الجسم، جميل المظهر. فشعر جوليادكين إزاءه أنه أشبه بذبابة صغيرة.

- سيدي الملازم، إن هذين الكرسيين محجوزان، فهذا لكلارا أولسوفيفنا وهذا للأميرة تشفتشيكانوف اللتين ترقصان الآن وأنا أحفظهما لهما.

كذلك تمتم هذه السيد جوليادكين بلهجة ضارعة، فلم يجبه الملازم، بل رشقه بنظرة صاعقة، وأشاح وجهه عنه. وإذ شعر بطلنا أنه صُدّ من هذه الجهة وخُذل، جرَّب حظه في جهة أخرى. فاستفرد سيدًا خطير الشأن يزدان صدره بوسام من درجة عالية، وهو مستشار دولة. فكانت النظرة التي ردّ عليه بها هذا السيد تبلغ من تثبيط العزيمة أن أثرها كان أشبه بأثر سطلٍ من ماء بارد صُبَّ على رأسه فصمت السيد جوليادكين.

قال لنفسه: «فلنلتزم الصمت لا كلمة بعد الآن، يجب أن يدركوا تمام الإدراك أنني واحد كسائر الناس، وأنني مدعوّ كسائر المدعوين، وأن مركزي لا يقل علوًا عن مراكزهم».

فلما اتخذ هذا القرار ثبت نظره على ردنجوته، ولكن بصره لم يلبث أن انتقل إلى سيد ذي مظهر محترم كل الاحترام.

قال لنفسه: «هذا السيد يضع على رأسه شعرًا مستعارًا فإذا نزعتَ عنه الشعر المستعار لم تجد تحته إلا جمجمة عارية، نعم، جمجمة لا تقل ملاسة عن راحة كفّي». وما كاد السيد جوليادكين يقوم بهذا الاكتشاف الخطير، حتى اتجه فكره إلى الأمراء العرب، قال لنفسه: «يكفي أن تنزع العصبة التي يضعونها على رؤوسهم تيمُّنا بالنبي العظيم حتى لا تظهر تحتها إلا جمجمة ملساء، جمجمة عارية تمامًا». ث

م انتقل فكره، بتداعي المعاني من غير شك، عن طريق التفكير في شؤون المسلمين، إلى البوابيج التركية، فلاحظ أن آندره فيليبوفتش كان ينتعل حذاءين هما إلى البوابيج التركية أقرب منهما إلى الأحذية.

ومهما يكن من أمره فقد بدا على جوليادكين أنه أخذ يألف وضعه قليلًا قليلًا. وبرق في ذهنه خاطر. قال لنفسه: ليت هذه الثريا تنفصل عن سلسلتها في هذه اللحظة، ليتها تسقط، إذًا لهرعت أنقذ كلارا أولسوفييفنا على الفور. سوف أنقذها عندئذ ثم لا أزيد على أن أقول لها: «لا تجزعي! ما هذا بشيء أنا منقذك». ثم أخذ السيد جوليادكين يبحث عن كلارا أولسوفيفنا بين الحضور، ولكنه بدلًا من أن يراها، رأى جيراسيموفتش، رئيس الخدم العجوز في منزل أولسو فيإيفانوفتش. كان الخادم العجوز مقبلًا عليه، وقد لاح في وجهه انشغال البال. ارتعش السيد جوليادكين وشعر بإحساس غريب، غامض، لكنه مزعج إزعاجًا واضحًا على كل حال. جعَّد السيد جوليادكين وجهه ونظر حوله. تمنى لو يختفي، تمنى لو يخرج من القاعة، خفية، خلسة، محاذيًا الجدران، لا يراه أحد ولا يسمعه أحد. تمنّى لو يتبخّر... ولكن كان الأوان قد فات.. فقبل أن يتخذ قرارًا، كان جيراسيموفتش قد أصبح أمامه.

قال بطلنا وهو يبتسم:

- اسمع يا جيراسيموفتش.. يجب عليك أن... انظر... هل ترى تلك الشمعة هناك على الشمعدان الكبير؟ إنها توشك أن تسقط... يجب عليك أن تأمر بعدلها يا جيراسيموفتش، وإلا سقطت... سقطت حتمًا.

- أيّ شمعة؟ ولكنها معدولة؟... أما أنت فإن شخصًا طلبك هناك.

- من يطلبني يا جيراسيموفتش؟

- لا أعرف من هو تمامًا. إنه خادم مرسل من... سألني: «هل ياكوف بتروفتش جوليادكين هنا؟ قل له أن يأتي من فضلك. هناك أمر مستعجل ومهم جدًا...» ذلك ما قاله لي.

- لا يا جيراسيموفتش، أنت مخطئ، أنت مخطئ قطعًا.

- أشك في ذلك.

- لا يا جيراسيموفتش ليس هناك أي شك، ليس هناك أي شك إطلاقاً لم يطلبني أحد لا يمكن أن يطلبني أحد على كل حال... وأنا في بيتي، أقصد في مكاني.

استرد جوليادكين أنفاسه ونظر حوله. إنه يشتبه في الأمر. جميع الأعين مصوَّبة إليه، جميع الآذان متجهة نحوه. إن كافة هؤلاء الناس المجتمعين القاعة يظهرون معلّقين به منتظرين ما سيقع. كأنّ الحضور جميعًا كانوا يشاركون في الحادث. السيدات يوشوشن قلقات، وقد ابتعدنّ قليلًا. ربّ المنزل متلبث على مسافة من جوليادكين. إنه لا يبدو مشاركًا مشاركة فعّالة في مِحَن بطلنا. كل شيء يجري بكثير من اللباقة والرهافة على كل حالٍ. مع ذلك شعر بطلنا شعورًا واضحًا بأن اللحظة الحاسمة قد حانت. وأن عليه أن يضرب ضربة كبرى. آن له أن يبيد أعداءه. كان السيد جوليادكين مضطربًا اضطرابًا عميقًا. وأخيرًا واتاه الوحي. فها هو ذا يخاطب جيراسيموفتش قائلًا بصوت مرتجف لكنه حاسم:

- لا يا صديقي، لا، ما من أحد يطلبني، أنت مخطئ. أكثر من ذلك أنت منذ هذا الصباح قد أخطأت حين أكدت لي... نعم، حين تجرّأت فأكدت لي (هنا رفع جوليادكين صوته) أن أولسوفي إيفانوفتش، المُحسن إليّ، الإنسان الذي كان لي منذ زمن طويل بمثابة أب، قد أوصد دوني بابه في هذا اليوم الرائع، في هذا اليوم من أيام سعادة قلبه، قلب الأب..

تصفح جولياكين الحضور. كان يبدو راضيًا عن نفسه، ويبدو في الوقت ذاته منفعلًا انفعالًا عميقًا، وظهرت دموع في أطراف أهدابه.

استأنف يقول:

- أعود فأقول يا صديقي إنك قد ارتكبت خطَأً لا يغتفر.

كانت لحظة مؤثّرة. أحس جوليادكين أنه أحدث أثرًا محقَّقا، وقف وقفة متواضعة، متجمَّعا على نفسه، غاضًّا بصره، ينتظر أن تتدفق عليه عواطف أولسوفي إيفانوفتش، أن يعانقه إيفانوفتش، وبدا على الحضور الإضطراب والانشداه، حتى

جيراسيموفتش الرهيب، الذي لا يرحم، لاح عليه أن نفسه قد اهتزت فهو لا يستطيع أن ينطق بكلمة... ها هي ذي الأوركسترا، الأوركسترا اللعينة، تأخذ على حين فجأة تعزف رقصة بولكا.

انقطع السحر. انتهى كل شيء. انتفض السيد جوليادكين، تقهقر جيراسيموف قليلًا إلى الوراء. اندفع جمهور المدعوين إلى الرقص كبحر مائج. إن فلاديمير سيمونوفتش هو الذي افتتح الرقص مع كلارا أولسوفيفنا وتبعهما الملازم الجميل يراقص الأميرة تشفتشيكانوف.

الذين لم يرقصوا أسرعوا يعبّرون عن إعجابهم بأزواج الراقصين الذين اندفعوا يتحرّكون على أنغام البولكا. ما أجمل رقصة البولكا! إنها رقصة حديثة جدًا، مثيرة جدًا. لا شيء مثلها يدير الرؤوس. حتى لقد أنست الناس السيد جوليادكين إلى حين. غير أن انقلابًا كبيرًا لم يلبث أن وقع فجأة فاضطرب الناس وتزاحموا... وتوقفت الموسيقى وسط البلبلة الشاملة. لقد وقع حادث غريب ليس في الحسبان. إن كلارا أولسوفيفنا قد تهاوت على أحد المقاعد، متقطّعة الأنفاس محمرّة الخدين، لاهثة الصدر، خائرة القوى... لا شك أن الرقص هو الذي أتعبها. خفقت جميع القلوب لها. وهُرع الناس يحتشدون حولها. كل واحد منهم يُريد أن يظهر اهتمامه بها وقلقه عليها، وامتنانه من المتعة الكبرى التي هيّأتها لهم جميعًا. وفجأة ظهر جوليادكين أمامها، إنه شاحب الوجه، مضطرب اضطرابًا عميقًا يبدو خائر القوى تمامًا هو أيضًا... كان يجرّ نفسه جرًّا... وها هو ذا يمد يده نحوها ناظرًا إليها نظرة ضارعة. كانت كلارا أولسوفيفنا مصعوقة فلم يتسع وقتها لسحب يدها. ونهضت تستجيب لدعوته كأنها آلة لا تعي ماذا تفعل. اهتز السيد جوليادكين، وخطا خطوة إلى أمام ثم خطوة أخرى ورفع ساقه، وهمَّ بخطوة ثالثة فضرب الأرض بقدمه مترنّحا فاقدًا توازنه... لقد أراد أن يرقص هو أيضًا مع كلارا أولسوفيينا... أطلقت الفتاة صرخة. فهرع أصدقاؤها يخلّصون يديها من قبضة يد السيد جوليادكين، فما هي إلا لحظة حتى كان بطلنا مدفوعًا ملقى على مسافة عشر خطوات من الجميلة. وسرعان ما تكوّنت حلقة جديدة حوله وسُمعت صرخات حادة. إنهما سيدتان عجوزان أوشك السيد جوليادكين أن يقلبهما أثناء تقهقره المفاجئ. وعمّت فوضى شديدة. الناس يسائل بعضهم بعضًا ويتناقشون، ويزمجرون. الأوركسترا صمتت تمامًا، السيد جوليادكين يتحرّك وسط الحلقة التي احتشدت حوله ويدمدم كالآلة وهو يبتسم إبتسامة ضعيفة قائلًا: «نعم... ولم لا؟ البولكا في رأيي رقصة حديثة. هي رقصة شائقة وُجدت لمتعة هاته السيدات... ولكنني أرضى أن أجرّبها أنا أيضًا، بسبب الظروف».

ولكنهم لم يحفلوا برضاه. فما هي إلا لحظة حتى أحسّ بطلنا بيد تمسك ذراعه، وأخرى تتناوله من ظهره، في كثير من الرفق مع ذلك. وأحسَّ بأنه يُدفع في اتجاه معين. وسرعان ما لاحظ أنهم يقودونه قدمًا نحو الباب. أراد السيد جوليادكين أن يقوم بإشارة، أن يقول كلمة. ولكن لا... لقد أصبح لا يريد شيئًا البتة. أصبح يكتفي بأن يضحك ضحكًا ضعيفًا، كأنه آلة لا إرادة لها. وشعر أخيرًا بأنهم يُلبسونه معطفه، ويُغطّسون رأسه في قبعته حتى العينين. وأدرك أنه صار على فسحة السلم، في

البرد والظلام... وأنه أخذ يهبط السلم. زلت قدمه، وخَيّل إليه أنه يسقط في هاوية. أراد أن يصرخ. ولكنه كان قد أصبح في فناء الدار. شعر بنسمة طرية تهب على وجهه. توقف هنيهة. وفي تلك اللحظة نفسها ترامت إلى أسماعه أصوات رقصة جديدة. لقد عادت الأوركسترا تعزف. فتذكّر السيد جوليادكين كل شيء فجأة. بدا أنه يسترد قواه. انتزع نفسه من المكان الذي كان ثاويًا فيه حتى ذلك الحين، كالمسمَّر تسميرًا. وثب. طار. ظل يركض لا يلوي على شيء. إلى أين كان ذاهبًا؟ إلى أي مكان... إلى أي مكان يوجد فيه هواء... توجد فيه حرية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الخامس

كانت الساعة تدق منتصف الليل في جميع أبراج سان بطرسبرج، حين وصل السيد جوليادكين إلى رصيف نهر فونتاكا قرب جسر اسماعيلوفسكي. كان خارجًا عن طوره، إنه يهرب من أعدائه وما يوقعونه فيه من ضروب الاضطهاد. يهرب من وابل الضربات التي يمطرونه بها، يهرب من صرخات النساء العجائز المذعورات، ومن نظرات آندره فيليبوفتش القاتلة، كان السيد جوليادكين ميتًا، متلاشيًا، بأوسع معاني الكلمة. وإذا كان لا يزال الآن قادرًا على أن يركض، فما ذلك إلا بمعجزة، معجزة لا يكاد يصدّقها هو نفسه. وكانت الليلة رهيبة، رطبة، يملأها الضباب والمطر والثلج، وتتموّج فيها أنواع الزكام والرشح والحُمّى، ليلة مثقلة بجميع هبّات شهر نوفمبر في سان بطرسبرج. الريح تزأر في الشوارع المقفرة، وتجعل مياه نهر فونتاكا السوداء تثب إلى مستوى أعلى من مستوى سلاسل الضفة، وتأتي تُناكدُ المصابيح الضئيلة المنثورة على الرصيف، فتستجيب المصابيح لزئيرها المشؤوم بصرير نحيل حاد. أصوات شاكية موجعة الأنين، وألحان لا نهاية لها يعرفها جميع سكان العاصمة حق المعرفة. المطر والثلج يهطلان في آن واحد معًا. والماء تحمله هبات الريح، فيتساقط خطوطًا كثيفة تكاد تكون أفقية ولا تقل غزارة عن الماء المنهمر من مضخَّة. وكانت القطرات تضرب وجه المسكين جوليادكين ضربًا شديدًا، وتمزّقه تمزيقًا، حتى لكأن ألوانًا من الإبر والدبابيس تنفذ في جلده.

وفي وسط ظلام الليل، الذي تخترقه قرقعات العربات البعيدة ويخترقه زئير الريح وصرير المصابيح، كانت تُسمع ضجّة متصلة مشؤومة هي ضجة الماء المتساقط على الأرض من الأسطح والأفاريز والمزاريب. وما من إنسان يُرى في الطريق، وهل يمكن أن يُرى في الطريق إنسان في مثل هذه الساعة المتأخّرة، وفي مثل هذا الجو الرهيب! كان السيد جوليادكين وحده يندفع على رصيف الفونتاكا بخطى صغيرة سريعة. كان يستعجل الوصول بأقصى سرعة إلى بيته الواقع في الطابق الرابع من عمارة بشارع «الدكاكين الستة». وكان الثلج والمطر والريح وجميع عناصر الطبيعية الثائرة في سماء تشرين الثاني (نوفمبر) في سان بطرسبرج على ميعاد في هذه الليلة الفظيعة، تهاجم جوليادكين البائس من كل صوب بلا هوادة بعد أن هدته مصائبه الخاصة هدًّا كافيًا، فهي تنفذ إلى عظامه، وتعمي بصره، وترجّحه وترنّحه وتجعله يتعثر ويخرج عن طريقه، وتسلبه في الوقت نفسه آخر ما بقي له من عقل. كأن تحالفًا قد قام بين قوى الطبيعة وبين أعدائه بغية إفساد نهاره ومسائه وليله إفسادًا كاملًا.

ولكن من الغريب أن السيد جوليادكين كان يبدو غير مكترث أي اكتراث بشيء مما كان يصيبه به القدر من أهوال شديدة في ذلك الأوان. فما جرى له قبل لحظات في منزل مستشار الدولة بيرنديف كان قد قلب نفسه رأسًا على عقب وهدّ روحه هدًّا، فلو رآه في اللحظة مشاهدٌ محايدٌ، ورأى كيف كان المسكين يهرول على الرصيف، لأدرك على الفور مدى النوازل التي أنصبّت عليه منذ حين، ولأدرك أن السيد

جوليادكين لم يكن ينشد في تلك اللحظة إلا شيئًا واحدًا هو أن يهرب، وأن يختبئ. أن يهرب من نفسه، وأن يختبئ عن نفسه. نعم، ذلك ما كان ينشده السيد جوليادكين في تلك اللحظة. بل تستطيع أن تقول أكثر من ذلك. إن السيد جوليادكين لم يكن يحاول بكل ما أوتي من قوة أن يهرب من نفسه فحسب، بل كان كذلك مستعدًّا لأن يبذل كل شيء في سبيل أن يتلاشى تلاشيًا تامًا، وفي سبيل أن يصير إلى رماد فورًا. هو الآن لا يلوي على شيء، ولا يلتفت إلى شيء، ولا يدرك شيئًا. إنه يبدو غير حافل إطلاقًا بجميع الحواجز التي تنصبّ أمامه في تلك الليلة المشؤومة، غير حافل لا بطول الطريق، ولا بقسوة الجو والمطر والثلج والريح.

وعلى رصيف نهر الفونتاكا سقط الجرموق الذي كان يغطّي حذاءه الأيمن، وبقي غاطسًا في الوحل والثلج، فلم يلاحظ السيد جوليادكين ذلك، ولا خطر بباله لحظة أن يعود أدراجه باحثًا عنه. كان السيد جوليادكين من شدّة انشغال البال وشرود الذهن أنه رغم الإعصار توقّف عدة مرات، وظلّ على حافة الرصيف مسمَّرا كالوتد، متجمَّدا بلا حراك، يتذكّر جميع تفاصيل ذلك السقوط القاسي الذي عاناه. كان يحسّ بأنه يموت. وما هي إلا ثانية واحدة حتى كان يستأنف ركضه المسعور، هاربًا من عدوٍّ خفيٍّ لا يّرى، محاولًا أن يفلت من مصائب جديدة أشدّ هولًا. كانت حالته رهيبة حقًّا...

ووقف السيد جوليادكين أخيرًا خائر القوى. اتكأ على سور رصيف النهر، في وضع إنسان أخذ أنفه يرعف فجأة، وراح السيد جوليادكين يتأمّل مياه الفونتاكا السوداء العكرة. لا نستطيع أن نقول كم من الزمن لبث على هذا الحال. ولكن الأمر المحقَّق هو أنه قد بلغ غاية الحزن واليأس والإرهاق، حتى كاد يختنق. لقد نسيّ كل شيء، جسر اسماعيلوفسكي، وشارع «الدكاكين الستة»، ومصائبه الأخيرة... وأصبح لا يبالي شيئًا ولا يحفل بشيء. لقد انتهت القضية، وصدر الحكم، وأبرم... ولا حيلة له في دفع ما حدث.

وفجأة... فجأة... ارتعش جسمه كله من قمة الرأس إلى أخمص القدمين. وها هو ذا يتقهقر خطوتين إلى الوراء، بوثبة غريزية، ويروح يلقي نظرات على كل ما حوله وهو فريسة قلق لا يُغالب. ولكن ليس هناك شيء خاصّ، ليس هنالك أحد... ومع ذلك، مع ذلك، كان السيد جوليادكين قد اعتقد في هذه اللحظة أنه لمح شخصًا كان موجودًا هناك، قريبًا جدًا منه، متكئًا على سور الرصيف. والغريب أن هذا الشحص قد خاطبه، وكلّمه بصوت سريع متقطّع. إن السيد جوليادكين لم يدرك تمامًا معنى أقواله، ولكن لا شك أن أقواله كانت تدور على شيء يتّصل به اتصالًا وثيقًا.

«ما هذا؟ هل حلمت؟»، كذلك تساءل السيد جوليادكين وهو يجيل بصره من جديد على ما حوله... «ولكن أين أنا في الواقع؟ آه..آه..». بهذا ختم هتافه وهو يهز رأسه. ومع ذلك أخذ يتفحّص الفضاء الممطر البارد الذي يحيط به وقد تملّكه قلق شديد، بل رعب قويّ. حاول أن يُنفذ بصره في الظلمات التي يملأها البخار من حوله. ولكنه لم يَر شيئًا. بدا له كل شيء على حاله لم يتغير. وتكاثر هطول الثلج غزارة وكثافة، فلا يستطيع المرء أن يميّز شيئًا أبعد من عشرين خطوة. وكان صريف المصابيح قد اشتد أيضًا، وكانت الأغنية الحزينة الشاكية التي تغنّيها الريح قد ازدادت كذلك حزنًا

وشكوى... فكأنها ضراعات شحّاذ عاد يكرر استعطاءه، مصرًّا على أن يحصل على ما يسد به رمقه... «آه... ماذا جرى لي؟». كذلك تساءل السيد جوليادكين وهو يستأنف سيره في طريقه بعد أن أنعم النظر في ما حوله مرّة أخيرة.

وفي أثناء ذلك ظهر شعور جديد في نفس السيد جوليادكين. لم يكن قلَقًا ولا رعبًا... إن قشعريرة متشنّجة تسري الآن في جسمه كله... لحظة أليمة... إحساس لا يُطاق.

«لا ضير.. ليس هذا بشيء... قد لا تكون لهذا أية نتائج، وقد لا يسيء إلى شرف أحد. لعلّ الأمور كلها تجري على أحسن وجه... لعلّ جميع المسائل ستُحَل مع الزمن، فلا يقول أحد بعد ذلك شيئًا، ويبرَّر بعد ذلك كل شيء». كذلك كان السيد جوليادكين يقول لنفسه من دون أن يفهم هو نفسه أقواله. شعر السيد جوليادكين ببعض العزاء حين راودت نفسه هذه الخواطر فانتصب قليلًا، ونفض ثيابه، وأسقط الثلج الذي كانت طبقة كثيفة منه تغطي قبعته وياقته ومعطفه وربطة عنقه وحذاءيه. ولكنه لم يستطع أن يتخلّص من هذا ذلك الشعور الغريب الحادّ، ومن هذا ذلك الغم الهائل.... ودوّت طلقة مدفع في مكان ما، بعيد جدًا.

قال بطلنا:

«يا له من جوٍّ غريب! إن طوفانًا يوشك أن يحدث. يظهر أن الماء قد ارتفع ارتفاعًا كبيرًا». فما إن عبَّر عن هذه الفكرة، بل قل ما إن تصورها حتى رأى أمامه شخصًا مقبلًا عليه. لعله عابر اخّرته ظروف طارئة، كالسيد جوليادكين تمامًا. فلا شيء في هذا خارق للعادة. ولكن السيد جوليادكين اضطرب اضطرابًا وذعر ذعرًا قويًا، لسبب نجهله... لا لأنه خشيَّ أن يكون هذا العابر رجلاً سيئ الأخلاق... قال السيد جوليادكين لنفسه: «قد يكون وجود هذا الرجل المجهول هنا مصادفة من المصادفات لا أكثر... ولكن قد يكون لإقباله عليَّ سبب، فهو يريد أن يقطع طريقي وأن يتحرَّش بي...». والحق أن السيد جوليادكين لم يعبر عن هذه الفكرة تعبيرًا واضحًا جدًّا، فلعلها لم تكن أكثر من حدس خاطف يصاحبه إحساس أليم. ثم إن أوان التفكير والشعور بإحساسات كان قد فات. فالرجل قد أصبح على مسافة خطوتين من السيد جوليادكين. وسرعان ما عمد السيد جوليادكين، على عادته التي يحرص عليها، إلى اصطناع وضع خاص جدًّا، وضع يعبر تعبيرًا بليغًا عن أنه، هو جوليادكين موجود هنا عَرَضًا، ماضٍ في طريقه، إنسانًا طيبًا مسالمًا، لا يفكّر في أي شر ولا يخطر بباله أي سوء. والطريق عريض يتسع لجميع الناس، أما هو، جوليادكين، فليس في نيته أن يستفز أحدًا أو أن يتحدى أحدًا. وفجأة توقف جوليادكين متجمدًا كأن صاعقة نزلت عليه. وإلتفتَ بغتة ليتفحص عابر السبيل الذي تجاوزه منذ هنيهة. لكأن حركته قد أحدثها نابض أدار رأسه إلى الوراء كما تدير الريح كفَّ المعدن التي تدل على اتجاهه. وكان الرجل المجهول قد غار بسرعة في إعصار الثلج. كان يبدو الآخر مستعجلًا أيضًا. وكان غارقًا في معطفه حتى الرأس كذلك، مثل جوليادكين تمامًا، وكان يندفع هو أيضًا على طول رصيف الفونتاكا بخطى صغيرة سريعة، متقطّعة بعض التقطع.

«ما هذا؟ ما معنى ذلك؟» هكذا تمتم السيد جوليادكين وهو يبتسم ابتسامة شك وحذر، بينما كانت تسري في جسمه كله قشعريرة تهزّه، وبينما أصبح ظهره كالجليد صقيعًا. كان الرجل المجهول قد غاب، حتى إن وقع أقدامه أصبح لا يُسمع. ومع ذلك ظل السيد جوليادكين واقفًا في مكانه لا يتحرّك محدِّقًا ببصره في الإتجاه الذي سار فيه عابر السبيل. وأخيرًا ثاب السيد جوليادكين إلى رشده قليلًا قليلًا، فقال لنفسه متحسرًا: «ماذا دهاني؟ أتراني أصبحت مجنونًا؟». ثم إلتفتَ واستأنف سيره متعجًّلا و مضاعِفًا خطاه، محاولًا أن يخلي دماغه مما يغلي فيه، حتى إنه أغمض عينيه في سبيل أن يحقّق هذا الهدف. وفجأة، وسط زئير الريح وهمهمة العاصفة سمعت أذناه مرة أخرى وقع أقدام تقترب منه فارتعش، وفتح عينيه، فإذا هو يرى أمامه من جديد على مسافة عشرين خطوة، شكلًا إنسانيًا. كان الشكل يتقدّم نحوه سريعًا. وكان الرجل يبدو مستعجلًا وكانت خطواته قوية متقطّعة. إن المسافة التي تفصل بينهما تتناقص تناقصًا سريعًا، أصبح السيد جوليادكين يستطيع أن يميّز قسمات وجه هذا العابر المتأخر تمييزًا واضحًا. وها هو يتفرَّس فيه... فيطلق صرخة قوية من فرط الانشداه والرعب اصطكت ركبتاه، فالعابر هو ذلك الرجل نفسه الذي إلتقى به جوليادكين قبل عشر دقائق، وها هو يظهر الآن له فجأة من جديد، على أن ظهور هذا الرجل مرةً أخرى على هذا النحو، الذي يثير الحيرة والاضطراب، لم يكن مع ذلك هو السبب الوحيد في انشداه السيد جوليادكين. وقد بلغ السيد جوليادكين من شدة الاضطراب أنه جَمُد في مكانه وتنحنح بصوت أجش، وأراد أن يقول شيئًا، ثم أسرع فجأة يلاحق الرجل المجهول معولًا، ربما ليحاول أن يوقفه بأقصى سرعة ممكنة، وتوقف الرجل المجهول فعلًا، ولبث على مسافة عشر خطوات من بطلنا. كان ضوء المصباح القريب ينيره كله. إلتفتَ نحو السيد جوليادكين وتهيأ للاستماع إلى كلامه مهموم الوجه نافذ الصبر.

قال بطلنا مرتجفًا:

- معذرة. لعلني أخطأت...

كان واضحًا أن الرجل المجهول قد ضاق ذرعًا بإيقافه، فلم يلبث أن أدار ظهره وابتعد مسرعًا، كأنه يريد أن يتدارك الثواني التي أضاعها في صحبة السيد جوليادكين. أما بطلنا فكانت أنسجته كلها ترتجف، وكانت ركبتاه تترنحان، ثم خارت قواه فتهاوى على نصب عند حافّة الرصيف وهو يئنّ. يجب أن نذكر أن لانفعاله هذا سببًا. ذلك أنه قد أحسّ بأنه يعرف الرجل المجهول. بل يجب أن نقول أكثر من ذلك، نعم لقد كان يعرفه. هو على يقين من أنه يعرفه. لقد سبق أن رآه مرارًا، لكن في أية مناسبة؟ أمس؟ ولكن ليس الأمر المهم أنه رآه مراراً قبل الآن. إن هذا الرجل ليس فيه ما يمكن أن يلفت الإنتباه من أول وهلة. إنه رجل كسائر الرجال، رجلٌ ذو مظهر لائق كمظهر سائر الرجال. ولعله يمتاز بمزايا كبيرة. رجل طيب على وجه الإجمال لا يريد بأحد أذًى.

إن السيد جوليادكين لا يحمل له أية عداوة ولا يكنّ له أي بغض، بل لا يضمر له أي شعور من مشاعر الكره. بالعكس. ومع ذلك - وهذا ما يبدو لنا على جانب عظيم من خطورة الشأن - فإن السيد جوليادكين لا يريد بأي حال من الأحوال أن يلقى هذا

الرجل، ولا سيما في الظروف الراهنة. نعم، إن السيد جوليادكين يعرف هذا الرجل معرفة تامة. بل إنه يعرف اسمه واسم أسرته ومع ذلك فإنه لو أعطيَ ذهب العالم بأسره لما أراد أن يناديه بهذا الاسم، ولا أن يعترف بأن هذا الرجل يسمّى بهذا الاسم فعلًا. أما كم قضى السيد جوليادكين من الوقت على هذه الحالة من الانشداه والانصعاق قاعدًا على النصب، فذلك ما لا أستطيع أن أحدّده على وجه الدقة. كل ما أعرفه أنه بعد أن ثاب أخيرًا إلى صوابه نهض عن النصب وأخذ يركض كمجنون، بكل ما أوتيَ من قوة، حتى تقطعت من الركض أنفاسه. وفي أثناء ذلك بارحه أحد حذاءيه تاركًا الحذاء الثاني يتيمًا. لكن ركضه أخذ يتباطأ شيئًا فشيئًا ليستطيع أن يتنفس. ونظر في ما حوله فلاحظ أنه قطع رصيف الفونتاكا كله من دون أن يشعر بذلك، وأنه عبر جسر أينتشكوف، وخلّف وراءه جزءًا كبيرًا من شارع نفسكي. إنه الآن في ناصية شارع ليتانيايا. فسار في هذا الشارع.

كان عندئذ في وضع إنسان واقف على حافة هاوية: الأرض تحت قدميه تتفتّت، تهتز، تتحرّك، وتتدحرج نحو قاع هوَّة تجر المسكين الذي أصبح لا يملك من القوة، ولا من الشجاعة، ما يمكّنه من أن يثب وثبة إلى الوراء، ومن أن يحوِّل بصره عن اللجة الفاغرة. إن الهوّة تجذبه، إنه يثب فيها، معجلًا بنفسه لحظة ضياعه. كان السيد جوليادكين يحسّ، ويعرف، ويوقن أنه مقبل على مصيبة جديدة كأن يلتقي بالرجل المجهول مرة أخرى مثلًا. ومن الغريب مع ذلك أنه كان يتمنّى هذا اللقاء، ويعدّه أمرًا سيحصل ولا مناص منه. ما كان يشتهي إلّا شيئًا واحدًا: أن يفرغ من هذا كله في أقرب فرصة، وأن يوضح هذا الوضع أخيرًا بأيّ وسيلة، ولكن بأقصى سرعة ممكنة. وهو لا يزال يركض، ويركض، كأنما تحركه قوة غريبة غير منظورة. كان جسمه قد ضعُفَ وتخدَّر. أصبح لا يستطيع أن يفكر في شيء، ومع ذلك فإن أفكاره تتعلّق بكل شيء كأنها العوسج، وكان كلب صغير تائه مبلل حتى العظام مرتعش من شدة البرد، يقتفي خطى بطلنا. وكان يركض، جاعلًا ذنبه بين قائميته، لاصقًا أذنيه برأسه، ملقيًا على السيد جوليادكين، من حين إلى حين نظرات تفيض خوفًا وعطفًا. وها هي ذي فكرة بعيدة، كان بطلنا قد نسيها منذ زمن طويل، فكرة دارسة من بقايا حادث قديم ولا شك، تعود الآن إلى ذهنه. لم يستطع السيد جوليادكين أن يتخلّص من هذه الفكرة إنها تمسك بخناقه، تطرق دماغه طرقًا، وتعذبه تعذيبًا شديدًا. آه... يا للكلب الحقير القذر؟ كذلك كان يردد السيد جوليادكين دون أن يفهم معنى كلماته. وأخيرًا لمح الرجل المجهول عند ناصية شارع إيطاليا. ولكن الرجل المجهول لم يكن مقبلًا عليه في هذه المرة. كان يركض هو أيضًا في الإتجاه الذي يركض فيه بطلنا، متقدِّمًا عليه بضعة أمتار. وهكذا وصل الرجلان إلى شارع: «الدكاكين السنة». كانت أنفاس السيد جوليادكين مقطوعة. توقّف الرجل المجهول أمام المنزل الذي يسكنه السيد جوليادكين. وسمع صوت رنين الجرس، ثم سمع صرير المزلاج الحديدي، وفُتح الباب، فانحنى الرجل المجهول وتسلل وغاب. ووصل السيد جوليادكين إلى الباب في تلك اللحظة نفسها تقريبًا، فوثب سريعًا كالسهم، واندفع إلى الفناء غير حافل بهمهمات البوّاب، وسرعان ما لمح رفيقه الغالي الذي غاب عن بصره هنيهة.

كان الرجل المجهول متّجها نحو السلم المؤدّي إلى بيت السيد جوليادكين. فوثب بطلنا يتعقّبه. إن السلم مظلم، رطب، وسخ، وعلى فسحاته تتراكم أكوام من الخرق البالية ونفايات البيوت. فمن كان غريبًا عن هذا المكان لا يعرفه، فلا بد أن يتوه في الظلام وأن يقضي نصف ساعة في صعود درجات السلم، متعرًّضا عند كل خطوة لأن تتكسر ساقاه، متذمًّرا من السلم بهاجر القول من أصدقائه الذين شاءت عقولهم السخيفة أن تسكن في عمارة كهذه العمارة. ولكن الرجل المجهول كان كمن أَلِفَ المكان واعتاد عليه، فهو يصعد درجات السلم بخفّة ورشاقة، دون عناء، عارفًا كل موضع من مواضعه.

وأوشك السيد جوليادكين أن يدركه، حتى إن حافة معطف الرجل المجهول قد لطمت أنف بطلنا عدة مرات. كان قلب بطلنا لا يكاد يخفق.

وتوقّف الرجل السرّيّ أما باب بيت جوليادكين، وطرقه. فما لبث بتروشكا أن فتح الباب، وذلك أمر كان يمكن أن يثير دهشة بطلنا في أي ظرف غير هذا الظرف. لم يكن بتروشكا قد نام. لكأنه كان ينتظر هذه الزيارة انتظارًا خاصًا. دخل الرجل المجهول وتبعه الخادم حاملًا شمعته بيده. اندفع بطلنا في الدهليز خارجًا عن طوره، واجتاز الممر الضيّق من دون أن ينضو معطفه أو أن يخلع قبعته، ووقف على عتبة غرفته مصعوقًا مشدوهًا، كأن صاعقة نزلت عليه. لقد تحقّقت جميع نبوءاته التي أوحى بها إليه إحساسه. إن كل ما خشيته، وكل ما قدّره فكره هو الآن بسبيل التحقّق في الواقع. لقد انقطعت أنفاسه، وأصاب رأسه دوار. كان الرجل المجهول جالسًا أمامه، على سريره هو، يبتسم له، ويغمز بعينه، ويحرك له رأسه بإشارات صداقة ومودّة. ورأى أنه هو أيضًا لم يخلع معطفه وقبعته. أراد السيد جوليادكين أن يصرخ، ولكنه لم يستطع. أراد أن يحتجّ، ولكنه لم يقوَ على ذلك. انتصب شعره فوق رأسه. جلس دون أن يشعر أي شعور بما يفعل، فكأنه ميّت ذعرًا ورعبًا. وكان هناك ما يدعو إلى الذعر والرعب على كل حال. لقد عرف رفيق ليلته معرفة تامة آخر الأمر. إن رفيقه ذاك لم يكن إلا هو نفسه. نعم، إنه هو نفسه، إنه جوليادكين بشخصه، هو جوليادكين ثانٍ، لكنه شبيه به شبهًا مطلقًا، مماثل له تمامًا، أو قل بكلمة واحدة إنه ما يُطلق عليه اسم «المِثْل»، هو «مِثْل» السيد جوليادكين من جميع النواحي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل السادس

في الساعة الثامنة تمامًا من الغداة استيقظ السيد جوليادكين من سريره. وكانت تلك الحوادث الخارقة التي وقعت له أمس، ووقعت له في الليلة البارحة، في تلك الليلة المضطربة التي لا يصدّقها عقل، تلك الليلة الحافلة بمغامرات لا يتصوّرها خيال، أقول كانت تلك الحوادث تغزو ذاكرته وخياله بكل ما فيها من تعقّد مروّع. إن ذلك الخبث كلّه وذلك الشر كلّه، وتلك القسوة الجهنمية كلّها، وذلك الكره كلّه، من جانب أعدائه، ولا سيما آخر مظهر من مظاهر ذلك الكره، قد جمَّدت بطلنا حتى لكأنه تجمّد كالجليد. ثم إن كل شيء كان يبلغ من الغرابة ومن البُعد عن المعقول، ومن الشذوذ، ومن الاستحالة، أن بطلنا لا يكاد يستطيع أن يصدّقه. حتى لقد كان السيد جوليادكين مستعدًا لأن يعزو ذلك كلّه إلى كابوس نادر، إلى اختلال طرأ على خياله حينًا، إلى جنون أصاب عقله فجأة. غير أن خبرة طويلة بالحياة كانت قد علّمته أن الكره يمكن أن يخنق البشر إلى أبعد حدٍّ، وأن يدفعهم إلى أنواع من القسوة ليس هناك ما هو أسوأ منها، انتقامًا لكرامة مطعونة أو ثأرًا لطموح خائب. ثم إن ما يحسّه من ألم في أطرافه، ومن صداع في رأسه، وأوجاع في كلوته، وزكام شديد، لهو دلالة بليغة على أن نزهة الأمس ومحن الليلة البارحة أقرب إلى الصدق. هذا إضافة إلى أن السيد جوليادكين كان يعلم منذ زمن طويل أن شيئًا ما يدبّر هناك، عندهم... وأنهم يتآمرون على أحد. فماذا عليه أن يفعل؟ وبعد أن فكّر السيد جوليادكين في الأمر تفكيرًا طويلًا ناضجًا قرر أن يُذعِن، وأن يخضع، وألا يرفع صوته بأي احتجاج في هذا الأمر، حتى إشعار آخر على الأقل.

«أليس من الجائز في الواقع ألا يكونوا قد قصدوا إلّا إلى تخويفي؟ لذلك فإنهم متى رأوا أنني لا أردّ، ولا أحتج، بل أخضع خضوعًا تامًا، وأتحمّل كل شيء بمذلّة، تراجعوا من تلقاء أنفسهم».

تلك هي الخواطر التي دارت في ذهن السيد جوليادكين، حين كان متمدِّدًا على فراشه يتمطى، ويحاول أن يخفّف آلام أعضائه المحطّمة، وينتظر ظهور بتروشكا على عادته.

إنه ينتظر منذ ربع ساعة. وها هو ذا يسمع أصوات حركة بتروشكا الكسول وراء الحاجز بسبيل إعداد السماور. ومع ذلك قرّر ألا يناديه.

أكثر من ذلك، إن السيد جوليادكين كان يخشى في تلك الساعة أن ينفرد بخادمه بتروشكا. كان يقول لنفسه: «ما عسى يدور في خلد هذا الوغد الآن حول هذه القضية كلّها! صحيح أنه صامت لا يتكلّم، ولكن هذا لا ينفي أنه يفكّر». وظهر بتروشكا حاملًا بيديه طبقًا ألقى عليه السيد جوليادكين نظرة وجلى. كان السيد جوليادكين ينتظر أن يرى أفعال بتروشكا وأن يسمع أقواله نافد الصبر. «أتراه يجيء على ذكر حوادث الأمس؟...» ولكن بتروشكا لم ينبس بكلمة واحدة، حتى لقد كان أعمق صمتًا وأكثر عبوسًا وأشد تجهّمًا مما هو في العادة. كان واضحًا أنه

منزعج. وأن عينيه المخفوضتين تفيضان اشمئزازًا. ولم يلقِ على مولاه نظرة واحدة، ولنذكر عابرين أن هذا ساء بطلنا قليلًا.

وضع بتروشكا الطبق على المائدة، ثم استدار وانصرف صامتاً كأنه أخرس. تمتم السيد جوليادكين يقول وهو يصب الشاي لنفسه: «إنه يعرف، إنه يعرف. هو مطّلع على كل شيء، هذا الكسول...».

ومع ذلك تحاشى السيد جوليادكين أن يلقي على خادمه أي سؤال، رغم أن الخادم عاد إلى الغرفة عدة مرات لشؤون تتعلق بخدمة مولاه. كان بطلنا قلقًا غاية القلق. وكان ينقبض صدره أشد الانقباض حين يتصوّر أن عليه أن يذهب إلى مكتبه.

كان يوجس أن الأمور هناك ليست على ما يجب أن تكون، وهو يقول لنفسه: «لو ذهبت إلى المكتب لعرّضت نفسي لمتاعب جديدة، أفليس من الأفضل أن أتريث قليلًا، وأن أصبر قليلًا؟ ليفعلوا ما يحلو لهم أن يفعلوه. أما أنا فمن مصلحتي أن أقضي نهاري هنا لأسترد قواي ولأبل قليلًا من مرضي، ولأفكر في هذه القضية كلّها ولو قليلًا. وبعد ذلك أختار اللحظة المناسبة، فأسقط عليهم سقوط حبّات البرد على الرؤوس... بذلك تنجح مكيدتي وأخرج من الأمر ظافرًا». وكان السيد جوليادكين أثناء استرساله في هذه التأملات يدخن غليونًا بعد غليون، والزمن ينقضي، حى صارت الساعة التاسعة والنصف.

قال السيد جوليادكين لنفسه: «الساعة التاسعة والنصف؟ لقد فات أوان الذهاب إلى المكتب. ثم إنني مريض، نعم مريض، مريضٌ فعلًا، من يستطيع أن يدعي غير ذلك؟ ولست أبالي على كل حال! فليجيئوا مستطلعين إذا أرادوا. ليرسلوا طبيبًا يتحقّق من مرضي! لست أبالي قط. إن في ظهري أوجاعًا شديدة، وأنا أسعل، وبي زكام. ثم إنني لا أستطيع الخروج في مثل هذا الجو السيئ. ذلك مستحيل، مستحيل تمامًا وإلا فقد يصيبني مرض خطير.. قد أموت.. نعم.. لم لا؟ ما أكثر الذين يموتون في هذه الأوقات».

هذه الخواطر هدّأت ضمير السيد جوليادكين تهدئة كاملة، وأمدته بتسويغ للتقريع الذي لا بد أن يوجّهه إليه آندره فيليبوفتش لومًا له على قلة نشاطه ونقص همته. يجب أن نذكر أن السيد جوليادكين كان يحرص حرصًا مطلقًا، حين يوجد في ظروف كهذه الظروف، على أن يبرر نفسه أمام نفسه بحجج لا سبيل إلى دحضها. فلما وصل في هذه المرة أيضًا إلى تبرير كامل، تناول غليونه فحشاه وأخذ يدخنه. ولكنه ما إن نشق منه بضعة أنفاس حتى وثب عن سريره فجأة، ورمى غليونه بعيدًا، ومضى يغسل وجهه ويحلق ذقنه ويمشط شعره ويلبس رداءه الرسمي، حتى إذا فرغ من ذلك جمع بعض الأوراق، وهرع يمضي إلى مكتبه راكضًا.

دخل السيد جوليادكين مكتبه وهو يشعر بخجل شديد، ووجل واضح. إن قلبه يخفق خفقانًا محمومًا بانتظار أن يقع له حادث مشؤوم. ترك ذلك في نفسه إحساسًا غامضًا لا شعوريًا، ولكنه في الوقت نفسه إحساس مزعج. استقرّ في مكانه المألوف خائفًا، وكان مكتبه بالقرب من مكتب رئيسه في العمل أنطون أنطونوفتش سبيتوشكين. ولم يلبث أن غرق في الأوراق الموضوعة أمامه لا يرفع بصره، ولا يدع لنفسه أن

يلتفت يمنة أو يسرة. كان قد قرر جازمًا، وآل على نفسه، أن يتحاشى بكل ما أوتي من قوة، أي احتكاك، أو أي تحريض من شأنه أن يعرضه لسوء بأسئلة وقحة، أو أمازيح، أو غمزات تتناول مغامرة الأمس، حتى عزم أمره على أن يتجنب المجاملات المعتادة من أسئلة وأجوبة عن الصحة التي يتبادلها عادةً مع زملائه. ولكن المحافظة على هذا الوضع لم تكن بالأمر السهل كثيرًا.

أضف إلى ذلك أن السيد جوليادكين، حين يواجه حادثًا أليمًا، لا تعذّبه نتائج هذا الحادث بقدر ما تعذّبه الشكوك، ويعذّبه القلق والخوف والهَمّ. لذلك لم يستطع أن يفي بالعهد الذي قطعه على نفسه، وهو أن يتحاشى أي احتكاك، أو أي تحرّش قد يسبب أسئلة محرجة.

كان يرفع رأسه من حين إلى حين خلسةً، متصفِّحًا وجوه زملائه، محاولًا أن يكتشف علامة من شأنها أن تطلعه على حادث جديد خاص يتعلّق به، أو تكون فيها إشارة على مؤامرة جديدة تحاك له.

كان يحاول أن يربط بين حوادث الأمس وسلوك من هم حوله الآن. وانتهى آخر الأمر، وقد استبد به قلقٌ شديدٌ، إلى أن يتمنّى نهاية لهذا الموقف الذي لا يُطاق. تمنّى نهاية سريعة، ولو أدى ذلك إلى أسوأ النمائم وأخبث الإشاعات! إنه لا يبالي! ولم يلبث القدر أن استجاب لرغبته. فما كاد السيد جوليادكين يعرب عن أمنيته هذه، حتى تبدّدت شكوكه على أغرب نحو يمكن أن يخطر ببال.

لقد فتح باب الغرفة المجاورة فجأة، بصرير ضعيف وجِل، يدلّ على أن الداخل شخص لا قيمة له. وهذه قامة يعرفها بطلنا حق المعرفة تمر أمام منضدته خرقاء متحيّرة، فلا يرفع السيد جوليادكين رأسه، وإنما يكتفي بأن يلقي على هذا الشخص الجديد نظرة خاطفة، فإذا هو يعرف كل شيء ويفهم كل شيء بأدق التفاصيل دفعة واحدة. شعر بالعار يضنيه، فأغرق المسكين رأسه في أوراقه، تمامًا كما تفعل النعامة التي تخفي رأسها في الرمل المحرق حين يطاردها صياد.

انحنى القادم الجديد أمام آندره فيليبوفتش، ولم يلبث أن سمع صوت آندره فيليبوفتش رسميًا، ملاطفًا كالصوت الذي يعمد إلى اصطناعه رؤساء العمل عادة في مخاطبة مرؤوسيهم الجدد. قال آندره فيليبوفتش وهو يشير إلى طاولة أنطون أنطونوفتش: «اجلس هنا، أمام السيد جوليادكين. سيعهد إليك بعمل فورًا». وختم آندره فيليبوفتش كلامه بإشارة موجزه وقورة تحمل للقادم الجديد معنى التشجيع، ثم استغرق في قراءة كدسة الأوراق الضخمة التي كانت أمامه.

رفع السيد جوليادكين عينيه أخيرًا. ولئن لم يسقط مغشيًا عليه فوارًا، فما ذلك إلا لأنه كان قد أوجس من هذا التصرّف. كان قد تنبأ في الواقع بكل شيء، وكان قد حزر جميع نيّات القادم الجديد. إن أول حركة قام بها السيد جوليادكين هي أنه ألقى نظرة حواليه ليرى هل أخذ الموظفون يتهامسون في الأركان، وهل أخذت مزحة من الأمازيح المألوفة في المكتب تطوف في القاعة، وهل فغر أحد الأفواه ذهولًا وانشداهًا، وهلا تهاوى أحد الحضور تحت الطاولة ذعرًا ورعبًا. فما كان أشد دهشته حين لم يلاحظ شيئًا من ذلك أبدًا! لقد أدهشه وضع زملائه ادهاشًا كبيرًا، وبدا

له هذا الوضع غير معقول. انخلع قلب السيد جوليادكين هلعًا من هذا الصمت المطبق غير العادي. ما هذا الصمت والوقائع ظاهرة واضحة كل الوضوح!...

أمر غريب، شاذ، قاسٍ!.. شيء يبعث في الجسم قشعريرة!... هذه هي الخواطر التي مرت في ذهن السيد جوليادكين سريعة كالبرق. كان السيد جوليادكين يحترق، وهناك ما يدعو إلى ذلك. إن القادم الجديد الذي كان في تلك اللحظة جالسًا أمام السيد جوليادكين، هو بعينه ذعر السيد جوليادكين، هو بعينه عار السيد جوليادكين، هو بعينه الكابوس الذي وافى السيد جوليادكين في ليلته تلك: إنه السيد جوليادكين نفسه. صحيح أنه ليس جوليادكين الذي كان في تلك اللحظة جالسًا على كرسيه، فاغرًا فاهه، حاملًا قلمه، صحيح أنه ليس جوليادكين الذي يقوم بوظيفة مساعد لرئيس مكتبه، والذي يجب أن يُمحى، وأن يتلاشى، والذي يعبر سلوكه تعبيرًا واضحًا عن أن لسان حاله يقول: «لا تمسوني ولن أمسكم». أو يقول: «لا تمسونى فإنني لا أمسكم...» لا.. ليس هو جوليادكين ذاك.. وإنما هو جوليادكين آخر، جوليادكين آخر تمامًا، ولكنه مع ذلك مثل الأول، له قامة الأول نفسها، وله جسم الأول نفسه، وله صلعة الأول نفسها، وهو يرتدي الملابس نفسها التي يرتديها الأول... فلا شيء ينقص هذا التشابه الكامل وهذا المِثْل التام. فلو وضع أحدهما إلى جانب الآخر لما استطاع أحد في العالم الإدعاء أن في وسعه التمييز بين جوليادكين الصادق وجوليادكين المزيَّف، وأن يميز بين القديم والجديد، أو بين الأصل والصورة.

كان بطلنا في تلك اللحظة - وليسمح لنا بهذا التشبيه - في وضع إنسان جاءه مازح خبيث فمرّر أمام وجهه مرآة لمناكدته وإزعاجه. قال جوليادكين لنفسه: ماذا جرى؟ أأنا في حلم؟ أأنا في حالة يقظة أم إن كابوس الأمس يستمر الآن؟ كيف يكون هذا ممكنًا؟ بأي حق يفعلون هذا؟ من ذا الذي أذن باستخدام هذا الموظف الجديد؟ نعم، من الذي أصدر الأمر بذلك؟ أأنا نائم؟ أأنا أحلم؟ ومن أجل أن يمتحن السيد جوليادكين حالته قرص نفسه... حتى لقد نوى على الفور أن يقرص أحد زملائه... ليس هناك أي ريب! لا... ما هو بنائم. أحس السيد جوليادكين بالعرق يتصبب منه قطرات كبيرة... أدرك أن شيئًا خارقًا يحدث له... شيئًا لم ير له نظير من قبل، شيئًا هو على جانب رهيب من الخطر، وتلك مصيبة المصائب.... أحس جوليادكين بالخطر وأدرك جميع سيئات هذا الموقف الجديد، موقف المهزلة الذي هو الآن بطله الأول ونموذجه.

وشيئًا فشيئًا أخذت تراوده شكوك حول وجوده نفسه، ورغم أنه كان مستعدًا لكل شيء، راغبًا في أن يرى تبدد جميع هذه الشكوك بصورة من الصور آخر الأمر، فقد كان يحس بأن ظرفًا يعادل في تعقّده المفاجأة التي ليست في الحسبان كان قد تجاوزه. إنه مرهق معذب. وأن قلقًا رهيبًا يهد نفسه هدًّا، حتى إن فكره وذاكرته يبارحانه تمامًا في بعض اللحظات. فلما ثاب إلى رشده بعد إحدى هذه الغيبوبات لاحظ أنه كان بسبيل الجري بقلمه على ورقة من الأوراق على نحو آليّ لا شعوري: فسرعان ما أخذ يعيد قراءة ما كتبه، لفقدانه ثقته بنفسه، فلم يستطع أن يفهم شيئًا مما كتب بطبيعة الحال.

وفجأة نهض جوليادكين الثاني، الذي كان جالسًا أمام بطلنا جلسة هادئة حتى تلك اللحظة، ومضى إلى المكتب المجاور، ربما ذهب لطلب بعض المعلومات. نظر السيد جولياكين حواليه. إن كل شيء هادئ. ليس يسمع إلا صرير الأقلام خفيفًا، وحفيف الأوراق تقلب، ولا يُسمع سوى همسات قليلة في الأركان البعيدة عن طاولة آندره فيليبوفتش. رفع السيد جوليادكين عينيه نحو أنطون أنطونوفتش. لا شك أن تعبير وجهه الذي يفصح إفصاحًا بيِّنا عن حالته النفسية وعن الهموم التي تسببه لها الحوادث الراهنة، قد بدا غريبًا لرئيسه. لأن أنطون أنطونوفتش الشهم لم يلبث أن وضع قلمه، وسأله عن صحته في كثير من العطف والشفقة.

تأتأ جوليادكين يقول:

- صحتي جيدة جداً يا أنطون أنطونوفتش. الحمد لله يا أنطون أنطونوفتش. صحتي الآن حسنة يا أنطون أنطونوفتش...

كذلك أخذ السيد جوليادكين يكرّر متهيًّبا، مردِّدا اسم رئيسه لدى كل كلمة يقولها.

لما يجرؤ بعد على البوح لأنطون أنطونوفتش بما في نفسه.

- حسنًا.. كنت أحسب أنك تشكو ألمًا ما.. ولا غرابة في هذا على كل حال، لا سيما في هذه الآونة التي تتكاثر فيها الأمراض السارية... هل تعلم أن...

ولم يدعه يكمل، وقال:

- نعم يا أنطون أنطونوفتش، نعم، أعرف أن هذه الأمراض موجودة... ولكن يا أنطون أنطونوفتش ليست هذه هي المسألة (كذلك أضاف يقول السيد جوليادكين وهو يتفرّس في محدّثه (محدًّقا)... لا أدري يا أنطون أنطونوفتش كيف أستطيع... أعني لا أعرف تمامًا من أين أبدأ يا أنطون أنطونوفتش...

- لا أفهم ماذا تقول... أعترف لك بأنني لا أفهم ماذا تريد أن تقول... عليك أن تشرح ما تريد قوله بمزيد من الوضوح.

وإذا لاحظ أنطون أنطونوفتش شدّة اضطراب السيد جوليادكين الذي امتلأت عيناه بالدموع، ارتبك هو أيضًا، فأضاف يسأله:

- قل لي ما الذي...

ومرةً أخرى قاطعه:

- الحقيقة يا أنطون أنطونوفتش... يوجد هنا... يا أنطون أنطونوفتش... موظّف.

- نعم... صحيح... يوجد موظّف هو سميّك....

صاح السيد جوليادكين:

- ماذا؟ هو سميِّي... اسمه أيضًا جوليادكين...

- نعم... هو سميّك... اسمه أيضًا جوليادكين... أليس هو أخاك؟

- لا يا أنطون أنطونوفتش، أنا...

- غريب... خيّل إليَّ أنه لا بد أن يكون أحد أقربائك... هل تعلم أن بينك وبينه بعض الشبه؟ لكأنكما من أسرة واحدة.

ظل السيد جوليادكين متجمِّدًا من الدهشة، حتى لقد انعقد لسانه بضع لحظات، فلم يستطع أن يقول شيئًا، وهناك في الواقع ما يدعو إلى ذلك. ماذا؟ كيف يمكن لأنطون أنطونوفتش أن ينظر بهذا القدر من الاكتراث وعدم المبالاة إلى ظاهرة غريبة هذه الغرابة كلها. ظاهرة فريدة حقًا من نوعها. ظاهرة لا بد أن تخطف بصر أيّ مشاهدٍ لها. كيف يمكن لأنطون أنطونوفتش أن يتحدّث بصدد هذه الظاهرة عن تشابه كالتشابه الذي يكون بين أفراد أسرة واحدة؟ إن الأمر أمر تماثل كامل بل وحدة تامة، كالوحدة بين إنسان وصورته في المرآة.

أردف أنطون أنطونوفتش يقول:

- اسمع يا ياكوف بتروفتش! أحب أن أسدي إليك بنصيحة، عليك أن تذهب إلى طبيب، فتستشيره في أمر صحتك. إنك لا تبدو في حالة طبيعية تمامًا ولا سيما عيناك... إن لهما تعبيرًا غريبًا...

- لا يا أنطون أنطونوفش... طبعًا أنا لا أشعر بأنني... أعني... أريد أن أسألك عن هذا الموظف.

- هه؟

- ألم تلاحظ فيه شيئًا غير عادي يا أنطون أنطونوفتش؟ شيئًا مميزًا على نحو خاص؟

- مثلًا؟

- مثلًا، أريد أن أسألك يا أنطون أنطونوفتش: «ألم تلاحظ أن فيه شبهًا غريبًا بأحد.. بي أنا مثلاً؟ لقد ذكرت منذ هنيهة أنه يشبهني كما يشبه أفراد الأسرة بعضهم بعضًا... ذكرت هذا عَرَضًا دون دهشة... ولكن هل في علمك أنه يوجد أحياناً شخصان يتشابهان تشابهًا كاملاً كتشابه قطرتي ماء، حتى ليستحيل تمييز أحدهما عن الآخر؟... ذلك ما أحببت أن أحدثك فيه...

قال أنطون أنطونوفتش بعد لحظة من تفكير، وكأنه يدرك لأول مرة ظاهرة لها هذه الخطورة:

- نعم... صحيح... إن تشابهكما يثير الدهشة حقًا، ورأيك في محله تمامًا. حتى إن من الممكن فعلًا أن يخلط المرء بينكما فلا يميز أحدكما عن الآخر (كذلك قال أنطون أنطونوفتش وهو يحملق مزيدًا من الحملقة). إنه تشابه يشبه أن يكون معجزة... تشابه خرافي يا ياكوف بتروفتش، كما يُقال أحيانًا... إنه مثلك تمامًا. حقًا إنه مثلك تمامًا. هل لاحظت ذلك يا ياكوف بتروفتش؟ ولقد كان في نيتي أن أحدّثك في هذا الموضوع، ولكن يجب أن أعترف بأنني في البداية لم أولِ هذه القضية كبير إهتمام.

هذه معجزة.. معجزة حقا... بالمناسبة يا ياكوف بتروفتش، أظن أنك لم تولد هنا، أليس كذلك؟

- نعم لم أولد هنا.

- هو أيضًا لم يولد هنا، لعلكما كلاكما من إقليم واحد؟ هل أستطيع أن أسألك أين كانت تقيم والدتك في العادة؟

- هل قلت.. يا أنطون أنطونوفتش... هل قلت إنه ليس من هنا؟

- نعم ليس من هنا.

وتابع أنطون أنطونوفتش المهذار الذي يفرح لكل ثرثرة، يقول:

- حقًا إنها لمعجزة. حقًّا إن في الأمر ما يثير الدهشة. كثيرًا ما يتفق لنا أن نصادف هكذا أشياء جديرة بالاهتمام، فنلامسها ونصطدم بها ثم لا نلاحظها. ليس عليك أن تضطرب كثيرًا على كل حال فتلك أمور تحدث. لذلك سأقص عليك قصة مشابهة وقعت لإحدى خالاتي: إنها هي أيضًا قد رأت نفسها مثلين قبيل وفاتها.

- معذرة إذا قاطعتك يا أنطون أنطونوفتش... ولكنني أريد أن أعرف... أن أعرف يا أنطون أنطونوفتش كيف استطاع هذا الموظف... أقصد كيف دخل إلى هنا؟

- إنه يحلّ محلّ المرحوم سيميون إيفانوفتش. لقد شغرت الوظيفة بوفاة سيميون إيفانوفتش، فبحثوا عمّن يحل محله ثم عينوه هو. بالمناسبة: هل تعرف أن سيميون إيفانوفتش، هذا الشهم، قد ترك فيما يقال ثلاثة أطفال صغار؟ لقد ارتمت زوجته المسكينة عدة مرات على قدمَيْ صاحب السعادة متوسلة ضارعة. يقال مع ذلك إنها تمثّل، فهي تملك مالًا ولكنها تخفيه....

- ولكنني أريد أن أعود إلى موضوعنا يا أنطون أنطونوفتش...

- أي موضوع؟ ها... نعم... ولكن لماذا تهتم بهذه المسألة هذا الاهتمام كله؟... أعود فأقول لك: لا تصدّع رأسك. ذلك كله مؤقت، ثم ماذا أخر الأمر؟ ليس الذنب ذنبك. إن الله هو الذي دبرّ الأمور على هذا النحو. هي مشيئة الله والاحتجاج على مشيئة الله إثم. حكمة الله العظمى هي التي أرادت ذلك. أما أنت يا ياكوف بتروفتش فما أحسب أنك مسؤول عن هذا كلّه في شيء. المعجزات في هذا العالم كثيرة. إن أمنا الطبيعة كريمة سخية... ولن يحاسبك أحد على شيء يومًا... بالمناسبة أظن أنك قد سمعت عن ذينك الأخوين الـ... ماذا يسميان؟ ها... نعم... ذينك الأخوين السياميين اللذين ولدا ملتصقَي الظهرَيْن، فهما يعيشان هكذا معًا. لكن يظهر أن ذلك يدرّ عليهما مالاً كثيرًا.

- اسمح لي يا أنطون أنطونوفتش...

- أنا أفهمك.. أنا أفهمك.. طيب.. ماذا أخيرًا؟ ليس الأمر بذي بال. أعود فأقول لك إنني بعد أن فكرت في المسألة مليًا لا أدري ما يوجب أن تصدع رأسك. ماذا تريد؟ هو موظف كأي موظف آخر، وهو في ما يظهر رجل نشيط. لقد قدّم نفسه قائلًا إن

اسمه جوليادكين وأنه قادم من إقليم آخر، وإنه كان يعمل كاتبًا في إحدى دوائر الدولة، وقد تمت بينه وبين صاحب السعادة مقابلة خاصة.

- وصاحب السعادة؟

- جرت الأمور على خير ما يمكن. قدم لصاحب السعادة شروحًا كافية. قال: «ذلك هو وضعي على حقيقته يا صاحب السعادة. ليس لي ثروة شخصية. وأحب أن أعمل، لا سيما تحت الأوامر النيّرة التي يصدرها صاحب السعادة»، وهلم جرًّا... وتدفّق يكيل المديح لصاحب السعادة بكثير من الحذق والبراعة. ولا شك أنه كان يحمل توصية على كل حال، وإلا لما تمّ تعيينه طبعًا.

- ومن الذي أوصى؟... أقصد من الذي وضع يده في هذه القضية المخجِلة؟

- يظهر أنه كان يحمل توصية جيّدة جدًّا. حتى إن صاحب السعادة وآندره فيليبوفتش قد ضحكا قليلًا كما قيل.

- نعم.. أقصد.. ابتسما، وقالا له إن هذا يبدو لهما كافيًا، وإنهما من جهتهما موافقان تمامًا، شريطة أن يعمل بصدق وإخلاص...

- ثم؟ وبعد ذلك؟ إنني متحيّر قليلًا يا أنطون أنطونوفتش. أكمل، أرجوك أن تكمل...

- معذرة... مرة أخرى أنا لا أفهمك... قلت لك ليس في الأمر كلّه شيء غير عاديّ. أعود فأقول: عليك ألا تصدِّع رأسك. ليس في هذه القضية ما يهدّدك.

- ليس هذا الموضوع. إنما أردت أن أسألك يا أنطون أنطونوفتش: ألم يُضِف صاحب السعادة إلى ذلك بضع كلمات.. عنّي أنا مثلًا؟

- نعم؟ طبعًا.. حتمًا... ولكن ليس هناك شيء ذو بال. في وسعك أن تكون مطمئنًا كل الاطمئنان هي مصادفة غريبة، أسلّم لك بذلك. لاحظ أنني لم أنتبه إلى الأمر من أول نظرة في البداية. لا أدري كيف لم ألاحظ هذا الشبه قبل أن تنبّهي إليه. على كل حال، تستطيع أن تطمئنّ كل الاطمئنان. لم يقولا شيئًا خطرًا، لم يقولا شيئًا من ذلك البتة.

كذلك أضاف يقول أنطون أنطونوفتش اللطيف وهو ينهض عن كرسيه.

- أريد أيضًا يا أنطون أنطونوفتش...

قاطعه قائلًا:

- اعذرني... لقد أفرطت في الثرثرة حتى الآن، بينما هنالك عمل مستعجل مهمٌّ جدًّا يجب أن أقوم به. ثمة معلومات يجب أن أحصل عليها.

وفجأة انطلق صوت آندره فيليبوفتش العذب ينادي قائلًا:

- أنطون أنطونوفتش! صاحب السعادة يطلبك.

تناول أنطون أنطونوفتش كدسة من الأوراق، فهرع أولًا نحو طاولة آندره فيليبوفتش ثم مضى إلى مكتب صاحب السعادة.

«ها.. هذه هي المسألة إذا، تلك هي اللعبة التي يدبّرونها في هذه اللحظة... الآن أرى الإتجاه الذي تسير فيه الريح... ليس هذا كله بالأمر السيئ... إن الأمور تجري مجرًى حسنًا». كذلك قال السيد جوليادكين لنفسه وهو يفرك يديه إحداهما بالأخرى. لقد بلغ من الفرح أنه أصبح لا يحسّ بوجود الكرسي تحته. «إنهم يعِدّون قضيتنا مسألة عادية. كل شيء يغدو إذًا ترهات وسفاسف... وفعلًا لا أرى أحدًا يحتج.. إن جميع هؤلاء الأوغاد غارقون في أعمالهم. عظيم... عظيم... إنني لأحبكم جميعًا هؤلاء الناس الطيبين... ولقد أحببتهم دائمًا... إنني مستعد لأن أقدّرهم وأن أحترمهم... ومع ذلك يبدو لي... حين أفكر في الأمر مليًّا... هذا الأنطون أنطونوفتش... من الخطر أن أبوح له بما في نفسي... لقد أثقلته السنون... وأفرط شعره في المشيب... على كل حال، الأمر الأساسي المهم في الموضوع أن صاحب السعادة لم يقل كلمة واحدة في هذه المسألة... عظيم... أنا أؤيد ذلك. ولكن ما شأن آندره فيليبوفتش في هذا كله هو وضحكاته الصغيرة؟ فيم يتدخل؟ يا للّحية العتيقة!... إنه دائمًا في طريقك هذا الرجل، إنه متأهّب في كل لحظة لأن يجتاز الطريق أمامك، كنقطة سوداء... نعم... دائمًا أمامك وراء ظهرك!...

مرة أخرى أجال السيد جوليادكين بصره في القاعة. ومرة أخرى شعر بالأمل يملأ نفسه. ومع ذلك كان ثمة شيء ينغّص عليه صفوه. هو فكرة بعيدة، فكرة تنذر بشؤم. قرر في لحظة من اللحظات أن يستبق الأمور، أن يبادر إلى شيء، أن يسائل بعض زملائه بطريقة من الطرق. إن في وسعه أن يفعل هذا عند الخروج من المكتب مثلًا، بل في وسعه أن يفعله هنا، بحجة الإستفسار عن أمر من الأمور التي تتصل بالعمل. في وسعه مثلًا أن يدس بين جملتين قولًا كهذا القول: «أمر عجيب. هل رأيتم هذا التشابه الغريب؟ محاكاة كاملة!». فإذا تظاهر بأنه يمزح هو نفسه، استطاع أن يقدر مدى الخطر. «يجب على المرء دائمًا أن يخشى الماء الهادئ، فربّ شيطان يختبئ فيه!». تلك هي النتيجة التي خلص إليها بطلنا. ومع ذلك تدارك نفسه في الوقت المناسب، فلم تنتقل نياته إلى حيز التنفيذ. لقد أدرك أنه إن فعل ذلك كان يمضي بعيدًا جدًا. قال لنفسه وهو يلطم جبينه لطمة خفيفة: «تلك هي طبيعتك: ما إن تدخل اللعب حتى تتحمّس. نفس ظمأى إلى العدل! لا... الأفضل أن ننتظر قليلًا يا ياكوف بتروفتش، يجب أن نتريث قليلًا ولو تحمّلنا في سبيل ذلك بعض العذاب». ورغم هذه النتيجة التي خلص إليها فقد شعر بالأمل يملأ نفسه؛ خُيّل إليه أنه يُبعث من بين الموتى.

قال لنفسه: تحسّنت حالي الآن، لكأن ثقل طنَّين قد أزيح عن صدري، غريب. لقد كان كل شيء بسيطًا كتحية. فتح الصندوق من تلقاء نفسه. كان كريلوف على حق... يا لكريلوف هذا من ماكر خبيث يحسن تأليف القصص... أمام القادم الجديد فليعمل... فليعمل ما شاء أن يعمل، شريطة ألا يجور على أرض غيره، وألا يسيء إلى أحد. نعم، هو كذلك... أنا موافق على أن يعمل، أنا أؤيد ذلك تأييدًا تامًا...

كانت الساعات أثناء ذلك تنقضي... كانت تطير طيرانًا. هي الساعة الرابعة منذ الآن. المكاتب تُغلق. تناول آندره فيليبوفتش قبعته، وحذا جميع الموظفين حذوه كالعادة. تأخر السيد جوليادكين قليلًا، من أجل أن يكون آخر الخارجين.

تفرّق الموظفون ومضى كل منهم إلى منزله، فلما صار السيد جوليادكين في الشارع أحس بأنه سعيد كما لو كان في الجنة، حتى لقد شعر برغبة في أن يقوم بجولة قصيرة، وأن يتنزّه بشارع نفسكي.

قال لنفسه وهو يسير: «ما أعجب المقادير! لقد تغير الوضع تغيُّرا جذريًا على حين فجأة... حتى الجو تحسّن تحسُّنا واضحًا. هذه هي الزلاقات وهذا هو الجليد!... الجليد يناسب الروس. وأنا أحب الروس... لو شاهد صياد هذا لهتف يقول: هذه طلائع البرد والثلج... يجب عليّ أن أصطاد أرنبًا طيبًا على هذه الثلجة الأولى... يمينًا ليس هناك ما يزعج... كل شيء يجري مجرًى حسنًا.. هكذا تجلّت حماسة جوليادكين. ومع ذلك كان هناك شيء لا يزال يدغدغ داخل رأسه. أهو قلق؟ أهو خوف؟ لا... غير أن قلبه لا يزال فيه من الفزع ما يجعله عاجزًا عن التغلب على نفسه. قال: «لا داعي إلى التعجّل على كل حال. فلننتظر المستقبل... صبر من ظفر... يضحك جيدًا من يضحك أخيرًا. وما هي المسألة في الواقع؟ هلا فكّرنا قليلًا! هلا حلّلنا قليلًا! نعم علينا يا صديقي الشاب، علينا أن نحلّل. أنا رجل مثلك، نعم، أنا رجل شبيه بك، شبيه بك من جميع النواحي. طيب. ثم ماذا؟ هل في هذا ما يدعوني إلى الشكوى والنواح؟ هل في هذا ما يدعوني إلى البكاء؟ أي ضير في هذا كله؟ إنني بعيد عن هذه القضية كلّها، أغسل منها يديَّ وكفى!... لقد قررت، لقد اتخذت قرارًا حاسمًا إلى الأبد».

أما هو فليقُم بعمله، يقولون إنها معجزة، يقولون إنها ظاهرة عجيبة... يشتبّهونها بظاهرة الأخوين السياميَّين... لماذا يستشهدون بالأخوين السياميَّين؟ هما توؤمان طبعًا... ولسنا كذلك نحن... ثم إن الحياة مليئة بالغرائب، حتى لدى عظماء الرجال فالتاريخ يروي أن سوفوروف الشهير نفسه كان يغنّي كما يغنّي ديك... صحيح أنه يدَّعي أن هذا كان من قبيل الدبلوماسية... ولكن ما القول في كبار القادة؟... إنني، من جهتي؟ أسير في طريقي هادئًا مسالمًا، أظل في ركني، لا أريد أن أعرف شيئًا عن الآخرين، أحب أن أكون بريئًا كل البراءة... لا أحفل بعدوّي... لست ممن يدبِّرون المكائد ويضعون المؤمرات... وأنا بهذا فخور. إنني طاهر نقي، مهذّب، دمث، لا أعرف الحقد...».

وفجأة صمت السيد جوليادكين، وتوقف مختلبًا، مرتجفًا كورقة في مهب الريح... حتى لقد أغمض عيناه بضع لحظات. ومع ذلك تأمل أن يكون الشيء الذي أثار رعبه سرابًا ووهمًا من أوهام الحواس، ففتح عينيه وألقى نظرة وجلى على يمينه... لا... لم يكن ما رآه سرابًا أو وهمًا... فإلى جانبه كان الرجل الذي رآه في صبيحة ذلك اليوم يخطو بخطوات قصيرة. إنه يبسم ويتفرّس فيه بوقاحة، وكأنه ينتظر فرصة مواتية ليُجري معه حديثًا ولكن الفرصة تأخّرت...

وهكذا ظل الرجلان يسير أحدهما إلى جانب الآخر قرابة خمسين خطوة.

إن طاقة السيد جوليادكين منصبّة كلها على هدف واحد: هو أن يغطس في معطفه أعمق غطس، وأن يُنزل قبعته على رأسه حتى تصل إلى عينيه. ولكنه رأى فجأة - وتلك غاية الوقاحة - أنَ معطف صاحبه كمعطفه وقبعته هو تمامًا.

تمتم بطلنا أخيرًا يقول وهو يحاول أن يتكلم بصوت خافت دون أن ينظر إلى صاحبه:

- أحسب أيها السيد طريقَينا مختلفين... بل أنا موقن من ذلك (أضاف هذا بعد لحظة صمت)، ثم إنني أعتقد بأنك فهمتني حقّ الفهم (هكذا ختم كلامه بلهجة قاطعة).

فدمدم صاحب السيد جوليادكين يقول أخيرًا:

- كنت أود... كنت أود... رجائي من كرمك أن يغفر لي.. أن يسامحني.. إنني لا أعرف أحدًا أتجه إليه هنا.. فوضعي... آمل أن تعفو عن جرأتي ووقاحتي.. لقد بدا أنك تعطف عليّ، لقد أظهرت شيئًا من الإهتمام بي هذا الصباح... ولقد شعرت أنا أيضًا بشيء من الانجذاب نحوك.. إني..

هنا تمنى السيد جوليادكين لزميله الجديد أن يغور تحت الأرض إلى الأبد.

استأنف صاحبه يقول:

- ليتني أستطيع أن آمل يا ياكوف بتروفتش أن تصغي إليّ في تسامح ورحابة صدر.

فأجابه السيد جوليادكين قائلًا:

- هنا؟ نحن؟ أصغي؟ هنا؟ نحن؟ لا.. لا... لنذهب إلى بيتي... لنقطع أولًا شارع نفسكي، فنكون في الجهة الأخرى أكثر ارتياحًا، ثم نمضي في الشارع الصغير.

قال صاحب السيد جوليادكين، طبعًا خائفًا:

- طيب لنَسِر في الشارع الصغير.

كان واضحًا من لهجته أنه بسبب وضعه يرى أن لا فائدة من المناقشة وأن الشارع الصغير يكفيه.

أما السيد جوليادكين فكان لا يفهم شيئًا مما يجري إطلاقًا. إنه لم يثب إلى رشده بعد. إنه يشك في حواسه وفي عقله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل السابع

استردّ السيد جوليادكين بعض صوابه وهو يصعد السلم. حتى إذا وصل أمام باب بيته قال لنفسه: ألا ما أصغر عقلي لكأنّه عقل عصفور!... لماذا أجيء به إلى هنا؟ إنني أضع الحبل في عنقي بنفسي؟ ما عسى يقول بتروشكا حين يرانا معًا؟ ما عسى يظن هذا الجرو بعد اليوم وهو كثير الظنون والشكوك منذ الآن؟... ولكن الندم قد فات أوانه. وطرق جوليادكين الباب فانفتح، وأخذ بتروشكا يساعد السيد جوليادكين وصاحبه في خلع معطفَيْهما.

وجازف السيد جوليادكين بنظرة مختلَسة على خادمه، محاولًا أن ينفذ إلى وجهه، وأن يحرز ما يجول في خاطره. فما كان أشد دهشته حين لاحظ أن خادمه لم يُظهر أي استغراب. حتى لا لكأنه قد أعدَّ نفسه لهذا الإحتمال إعدادًا تامًا. كانت هيئته على عادتها، هيئة ذئب جائع، موارب النظرة متأهب في كل لحظة للانقضاض على أول قادم وافتراسه. قال بطلنا لنفسه: «لا شك أنه ألقي عليهم اليوم جميعًا سحر، لا شك أن جنيًّا قد مرّ من هنا. نعم هذا أكيد لا شك أنهم جميعًا قد وقع لهم شيء خاص اليوم. لعنهم الله!... يا للورطة!... تلك كانت أفكار السيد جوليادكين وخواطر لحظة كان يُدخِل ضيفه إلى الغرفة، ويدعوه إلى الجلوس ملاطفًا. كان يبدو على صاحبه أنه مرتبك ارتباكًا شديدًا، وَجِلٌ وجَلًا واضحًا، فهو يحاول أن يختطف نظرات السيد جوليادكين عسى أن يقرأ فيها ما يجول في ذهنه. كانت حركاته وإشارته تنبئ عن الحيرة والخشية والمذلّة. وكان مظهره في تلك اللحظة مظهر رجل ارتدى ثياب غيره لأنه لا يملك ثيابًا لنفسه (وليغفر لنا هذا التشبيه)، فأكمامه قصيرة حتى لتكاد تصل إلى كوعيه، وهو يحاول في كل لحظة أن يعدل صديرته المسرفة في القصر، ثم هو تارة يدور في مكانه وكأنه يحاول أن يختفي، وتارة يتفحّص نظرات من يحيطون به ويصيخ بسمعه ويحاول أن يلتقط أحاديثهم ليعرف هل هم يتحدّثون عنه، وهل هم يضحكون منه... صفوة القول إن الرجل كان على نارٍ، فهو يحمرّ، ويفقد سيطرته على نفسه، ويقاسي من مذلة كبريائه مقاساة رهيبة.

وضع السيد جوليادكين قبّعته على حافة النافذة، فأسقطتها حركة مفاجأة، فهرع الضيف يلتقطها، وأخذ ينفض عنها الغبار، ثم أعادها إلى موضعها، تاركًا قبعته هو على الأرض، قرَّب الكرسي الذي جلس على طرفه خجلاً وجلاً. إن هذا الحادث الصغير قد أزال الغشاوة عن عينيّ السيد جوليادكين، فأدرك أن الرجل خاضع لمشيئته، فلا حاجة به إلى أن يكلف نفسه عناء، لا حاجة به إلى أن يبحث عن موضوع حديث، وإنما يترك الأمر للضيف أن يحمل تبعته.

وكان الضيف من جهته لا يجرؤ أن يشرع في شيء، فهو ينتظر أن يقوم رب البيت بالمبادرة الأولى. ترى أكان هذا خَجَلًا، أم خَفَرًا، أم أدبًا؟ إنه لمن الصعب أن نجيب عن هذا السؤال إجابة قاطعة. وفي أثناء ذلك عاد بتروشكا. إنه الآن واقف على العتبة متّجه ببصره إلى عكس الجهة التي كان فيها مولاه والضيف، وها هو يسأل بصوت أبحّ ولهجة مهملة: «هل عليَّ أن آمر بعشاءين؟». وهذا جوليادكين يدمدم متردّدا: «أنا... أنا... لا أدري... نعم يا صديقي نعم، مُرْ لنا بعشاءين».

غاب بتروشكا، وتصفح السيد جوليادكين وجه ضيفه خفية. فاحمرَّ وجه الضيف حتى الأذنين. إن السيد جوليادكين رجل طيب. لذلك سرعان ما انتهى بفضل طيبة قلبه إلى هذه النتيجة: «مسكين هذا الرجل. لقد تسلَّم وظيفة في هذا الصباح، وكان قبل ذلك يعيش حياة قاسية من غير شك. ولعل كل ما يملكه هو هذا الرداء الذي يستتر به جسمه. أتراه يملك ما يدفعه ثمن وجبة طعام؟ مسكين هذا الرجل! إن وجهه متعبٌ منهار، يدل على المذلّة. ولكن لا ضير... فلربما كان هذا أفضل...».

قال يخاطب صاحبه

- اسمح لي. هل يمكنني أن أعرف اسمك؟

- يا... يا... ياكوف بتروفتش.

كذلك تمتم الضيف يقول وقد لاح على وجهه الإضطراب والخجل، حتى لكأنه يهم أن يعتذر عن كونه يحمل اسم السيد جوليادكين نفسه.

فردد بطلنا، وهو عاجز عن السيطرة على اضطرابه، يقول بنبرة ساخرة:

- ياكوف بتروفتش؟

فأجاب الضيف المطيع بهدوء:

- نعم، هذا هو اسمي. أنا سمِيّك.

وهمّ الضيف أن يرسم على شفتيه ابتسامة، وأن يجازف بقول كلمة طيبة، ولكنه لم يلبث أن توقّف عن ذلك، مصطنعًا هيئة الجد، مرتبكًا بعض الارتباك، حين لاحظ أن محدّثه لا يرغب في شيء من المزاح في هذه اللحظة.

قال السيد جوليادكين:

- هل لي أن أعرف السبب الذي شرّفني بـ...

فبادر الضيف يقاطعه بصوت خجول وهو ينهض قليلًا عن كرسيه:

- إنني وقد عرفت عظمة نفسك، وكرم روحك قد أذنت لنفسي أن أتجه إليك... ملتمسًا صداقتك... وحمايتك.

هكذا ختم الضيف عبارته، وكان واضحًا أنه مرتبك لا يعرف كيف يعثر على الكلمات المناسبة التي لا تكون مسرفة في التملّق والتزلّف، ولا تكون مسرفة في إذلال كرامته، ولا تكون كذلك مفرطة في رفع الكلفة بحيث تعبّر عن تكافؤ فى غير محلّه. كان مثله في التصرف كمثل شحّاذ يرتدي رداءً رسميًا مرقّعًا ويحمل في جيبه وثائق مشرفة، ولكنه لما يتسع وقته بعد لمدّ اليد في طلب الصدقة.

أجابه السيد جوليادكين وهو ينقّل بصره بين ضيفه وجدران غرفته ونفسه:

- إنك تحرجني... فكيف أسـ... أقصد فيم أستطيع أن أنفعك؟

- لقد شعرت يا ياكوف بتروفتش بانجذاب نحوك منذ رأيتك أول مرة. فليكن كرمك شفيعي عندك فتغفر لي.. نعم، لقد عقدت بعض الآمال... لقد تجرّأت فأملت يا ياكوف بتروفتش... أنا رجل نزح عن وطنه يا ياكوف بتروفتش، رجل فقير قاسى كثيرًا يا ياكوف بتروفتش.... وأنا هنا غريب. ولقد عرفت أنك تحمل عدا المزايا الكبيرة التي فُطِرَت عليها نفسك العظيمة، نفس الاسم الذي أحمله أنا....

قطّب السيد جوليادكين حاجبيه. وأضاف الضيف يقول:

- لقد علمت أنك سميّي، وأنك من نفس الإقليم الذي أنا منه. لذلك قرّرت أن أتجه إليك أعرض عليك وضعي المُربك.

فأجابه السيد جوليادكين بصوت مضطرب:

- طيب طيب. ولكنني لا أدري حقًّا ماذا أقول لك... سنتحدّث في هذا كله بعد تناول الطعام...

انحنى الضيف ممتثلًا. وكان الطعام قد حضر. فقد وضع بتروشكا المائدة. وراح الرجلان يأكلان كمن يقوم بواجب من الواجبات المفروضة. لم يدم تناول الطعام طويلًا. كانا كلاهما متعجِّلَيْن. كان السيد جوليادكين غير مرتاح. إنه خجل من هذه الوجبة الفقيرة التي يقدّمها لضيفه، خجل من ناحتين: الأولى أنه كان يود لو يولم له وليمة لائقة، والثانية أنه كان يحب أن يظهر له أنه لا يعيش حياة شحّاذ.

وكان صاحبه غير مرتاح كذلك، فكان يبدو خجلًا إلى أبعد حدود الخجل. إنه بعد أن تناول وأكل قطعة من الخبز لم يجرؤ أن يمد يده لتناول قطعة أخرى، وكان متحرَّجا كذلك من تناول قطعة كبيرة، وكان يردّد في كل لحظة أنه ليس بجائع قط، وأن الطعام فاخر، وأنه راضٍ كل الرضى، وأنه سيظل شاكرًا مدى الحياة. فلما انتهى الطعام أشعل السيد جوليادكين غليونه، واقترح على ضيفه إشعال غليون كان يحتفظ به للأصدقاء خاصّة. جلس الرجلان أحدهما أمام الآخر، وأخذ الضيف يروي مغامراته.

دام كلام جوليادكين الثاني ثلاث ساعات أو أربعًا. والحق أن ما رواه لم يكن سلسلة من حوادث تافهة عادية. تحدّث عن عمله في إدارة حكومية بالأقاليم، وعن قضاة تحقيق، وعن رؤساء محاكم، وعن مكائد مألوفة في دوائر الدولة. وتحدّث كذلك عن فساد أحد الموظفين المرتشين، وعن وصول مفتش من المفتشين، وعن تغيير رئيس الإدارة، وعما أصابه هو من مصائب لا يستحقها. وأشار أيضًا إلى العمة العجوز بيلاجيا سيمونوفنا، ثم أفاض في الكلام تفصيلًا على المتاعب التي وقعت له: ضياع وظيفته على أثر مكائد دبرها له أعداؤه، مجيئه إلى سان بطرسبرج سيرًا علىالقدمين، الشدائد والمكاره التي عاناها، صنوف البؤس وألوان الشقاء التي قاسى منها في العاصمة، مساعيه الطويلة العقيمة في البحث عن وظيفة. لقد أنفق آخر قرش مما كان قد ادَّخره، حتى أصبح مضطرًا أن يعيش في الشارع فعلًا، يأكل خبزًا يابسًا مبللًا بدموعه، وينام على الأرض. ومن حسن حظه أن وجد رجلًا محسنًا عنيَ بأمره، وأوصى به خيرًا، فاستطاع أن يحصل على هذه الوظيفة آخر

الأمر. وكان أثناء كلامه يبكي ويجفف دموعه بمنديل أزرق مخطط يمكن أن يحسبه الناظر قماشًا مشمَّعًا. وفي الختام فتح قلبه تمامًا للسيد جوليادكين، فاعترف له بأنه لا يملك الآن أي مورد أجل أن يعيش ويسكن، ولا من أجل أن يكتسي. حتى إنه لم يستطع أن يجمع مبلغًا يكفيه لشراء حذاءين. أما الرداء الرسمي الذي يرتديه فقد استأجره لبضعة أيام.

تأثّر السيد جوليادكين تأثرًا شديدًا من سماع هذه القصة، ورقَّ قلبه لصاحبه وأشفق عليه إشفاقًا عميقًا، صحيح أن قصة الرجل كانت من القصص العادية المألوفة إلى أبعد حدٍّ، غير أن كل كلمة من كلماته قد استقبلها قلب السيد جوليادكين كأنها كلام الله، كأنها القربان المقدّس.

لقد تبدّدت جميع الشكوك التي غزت نفسه في الساعات الأخيرة. فقلبه الآن حر طليق يفيض فرحًا. حتى لقد اعتبر السيد جوليادكين نفسه غبيًا. فلم يكن هناك ما يوجب أن يعذب نفسه، وأن يخاف ذلك الخوف كلّه. لقد كان خوفه من دون سبب يستوجب كل ما أقلقه. صحيح أن في الأمر نقطة شائكة... هي هذا التشابه... ولكن لماذا يعد هذا التشابه كارثة. ليس الإنسان مسؤولاً عما تفعله الطبيعة. وليس في هذا التشابه ما يحطّم حياة إنسان، أو ما يلطّخ شرف، أو ما يعيب سمعة إنسان. زد على ذلك أن ضيفه يلتمس منه الحماية. وهو يبكي ويندب ويشكو مصيره، ولا يبدو مؤذيًا، بل هو رجل مسكين تافه مبرَّأٌ من الكره والمكر. وكان يبدو هو نفسه خجلاً من هذا التشابه الخارق، ولو لأسباب قد تكون مختلفة. ليس في وضعه ما يمكن أن يؤخذ عليه. فهو لا يطلب سوى أن ينال رضى صاحب البيت. إن له نظرة إنسان يعذّبه ضميره، إنسان يحس بأنه أثم في حق غيره.

كان أثناء الحديث يعود فيوافق السيد جوليادكين على رأيه، متى دار الكلام على موضوع يمكن أن ينير خلافًا في الرأي. فإذا اتفق له، عن سهو أو غفلة، أن وجد نفسه يناقض مخاطبه، لم يلبث أن تدارك خطأه وصحح رأيه، واندفع في شروح جديدة، مؤكدًا أن رأيه يتفق ورأي السيد جوليادكين من جميع النواحي وفي جميع النقاط، وأنه يفكّر كما يفكر السيد جوليادكين تمامًا، وأنه ينظر إلى الأمور نظرته إليها. لقد كان يفعل كل ما يستطيع أن يفعله من أجل أن يكون على وفاق مع السيد جوليادكين. وقد خلص السيد جوليادكين من هذا كله إلى أن الرجل لطيف، قريب إلى القلب من جميع الوجوه. وفي أثناء ذلك جيء بالشاي. وكانت الساعة قد تجاوزت الثامنة. فكان السيد جوليادكين يشعر بارتياح كبير، وقد طابت نفسه وأشرق مزاجه.

إنه الآن منتعش يفيض قلبه حماسة، فلم يلبث أن أخذ يسترسل مع صاحبه في حديث حارّ متدفّق. إن من عادة السيد جوليادكين حين يطيب يومه أن يحب الكلام كثيرًا على الأمور الشائعة. فكذلك كان في هذا المساء: تحدّث عن العاصمة، وعن ألوان الجمال التي تتمتّع بها، وعن ضروب التسليات التي تحفل بها، وعن النوادي، وعن آخر لوحة رسمتها ريشة برولوف. وروى قصة ذينك الإنجليزيين اللذين جاءا من لندن إلى سان بطرسبرج خصيصًا من أجل أن يعجبا بجمال سور حديقة الصيف، ثم لم يلبثا أن غادرا سان بطرسبرج بعدئذ على الفور. وتحدث بعدها عن عمله في

الدائرة، وعن أولسوفي إيفانوفتش، وعن آندره فيليوفتش، ثم أعلن أنه يرى أن روسيا تسير في طريق التقدم من ساعة إلى ساعة، واستشهد في هذا الصدد بهذا البيت من الشعر.

في كل يوم تزهر الآداب..

وذكر كذلك واقعة أخرى كان قد قرأها أخيرًا في جريدة «نحلة الشمال». وتكلّم عن أفعى من أفاعي البيتون بالهند تملك قوة خارقة، وتكلم عن البارون برابيئوس، إلخ... الخلاصة أن السيد جوليادكين كان راضيًا كل الرضى في ذلك المساء، أولاً لأنه كان ينعم بهدوء كامل وطمأنينة تامة وثانيًا لأنه أصبح لا يخشى أعداءه، حتى لقد أصبح يحسّ بأنه متأهب لأن يواجههم في معركة حاسمة. وأخيرًا لأنه كان هو نفسه في ذلك المساء في موقف الحامي والمُحسن.

ومع ذلك كان يحس في قرارة نفسه بأن هذه السعادة ليست كاملة تمامًا في تلك اللحظة، كان يحسّ بوجود سوس ينخر فيها، سوس صغير طبعًا ولكنه نشيط. وكان هذا السوس يأكل قلبه في تلك اللحظة. كانت ذكرى السهرة التى انقضت في الليلة البارحة عند أولسوفي إيفانوفتش تعذّبه. لقد كان مستعدًا لأن يضحّي بأشياء كثيرة في سبيل ألا تقع بعض الحوادث التي وقعت في تلك السهرة، قال لنفسه أخيرًا وقد عزم عزمًا قاطعًا على أن يسلك في المستقبل سلوكًا لا مأخذ عليه، وأن يتحاشى ارتكاب أخطاء كتلك الأخطاء: «ليس الأمر خطيرًا على كل حال...) وإذ شعر بتحسّن حالته النفسية حتى ليشبه أن يكون سعيدًا، أحب السيد جوليادكين أن يتمتّع بالحياة قليلًا. وجاءه بتروشكا بزجاجة من خمر الروم، فصبّ منها كأسين. وأفرغ الرجلان في جوفيهما منها كأسًا، ثم كأسًا أخرى. وقد ازداد الضيف تلطفًا وتودُّدا، حتى لقد برهن غير مرة على انطلاق سجيته وسعادة مزاجه، وشارك السيد جوليادكين انشراحه ومرحه، بدا عليه أنه شديد الابتهاج بفرح جوليادكين، وأنه يعدّه صديقه الوحيد الحق.

وتناول قلمًا وورقة على حين فجأة، وأخذ يكتب طالبًا إلى السيد جوليادكين ألا ينظر إليه، حتى إذا فرغ من الكتابة مدّ إلى صديقه ما أنجبته قريحته. وكانت رباعية عاطفية بعض الشيء، ولكنها رائعة من ناحية الشكل والخط. وقد نظمها الصاحب اللطيف بنفسه طبعًا، وهذه هي:

وهبكَ نسيت عهد الود

لن أنسى لك الودا

صروف الدهر ألوان

ولكن لا تخُنْ عهدا

فعانق السيد جوليادكين ضيفه والدموع في عينيه من فرط التأثّر، وأخذ يفضي إلى صديقه الجديد بأخفى أسراره، فأشار مرارًا إلى آندره فيليبوفتش وإلى كلارا أولسوفييفنا، وما فتئ يكرر له قوله: آه... لسوف ترى يا ياكوف بتروفتش... سوف نتفاهم أحسن تفاهم أنا وأنت. سوف نعيش كما يعيش أخوان حقًّا... كالأسماك في

الماء... وسنمكر، يا أخي سنمكر. سنكيد لهم، نعم سندير لهم مكيدة على طريقتنا... وإياك خاصة أن تثق بهم، أو أن تطمئن إليهم، أو أن تُسِرَّ لهم بشيء. أنا أعرفك يا ياكوف بتروفتش... أنا أعرف طبعك... قد لا تتورَّع عن أن تقصّ عليهم كل شيء، لأنك إنسان حساس النفس، مستقيم الخلق. فاجعلهم دائمًا على مسافة منك يا أخي... وافق الضيف السيد جوليادكين موافقة تامة، وأجزل له الشكر حارًّا، حتى لقد ذرف بضع عبرات. وأردف بطلنا يقول بصوت مرتجف ضعيف: «اسمع يا ياشا، اسمع، تعال فاسكن معي إلى حين أو إلى الأبد. سنسعد بالسكنى معًا. ما رأيكِ أيها الأخ؟ ثم لا تعبأ بهذا التشابه بيننا، لا تحفل بهذه المصادفة الغريبة! لا تعذّب نفسك بهذا الأمر، ولا تثُر عليه! إنها الطبيعة... والتمرّد كفر. إن أمنا الطبيعة سخية كريمة، فافهم هذا حق الفهم يا ياشا. أقول لك ذلك عنِ حب، عن حب أخوي. سوف يكيدون لنا يا ياشا. ولكننا سنعرف كيف نمد لهم الشِّباك، وكيف نوقعهم في الفخ... سوف ترى...».

وكان الرجلان قد وصلا في الشراب إلى الكأس الرابعة. وكان يسيطر على السيد جوليادكين شعوران: فأما الأول فهو أنه لا يستطيع الوقوف على قدميه، وأما الثاني فهو سعادة ليس لها حدود.

وكان طبيعيًا أن يدعو صاحبه إلى المبيت في مسكنه. وكذلك فعل. وأمكن إعداد سرير للضيف يضم صفَّين من الكراسي كيفما اتفق. وقال السيد جوليادكين الجديد أن المرء ليحلو له أن يبيت عند صديق ولو افترش الأرض، وأنه مستعد لأن ينام في أي ركن شاكرًا ممتنًا. وأضاف يقول إنه يشعر الآن أنه في الجنة، بعد سلسلة طويلة من المكاره والمصائب والآلام. آه ما أكثر ما رأى وما قاسى! ولعل المستقبل لا يزال يخبئ له آلامًا أخرى أيضًا! فرأى جوليادكين الأكبر أن يحتج على هذه المزاعم احتجاجًا قويًا، يدعو وأن يبرهن لصاحبه على ضرورة الإيمان بعدالة الله... فأمّن صاحبه على قوله مطنبًا مسهبًا في القول، وأعلن هو أيضًا أن عدالة الله لا نظير لها... وبهذه المناسبة، استشهد جوليادكين الأكبر بالأتراك، قائلًا إنهم على حق حين يبتهلون إلى الله حتى أثناء النوم.

وخالف بطلنا آراء كثيرين من العلماء الذين يتنكّرون للنبي «التركي (2)» محمد، فقال إنه يعدّه رجلًا عظيمًا. ولم يلبث السيد جوليادكين أن انتقل من الكلام على الأتراك إلى الكلام عن «صالون» جزائري من صالونات الحلاقة، فوصفه وصفًا حيًّا جميلًا كان قد قرأه في أحد الكتب. ثم ضحك الرجلان طويلًا من سذاجة الأتراك، ولكنهما لم ينسيا أن يشيدا بتعصبهم الذي يزيده الأفيون قوّة وحرارة. وأخذ الضيف يخلع ملابسه. فانسحب السيد جوليادكين إلى ما وراء الحاجز. فهو يخشى أولًا ألا يكون قميص ضيفه لائقًا، فمن المستحسن أن يغيب حتى لا يشعر صاحبه بشيء من المذلة، وهو يريد ثانيًا أن يتأكد من وضع بتروشكا، أن يراقبه قليلًا، وأن يبث في نفسه شيئًا من الفرح إذا أمكن ذلك، وأن يلاطفه بعض الملاطفة. كان السيد جوليادكين يرغب رغبة قوية في أن يسود السلم، وأن تسود السعادة، في بيته هذا المساء. ولنلاحظ أيضًا أن بتروشكا كان يتمتع دائمًا بالقدرة على جعل السيد جوليادكين قلقًا غير مرتاح.

قال بطلنا بصوت عذب رخيم وهو يدخل الحجرة المخصّصة لخادمه:

- عليك أن تنام الآن يا بطرس. ارقد الآن وأيقظني غدًا في الساعة الثامنة. هل فهمت يا بتروشكا؟

كان في لهجة السيد جوليادكين عذوبة قصوى ورقّة عظمى، ولكن بتروشكا ظل أخرس لا يتكلم، وظل يتحرك مشغولًا حول سريره، ولم يتنازل حتى أن يلتفت نحو مولاه، وذلك أيسر مظهر من مظاهر الاحترام.

تابع السيد جوليادكين يقول:

- هل سمعتني يا بتروشكا؟ ارقد الآن يا بتروشكا، وفي الغد صباحًا، أيقظني في الساعة الثامنة. هل فهمت؟

فدمدم بتروشكا يقول متململًا:

- فهمت فهمت. هل هذا سحر يصعب فهمه؟

- حسنًا، حسنًا يا بتروشكا. أنا ما قلت لك هذا كله إلا من أجل راحتك وسعادتك. نحن الآن سعداء. وقد أردت أن تكون أنت أيضًا سعيدًا. أنا الآن أتمنّى لك ليلة طيبة. نم جيدًا يا بتروشكا، ثم جيدًا، العمل مقسوم علينا جميعًا... وإياك خاصة يا عزيزي أن ينصرف ذهنك إلى تخيّل أشياء. قال السيد جوليادكين ذلك ثم توقف في منتصف جملة سائلًا نفسه: «ترى ألم أسرف في القول؟ ألم أبالغ؟ أنا دائمًا هكذا... أتجاوز الحدود». ثم انصرف تاركًا حجرة بتروشكا، مستاءً من نفسه بعض الاستياء. ثم إنه كان عدا ذلك منزعجًا من فظاظة خادمه وانغلاقه. قال لنفسه: «يا للوغد الحقير!... يشرّفه مولاه بمخاطبته متلطّفا هذا التلطف، ثم هو لا يحسّ بذلك ولا يشعر به... على أن هذه سجية عامة في جميع هؤلاء الخدم...». وعاد السيد جوليادكين إلى غرفته وهو يترنّح قليلًا، فلما رأى ضيفه مضطجعًا جلس لحظة بقربه.

بدأ يقول بصوت خافت وهو يرجّح رأسه:

- اعترف يا ياشا، اعترف بأنك مذنب في حقّي أيها الخبيث، أأنت... يا سميّي... أأنت... لكن لا داعي إلى الكلام!

قال ذلك بلهجة مرحة ليس فيها كلفة، ثم مضى إلى غرفته بعد أن تمنى لصاحبه ليلة هانئة بكثير من المودّة والصداقة. ولم يلبث أن اضطجع أيضًا، مبتسمًا يخاطب نفسه: «أنت اليوم سكران يا عزيزي ياكوف بتروفتش، أنت سكران أيها اللئيم... آه منك أيها الوغد يا جوليادكين... نعم ذلك هو الاسم الذي تستحقه... أنت الليلة فرحان... ولكن لماذا؟ لسوف تسكب في غد دموعًا أيها البكاء... لا أمل فيك!

وأحس بطلنا في هذه اللحظة بشعور غريب، وأخذه مزيج من الندم هو والشك. قال لنفسه: «أتراني أسرفت في الحماسة! أنا الآن سكران. إن في رأسي دوارًا... آه... لم أعرف كيف أضبط نفسي... إن أنا إلا أبله... ولا شك أنني قلت سخافات كثيرة... كبيرة كجبل... يا لي من شخص تافه... صحيح أن الغفران ونسيان الإساءة هما من الفضائل الحميدة... ولكن هذا لا ينفي أنني أخطأت. ذلك واضح وضوح ماء

الصخر». قال السيد جوليادكين ذلك ثم نهض فتناول شمعة واتجه نحو سرير ضيفه سائرًا على رؤوس الأصابع. كان يريد أن يلقي نظرة أخيرة على وجهه. فظل مائلًا عليه مدة طويلة يتفرّس فيه غارقًا في تأمّل عميق. ودمدم يقول لنفسه أخيرًا: «منظر لا يُسِرّ.. محاكاة مضحكة، محاكاة مضحكة لا أكثر ولا أقل...».

وعاد السيد جوليادكين إلى سريره فرقد هذه المرة رغم كل شيء. وما لبث رأسه أن أصبح ملعب صخب حقيقي: إن أنواعًا من قرقعة، ورنين، وصرير تغزو دماغه. وفقد شعوره بالأشياء قليلًا قليلًا... أراد أن يسترد وعيه، أراد أن يثبت فكره على نقطة بعينها، أراد أن يتذكّر أمرًا يتعلّق بمسألة ذات شأن مهم وخطير، مسألة حرجة دقيقة... ولكنه لم يظفر بذلك لقد استولى الكرى على رأسه المسكين فنام... نام كما ينام رجل لم يألف الشراب، ثم شاءت له المصادفة في ليلة صداقة أن يفرغ في جوفه خمس كؤوس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الثامن

في الغداة، استيقظ السيد جوليادكين عند الساعة الثامنة على عادته. فلم تلبث حوادث ليلة البارحة أن عادت إلى ذهنه. اصفر وجهه، وقال لنفسه وهو ينهض عن سريره وينظر نحو ضيفه: «لقد تصرفت أمس تصرفًا أحمق...». ولكن ما كان أشد دهشته حين لاحظ أن ضيفه والسرير الذي لا بد أن ضيفه كان نائمًا عليه قد تبخّرا! فلم يكد يستطيع أن يمتنع عن إطلاق صرخة تعجّب! قال لنفسه: «ما هذا؟ ما معنى هذه الظاهرة الجديدة؟» كان بطلنا يتأمّل المكان الخالي مشدوه العقل فاغر الفم. صرّ الباب، وظهر بتروشكا حاملًا صينية الشاي. تمتم بطلنا بصوت لا يكاد يُسمع وهو يشير بإصبعه إلى المكان الذي كان يحتله بالأمس سرير صاحبه: «أين هو؟ أين هو إذا؟». فلم يجب بتروشكا في أول الأمر بشيء، حتى إنه لم يتنازل ويرفع عينيه إلى مولاه، وإنما اتجه ببصره إلى ركن من الغرفة على يمينه، فلم يسع السيد جوليادكين إلا أن يحدق ببصره إلى ذلك الركن هو أيضًا وأخيرًا بعد صمت طويل، أجاب بتروشكا يقول بصوت أجش فظّ: «مولاي ليس في البيت» قال جوليادكين بصوت لاهث وهو يلتهم خادمه بنظرته إلتهامًا:

- أنا مولاك يا غبي!

فلم يجب بتروشكا، ولكنه ألقى على مولاه نظرة لم يملك مولاء إزاءها إلا أن يحمرَّ احمرارًا شديدًا حتى الأذنين. كانت نظرته مثقلة باستياء جارح يعدل إهانة مباشرة، وسقطت ذراعا السيد جوليادكين، على حد التعبير الرائج. وأخبره بتروشكا أخيرًا أن الثاني قد انصرف منذ ساعة، وأنه لم يشأ أن ينتظر. بدا قول بتروشكا جائزًا ومعقولًا، فلا داعي إلى الشك في صدقه. أما نظرته المهينة، واستعماله تعبير «الثاني» فهما من النتائج المحتومة لهذه المصادفة العجيبة، لهذا التشابه المذهل.

أدرك السيد جوليادكين، ولو في غموض وإبهام، أن الأمور لن تقف عند هذا الحد، وأن القَدَرَ لا يزال يدّخر له مفاجآت لن تكون سارّة.

قال لنفسه: طيّب، طيّب. سوف ترى. سوف نرى كل شيء في حينه، فنعرف أين نحن وماذا يجب أن نفعل... ثم أردف يدمدم بصوت مختلف كل الاختلاف، بصوت متأوّه هو إلى الأنين أقرب: «آه يا رب! لماذا دعوته؟ لماذا أنا هكذا؟ لأي هدف فعلت هذا كله؟ ألا إنني لأدس رأسي في الشوطة التي هيأها لي هؤلاء المجرمون قطّاع الطرق. نعم، إنني أعقد الحبل على عنقي بنفسي،آه مني، آه من عقلي، عقل المجانين! إنك يا جوليادكين لا تستطيع أن تقاوم شهوة ارتكاب الخطأ، لا تستطيع أن تقاوم الرغبة في أن تكذب كتلميذ، ككاتب في الدواوين، كقندلفت تافه.. إن أنت إلا خرقة رخوة عفنة... إن أنت إلا ثرثار... إن أنت إلا امرأة مهذار.... ذلك أنت... آه يا رب! ولقد نظم الوغد أشعارًا أيضًا!... أعرب لي عن صداقته. سأعرف كيف أريه الباب إذا تجاسر أن يعود. سأقول له مثلًا: أنظر يا صاحبي... إن مرتبي ضئيل... أو لعلني أستطيع أن أخيفه إذا قلت له: لما كانت حالتي العامة على ما ترى فيجب أن أذكر لك أنك لا بد أن تدفع نصف أجر المسكن ونصف نفقات الطعام... وأن تدفع

المبلغ مقدّمًا. آه... لا... يا للفكرة السخيفة! لا... هذا مستحيل... هذا يسيء إلى سمعتي، هذه فظاظة... لعلّي أستطيع أن أحاول إيجاد وسيلة أخرى.. أن أوحي إلى بتروشكا مثلًا بأن يكون وقحًا في معاملته بألا يظهر له شيئًا من الاحترام، وأن يندفع غاضبًا في وجهه على نحو من الأنحاء بفظاظة... نعم يمكن طرده بهذه الطريقة. هذا ما يجب أن يُعمل. ولكن ألدعهما يصطرعان هما الاثنين؟... لا... ليس هذا باللائق أيضًا... ليس هذا باللائق أبدًا... ليس هذا بالخير... وإذا لم يعُد؟ لن يكون هذا خيرًا كذلك.

آه... لقد أسرفت في الحديث معه أمس... الأمور لا تجري كما يجب أن تجري... إنها تجري مجرًى سيئًا. ما أخفَّ عقلي! ما أشدّ حماقتي! إنني عاجز عن تحقيق شيء من الترتيب في أفكاري... عاجز عن تحقيق شيء من النظام في رأسي المسكين... وماذا إذا عاد ورفض ما عرضته عليه؟ آه... ليته يعود... لسوف يسرني كثيرًا أن يعود...».

كان السيد جوليادكين غارقًا في هذه الخواطر وهو يبتلع الشاي ويراقب ساعة الحائط في الوقت نفسه.

«هي الساعة التاسعة إلا ربعًا الآن. آن لي أن أذهب. ما الذي سيقع لي؟ ما الذي سيقع لي؟ وددت لو أعرف ماذا يُحاك لي الآن من المكائد! ما هي خطتهم؟ ما هي نياتهم؟ ما هي وسائل عملهم؟ نعم يحسن أن يعرف المرء على وجه الدقة إلى أين يريد أن يصل هؤلاء السادة من ذلك كله، وما هي الخطوات الأولى التي سيقومون بها!...».

نفد صبر السيد جوليادكين. فها هو ذا يرمي غليونه الذي لا يزال مملوءًا إلى النصف، ثم أسرع يرتدي ثيابه، ويهرع إلى مكتبه راكضًا، يريد أن يجتنب ما يمكن اجتنابه. أو يريد على كل حال أن يتحقّق بنفسه مما سيجري. الخطر قائم لا محالة، وهو لا يجهل ذلك.

«هيا، هيا، سننفذ إلى السر حالًا، سنوضح الأمر كلّه قريبًا، كذلك كان يردد السيد جوليادكين في الدهليز وهو ينضو معطفه ويخلع جرموقَيْه. لقد قرر بطلنا أن يباشر العمل، فها هو ذا يعدل ثيابه ويصطنع وضعًا لائقًا مهيبًا. وفيما هو يهم أن يدخل المكتب، إذا به يجد نفسه، عند عتبة الباب، أمام صاحب الليلة البارحة، صديقه الجديد، وجهًا لوجه، أنفًا لأنف. بدا على السيد جوليادكين الأصغر أنه لا يتعرف السيد جوليادكين الأكبر، رغم أنهما متقابلان. كان الموظف الجديد مشغول البال جدًا، على عجلة من أمره، نافد الصبر، يكفي أن يرى المرء وجهه حتى يقول لنفسه على الفور: لا شك أن الرجل مكلَّف بمهمة خاصة...».

قال بطلنا، وهو يتشبّث بيد ضيف الليلة البارحة:

- ها... هذا أنت يا ياكوف بتروفتش!

فصاح السيد جوليادكين الأصغر يقول متملِّصا:

- بعد قليل، بعد قليل، معذرة، ستقول لي هذا كلّه في ما بعد.

- اسمح لي مع ذلك يا ياكوف بتروفتش. يخيل إليَّ يا ياكوف بتروفتش أنك تنوي أن...

- ماذا تريد أن تقول؟ أسرع في ذكر ما تريد...

لقد توقّف ضيف السيد جوليادكين وهو ظاهر الانزعاج والتململ والتبرم. وجعل أذنه عند أنف محدّثه.

- يجب أن أعترف لك يا ياكوف بتروفتش بأنني مستغرب أن تستقبلني هذا الإستقبال... لقد كان من حقي أن أتوقّع منك موقفًا غير هذا الموقف...

- لكل طلب أصول معينة لا بد من التقيد بها. فاذهب إلى سكرتير صاحب السعادة ثم قدِّم عريضة مستوفية الشروط إلى السيد مدير مكتبه. إن لك طلبًا، أليس كذلك؟

- لست أفهمك يا ياكوف بتروفتش. إنك تذهلني. ألست تعرفني؟ أم إن ذلك مزاحٌ يتفق ومزاجك المرح.

قال السيد جوليادكين الأصغر وكأنه لم يتعرّف بالسيد جوليادكين الأكبر إلا في هذه اللحظة:

- آها... هذا أنت؟ هذا أنت؟... قل لي: هل نمت نومًا طيبًا؟

قال الموظف الجديد ذلك ثم حرّك شفتيه بابتسامة رسمية مؤدّبة، ولكنها ابتسامة لا محلَّ لها في الظروف الراهنة ما دام مدينًا للسيد جوليادكين بالفضل، حتى هذه اللحظة في أقل تقدير. وشفع ابتسامته الرسمية المهذبة بكلمة قصيرة أعلن فيها لمخاطبه أنه يسرّه أن يعرف أنه نام نومًا طيبًا، ولم يلبث أن انحنى انحناءة خفيفة، وتحرّك في مكانه، ونظر مرة إلى يمين ومرة إلى شمال، ثم خفض عينيه، وحدَّق إلى باب قريب وتمتم يقول إنه مكلف بمهمة خاصة مستعجلة جدًا. وهرع يدخل إلى الغرفة المجاورة سريعًا كومض البرق.

قال السيد جوليادكين بصوت بهيم وقد صُقع لحظة: «قصة عجيبة... قصة عجيبة حقًا.. أهذا هو الأمر إذًا؟» وهنا شعر السيد جوليادكين برعدات تجتاح جسمه كلّه. تابع يناجي نفسه، وهو يتجه نحو مكتبه: «لقد أوجست هذا كله منذ زمن طويل... إنه مكلف هنا بمهمة خاصة... هذه هي المسألة. أمس، لا أكثر، قلت إن هذا الرجل موجود هنا للقيام بمهمة خاصة عهد بها إليه أحدهم.

- هل أنهيت نسخ نص الأمس يا ياكوف بتروفتش؟ أهو معك الآن؟

كذلك سأله أنطون أنطونوفتش بينما كان السيد جوليادكين يجلس على كرسيّه.

فأجابه السيد جوليادكين مدمدمًا وهو يلقي على رئيسه نظرة فيها شيء من الذلّ:

- نعم هو معي!

- طيب... لقد سألتك عنه لأن آندره فيليبوفتش طلبه مرتين حتى الآن. وأحسب أنه لا بد أن يطلبه بعد قليل...

- النص جاهز على كل حال...

- طيب طيب... عظيم!

- أحسب يا أنطون أنطونوفتش أنني قمت بواجبي دائمًا بإخلاص، وأنني أنجزت دائمًا الأعمال التي يعهد بها إليَّ رؤسائي بحماسة ونشاط.

- أكيد.. هذا نعرفه ولكن ماذا تريد أن تقول بهذا؟

- أنا؟... لا شيء يا أنطون أنطونوفتش... وإنما أردت أن أشرح لك يا أنطون أنطونوفتش... أقصد... أردت أن أنبّهك إلى أن الشر والحسد، وهما الرذيلتان الساعيتان أبدًا في طلب رزقهما اليومي الكريه، لا يوفّران أحدًا...

- اعذرني... لست أفهم ماذا تريد تمامًا، وإلى من تشير في هذه اللحظة؟

- أريد أن أقول بهذا يا أنطون أنطونوفنش إنني في هذه الحياة قد اتّبعت الطريق القويم دائمًا، وإنني أكره الطرق الملتوية، وإنني لست بالشخص الذي يدبر المكائد... وذلك أمر أستطيع أن أعتز به، ويمكنني أن أبرهن عليه إذا أتَحْتَ لي الفرصة.

- نعم، هذا جائز، بل إنني إذا فكرت في الأمر مليًا أستطيع أن أوافقك على صدق ما تقول موافقة تامة كاملة. ولكن اسمح لي يا ياكوف بتروفتش أن ألفت نظرك إلى أن المجتمع الراقي لا يتسامح دائمًا في حق غمزات عنيفة تتناول شخصيات مرموقة. أنا من جهتي قد أغفر لأحد الناس أن يقول عني سوءًا من وراء ظهري، وما أكثر ما يقوله الناس من وراء الظهر!... أما أن يرمي أحد بوقاحات في وجهي، فذلك أمر لا يمكن أن أسمح به أبدًا أيها السيد! لقد شاب شعري في خدمة الدولة أيها السيد، ولست أسمح لأحد أن يهينني في هذه السن الوقور.

- ليس هذا ما أقصده يا أنطون أنطونوفتش... ليس هذا ما أقصد... يخيّل إليَّ يا أنطون أنطونوفتش أنك لم تفهم ما أردته حق الفهم... أنا من جهتي يا أنطون أنطونوفتش لا يمكن إلا أن أتصوّر أن من الشرف...

وقاطعه قائلًا:

- أرجو أن تعذرنا فنحن أيضًا. لقد نشأنا وتربّينا على الطراز القديم. وقد فات الأوان الآن، فلا نستطيع أن نتبنّى أساليبكم الجديدة. ويخيل إليَّ من جهة أخرى أننا قد أظهرنا قدرًا كافيًا من حُسن الفهم وسداد الرأي في خدمة الوطن. وأنت لا تجهل أيها السيد أنني أحمل وسامًا جزاء ما قّدمت من خدمات خلال خمسة وعشرين عامًا في العمل موظّفا في الدولة.

- أعرف هذا يا أنطون أنطونوفتش، وأنا من جهتي أشاركك شعورك مشاركة كاملة. ولكنني كنت أتكلّم عن شيء آخر... كنت أتكلم عن القناع يا أنطون أنطونوفتش...

- عن القناع؟

- أقصد... أخشى أن تفسر كلامي تفسيرًا خاطئًا مرة أخرى... إن معنى ما أقوله يتّفق وآراءك كل الاتفاق يا أنطون أنطونوفتش. أنا لا أزيد على أن أفصّل القول حول

الفكرة الرئيسة، إبرازًا لها، وهي أن لابسي الأقنعة قلة في زماننا هذا يا أنطون أنطونوفتش، حتى أصبح يصعب على المرء أن يتعرف الشخص وراء القناع...

- لا... ليس يصعب هذا كثيرًا، حتى لقد يكون في بعض الأحيان سهلًا سهولة كافية، فما يحتاج المرء إلى المضيّ بعيدًا.

- عفوك يا أنطون أنطونوفتش... إنني أتكلّم الآن عن حالتي الخاصة. فأنا مثلًا يا أنطون أنطونوفتش لا أضع على وجهي قناعًا إلا حين تقتضي الظروف ذلك... كأن أحضر عيد كرنفال... أو أن أحضر اجتماعات مفرحة من هذا القبيل... هذا بالمعنى الحقيقي لا المعنى المجازي طبعًا. أما في علاقاتي اليومية بالناس فأنا لا أضع على وجهي قناعًا قط، هذا بالمعنى المجازي، بالمعنى الرمزي، ذلك ما أردت أن أقوله لك يا أنطون أنطونوفتش.

- طيب طيب، ولكن دعنا من هذا كلّه الآن. ثم إن وقتي لا يتسع للمناقشة.

قال أنطون أنطونوفتش هذا وهو ينهض عن كرسيه ويجمع الأوراق اللازمة للتقرير الذي كان عليه أن يقدّمه لصاحب السعادة، ثم أردف:

- أما عن حالتك الخاصة، فسوف يتّضح لك الأمر قريبًا، فتعلم عندئذ من هو الذي يجب أن تحمّله التبعة، من هو الذي يجب أن تتهمه. وعلى هذا فأنا أرجوك ملحًّا أن تعفيني في المستقبل من الشروح الخاصة والثرثرات التي تسيء إلى العمل.

إصفرَّ السيد جوليادكين، وجمجم يقول:

- لا يا أنطون أنطونوفتش... لم يكن في نيتي...

ولكن رئيسه كان قد ابتعد. فلما صار السيد جوليادكين وحيدًا استمر يناجي نفسه في خياله سائلًا: «ما الذي يحدث هنا؟ ما هذه الرياح التي تهب الآن؟ ما معنى هذه الغمزة الجديدة؟»

أصبح صاحبنا أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، وراح يتأهّب لحل هذه المشكلة الجديدة. حين سمع ضجة تقوم في الغرفة المجاورة على حين فجأة. وفُتح الباب، وظهر آندره فيليبوفتش على العتبة نافد الصبر، وكان قد ذهب إلى مكتب صاحب السعادة قبل برهة قصيرة لبعض الأعمال. صاح آندره فيليبوفتش ينادي السيد جوليادكين. وإذا كان السيد جوليادكين يعرف الأمر سلفًا ولا يريد أن يضطر آندره فيليبوفتش إلى الإنتظار فقد هبّ واثبًا عن كرسيه، وأخذ يتحرك مسرعًا، فتناول الملف المطلوب منه، فنفض عنه الغبار مداريًا إيّاه مدللًا له. وفيما كان يتأهّب للسير وراء آندره فيليبوفتش إلى مكتب صاحب السعادة متأبطًا ملفه، إذا به حين صار قرب آندره فيليبوفتش الذي كان لا يزال واقفًا عند فتحة الباب، يتفاجأ بظهور السيد جوليادكين الأصغر بغتة. لقد تسلّل هذا إلى الغرفة تسلّلًا، وكان يبدو مشغول البال متقطع الأنفاس، غارقًا في الأعمال. وها هو ذا يصطنع هيئة وقورة رسمية، ويقبل قُدمًا نحو السيد جوليادكين الأكبر الذي كان على بعد مائة فرسخ من توقّع مثل هذا الهجوم.

- الأوراق يا ياكوف بتروفتش، الأوراق... لقد شرّفنا صاحب السعادة بسؤالنا عن أوراقك، هل هي جاهزة؟ إن آندره فيليبوفتش ينتظرك!

كذلك هذر بصوت خافت وسرعة كبيرة، الصديق الجديد للسيد جوليادكين. فأجابه السيد جوليادكين يدمدم بصوت خافت وسرعة كبيرة أيضًا:

- لست في حاجة إلى أن أعرف أنه ينتظرني.

- ليس هذا ما أردت أن أقوله يا ياكوف بتروفتش، لا، ليس هذا ما أردت أن أقوله، ليس هذا أبدًا. أنا معك يا ياكوف بتروفتش أنا معك بكل قلبي...

- أرجوك أن تعفيني من هذا... اسمح لي... اسمح لي...

- عليك طبعًا أن تحرص على أن تضع الملف في غلاف يا ياكوف بتروفتش. ولا تنسى أن تضع شريطة في الصفحة الثالثة، اسمح لي يا ياكوف بتروفتش...

- وبعد؟... بل أسمح لك أنت...

- ولكن ها هنا بقعة حبر يا ياكوف بتروفتش! هل لاحظت أنه هنا توجد بقعة حبر؟

وفي هذه اللحظة صاح آندره فيليبوفتش ينادي السيد جوليادكين مرة ثانية.

- أنا آتٍ يا آندره فيليبوفتش فورًا، هناك شيء صغير عليّ أن... وأخيرًا أيها السيد، ألا تفهم الروسية؟

- خير طريقة أن تحك البقعة بموسى، يا ياكوف بتروفتش. صدقني... هذا أفضل.. ودع هذا لي أنا يا ياكوف بتروفتش... ثق بي... سأحك البقعة حكًّا بسيطًا.

وصاح آندره فيليبوفتش ينادي السيد جوليادكين مرة ثالثة.

- ولكن أرجوك... أين ترى بقعة هنا؟ لا يبدو لي أنه يوجد أثر لأية بقعة هنا.

- بل توجد بقعة... بقعة كبيرة... انظر... هي ذي... اسمح لي... هنا رأيت البقعة، انظر... هل تسمح؟ هات الملف قليلًا يا ياكوف بتروفتش... لا يحتاج الأمر إلى أكثر من حك قليل بالموسى... أنا أفعل ذلك حبًّا بك يا ياكوف بتروفتش... أفعله بطيب خاطر... أحك البقعة قليلًا بالموسى وينتهي كل شيء.

وهنا وقع شيء لم يكن في الحسبان، ولا كان يمكن أن يخطر ببال.

إن السيد جوليادكين الأصغر الذي استطاع أن يتغلّب على بطلنا في هذه المناقشة الصغيرة التي شبت بينهما، قد استولى على الأوراق التي كان يطلبها صاحب السعادة، استولى عليها رغم مقاومة السيد جوليادكين، ولكنه بدلًا من أن يحك بقعة الحبر المزعومة بموسى حبًّا بخصمه كما ادّعى كذبًا ونفاقًا، طوى الأوراق بسرعة ووضعها تحت إبطه، ومضى يدرك آندره فيليبوفتش بوثبتين. إن آندره فيليبوفتش لم يلاحظ مناورات السيد جوليادكين الأصغر. وهرع الاثنان إلى مكتب المدير.

لبث بطلنا في مكانه مسمَّرا بيده الموسى التي كان يتأهب لاستعمالها في حك بقعة الحبر في ما يبدو. إنه لم يفهم بعد كل ما جرى. ولم يثِبْ إلى رشده. لقد تأثر بهذه

الضربة الأخيرة تأثرًا شديدًا، ولكنه لا يزال يعتقد بأن المسألة مسألة سوء تفاهم؟ واستبد به قلق رهيب لا يوصف، فإذا هو ينتزع مكانه انتزاعًا، ويسير مسرعًا نحو مكتب المدير. وكان وهو يجري نحو المدير يسأل اللّه العلي القدير مخرجًا موفقًا من هذا المأزق...

وفي القاعة الأخيرة، قبل مكتب المدير، إلتقى بطلنا وجهًا لوجه بآندره فيليبوفتش وسميّه. لقد كانا عائدين من مكتب صاحب السعادة. امّحى السيد جوليادكين. كان آندره فيليبوفتش يتكلّم مرحًا وهو يبتسم. وكان السيد جوليادكين الأصغر يبتسم أيضًا، ويتغنّج متزلّفًا، ويسير بخطى قصيرة على مسافة من آندره فيليبوفتش من قبيل الاحترام، ويوشوشه من حين إلى حين مشرق الوجه؛ فيجيبه آندره فيليبوفتش هازًّا رأسه بكثير من الملاطفة. يجب أن نقول إن عمله (كما علم بذلك في ما بعد) قد أرضى صاحب السعادة كثيرًا، حتى لقد تجاوز الآمال التي كان يعقدها صاحب السعادة، فهو قد أنجز العمل في المهلة المحدّدة، وصاحب السعادة مرتاح إلى هذا كل الارتياح، راضٍ عنه كل الرضى. بل يظهر أن صاحب السعادة قد كال المديح للسيد جوليادكين الأصغر وشكر له صنيعه شكرًا حارًّا، وأضاف إلى ذلك أنه سيحسب حساب هذا في المستقبل، وأنه لن ينساه قط.

كان طبيعًا أن تكون أول حركة يقوم بها بطلنا هي أن يحتجّ، بل أن يحتجّ بكل ما أوتي من قوة، في حدود الإمكان، لذلك أسرع نحو آندره فيليبوفتش، وقد امتقع لون وجهه حتى صار في صفرة الموتى، وهو لا يكاد يعي ما يصدر عنه من أفعال. ولكن آندره فيليبوفتش ما إن علم يعي يكاد أن المسألة التي كان السيد جوليادكين الأكبر يريد أن يحدّثه فيها مسألة شخصية خاصة، حتى رفض أن يصغي إليه، وحتى نبّهه بقسوة إلى أنه لا يملك لحظة فراغ يخصّصها للاهتمام بشؤون شخصية.

وقد بلغت لهجة الرفض من الخشونه والجفاف أنها أحدثت في بطلنا تأثيرًا عميقًا، فقال في نفسه: «ربما كان من مصلحتي أن أجيء إليه مواربًا، عن طريق أنطون أنطونوفتش مثلًا». ولكن شاء سوء حظ بطلنا أن أنطونوفتش كان غائبًا. فلقد نودي عليه هو أيضًا، وكان في هذه اللحظة مشغولًا.

وتهاوى السيد جوليادكين على أحد الكراسي، وهو لا يزال ممتقع اللون، مضطرب العقل، نهبًا للشكوك، لا يدري ماذا يفعل... وكان لا ينفك يردّد في ذهنه قائلًا لنفسه: «لا شك أن الأفضل ألا يكون لهذا كلّه أي دلالة. فالحق أن وضعًا كهذا الوضع أمر لا يصدّقه العقل من أيّ ناحية نظرت إليه. هذه ترهات حتمًا... ذلك مستحيل قطعًا لا... لا شك أن ما حصل كان رؤيا... لا شك أنني ذهبت بنفسي إلى المدير.. ثم حسبت نفسي شخصًا آخر... على كل حال... هذا كله مستحيل».

وما كاد السيد جوليادكين ينتهي إلى استحالة هذه القضية أساسًا حتى ظهر سميّه في المكتب بغتة، وهو يحمل تحت ذراعه وفي يديه مقدارًا كبيرًا من الملفات.

وفيما كان يمر، أسرّ إلى آندره فيليبوفتش ببضع كلمات لا شك أنها كانت ضرورة لا غنى عنها، وتبادل بضع كلمات أخرى مع موظف آخر، ولاطف هذا قليلًا، ومازح ذاك شيئًا. كان واضحًا أن وقته لا يتسع لمشاغل تافهة. وشاء حظ بطلنا أن

جوليادكين الأصغر، بينما كان يهمّ أن يجتاز عتبة الباب ليخرج من المكتب، استوقفه موظفان أو ثلاثة موظفين شباب دخلوا الغرفة، فأخذوا يتحدّثون معه. فما كان من السيد جوليادكين إلا أن هرع نحوه. ولكن السيد جوليادكين الأصغر أدرك حيلة بطلنا فورًا، فلم يلبث أن أخذ يبحث عن مخرج ليتملّص من الحديث وهو قلق النظرة، غير أن بطلنا كان قد أمسك بكمه. ابتعد الموظفون الذين كانوا على مقربة من صاحبنا يرقبون نتائج الحوادث مستطلعين.

كان السيد جوليادكين يعرف حق المعرفة أن جميع عواطف المودة كانت متجهة نحو خصمه، وكان يدرك أن مكيدة قد دُبّرت له. وذلك سبب آخر يدعوه إلى تأكيد حقوقه. لقد كانت اللحظة حاسمة.

قال سميُّه وهو يرشقه بنظرة تفيض احتقارًا:

- نعم؟

وكان السيد جوليادكين الأكبر لا يكاد يستطيع التنفس، فقال:

- لا أدري أيها السيد، كيف أفسر سلوكك الغريب معي.

أجابه السيد جوليادكين الأصغر وهو يلقي نظرة حوله، ويشفع النظرة بغمزة للموظفين الذين يحيطون به، كأنما لينبِّههم إلى أن التمثلية الهزلية ستبدأ:

- طيب، أكمل كلامك.

- إن ما يظهر في أساليبك من وقاحة واستهتار واستخفاف يدينانك إدانة شديدة في الحالة الراهنة... يدينانك إدانة يعجز عنها ما قد أقوله أنا من كلام... لكن لا تعقد آمالاً كثيرة على حِيَلك فهي خرقاء لا تنطلي على أحد.

- دعك من هذا الكلام يا ياكوف بتروفتش! أليس الأحرى أن تقول لي كيف نمت البارحة؟

فأجابه بطلنا وقد نفد صبره وأصبح لا يكاد يستطيع الوقوف على ساقيه من فرط الاضطراب:

- لا تنس نفسك أيها السيد، وآمل أن تغير لهجتك...

فقال له جوليادكين الأصغر وهو يصعر وجهه تصعيرة استفزاز:

- ها... يا عزيزي...

ثم إذا هو يقوم بحركة مفاجئة لا يمكن أن يدفع أي شيء على التنبؤ بها... فيمسك بإصبعيه الخد اليمنى، الربلة من وجه بطلنا، على سبيل المداعبة.

اشتعل بطلنا غيظًا. إنه الآن أخرس من شدة الحنق، أحمر اللون مرتعد الأعضاء كلِّها. أدرك خصمه أن بطلنا عيل صبره فهو يوشك أن يهجم. لذلك سارع يسبقه إلى ذلك على أوقح صورة. فها هو ذا يربت على خده اليمنى مرتين، ويدغدغه مرتين، ملاعبًا خصمه الجامد من الذهول، الطائش اللب من الحنق، مرضيًا بذلك من كانوا

يحيطون بالرجلين من الموظفين الشباب. ثم ها هو يمضي لؤمًا وغمزًا: (يا لك ماكر يا عزيزي... لسوف ندبّر لهم مكائد يا ياكوف بتروفتش، نعم سوف ندبر لهم مكائد... ثم ها هو ذا، ومن دون أن يدع لبطلنا فرصة العودة إلى رشده بعد هذه الهجمة الجديدة، يبتسم ابتسامة جديدة على المشهد، ثم لا يلبث أن يصطنع هيئة رسمية، هيئة رجل مشغول جدًّا، فيخفض عينيه، ويتقلص، ويدمدم بقوله مسرعًا: «هناك مهمة مستعجلة يجب أن أقوم بها». ثم يحرّك ساقيه القصيرتين منسلًّا إلى الغرفة المجاورة.

لبث بطلنا على حاله مبهورًا مشدوهًا. إنه لا يصدق عينيه، ولا يستطيع التخلص من انفعالاته...

وثاب أخيرًا إلى صوابه، فسرعان ما أدرك أنه قد ضاع، وأنه قد صار أضحوكة، وأن شرفه قد تلطخ، وأن العار أصبح يجلّله. لقد استُهزئ به على مرأى من الناس، والشخص الذي استهزأ به هو الرجل الذي كان يعدّه في الليلة البارحة خير صديق له. لقد ساءت سمعته إلى الأبد. واندفع السيد جوليادكين يلحق بعدوه، لا يحفل بمن شهدوا الإهانة ولا يعبأ بهم. قال يردّد لنفسه: إنهم متواطئون، يسيرون جميعًا يدًا بيد، ولا يفكر أحد منهم إلا في تحريض الآخر عليّ. ومع ذلك ما كاد السيد جوليادكين يقطع عشرة أمتار حتى أدرك أن هذه الملاحقة لن تفيد ولا خير منها، فعاد أدراجه.

قال يخاطب غريمه بينه وبين نفسه: «لن تفلت مني. سوف تقع في فخّي عاجلًا أو آجلًا... وسوف يُسأل الذئب عن دموع الحمل». ووصل إلى كرسيه فجلس عليه وهو يفيض حقدًا باردًا وتصميمًا قويًا.

«لن تفلت مني!». كذلك راح يردّد السيد جوليادكين. ولم يعُد الأمر عنده أمر دفاع، بل أصبح أمر هجوم.

لو رأى أحد السيد جوليادكين في هذه اللحظة، وقد احمرَّ وجهه من الغضب، وأصبح لا يكاد يستطيع أن يسيطر على انفعاله، لو رآه يغمس ريشته في الحبر ويأخذ يكتب حانقًا لقال حتمًا إن القضية لن تقف عند هذا الحد، وأن بطلنا لن يكتفي قط بحلٍ مبتذل بسيط. إن قرارًا جازمًا قاطعًا قد رسخ في أعماق نفسه. لقد حلف ليضعنه موضع التنفيذ لا محالة... الحقّ أنه لم يعرف تمامًا أي سلوك يجب عليه أن يسلك، أو قل إنه لم يعرف ما الذي يجب عليه أن يفعله أصلًا. ولكن لا ضير... «لا يا سيدي. إن الاغتصاب والوقاحة لا ينجحان في هذا الزمان. الاغتصاب والوقاحة قد يوصلانك إلى القوة لكن ليس إلى السعادة يا سيدي. إن جريشكا وحده قد وصل إلى أغراضه باغتصاب اسم ولقب. لقد خدع شعبًا أعمى، ولم يخدعه زمنًا طويلًا على كل حال».

ورغم هذه الاعتبارات قرر السيد جوليادكين، حتى يرد، أن ينتظر اللحظة التي تسقط فيها جميع الأقنعة من تلقاء ذاتها، فتتكشف عندئذ حقيقة الناس والأشياء. وكان عليه أولًا أن ينتظر ساعة انتهاء العمل، فلا يشرع في شيء قبل ذلك. هناك إجراءات معيّنة عليه أن يتخذها عند الخروج من المكتب، حتى إذا اتخذ هذه

الإجراءات أصبح يعرف الخطة التي عليه أن يتبعها لتحطيم هذا الصنم الوقح، لسحق هذه الأفعى التي تقضم الجثة. هذه الأفعى التي تحتقر الضعفاء. ومهما يكن من أمر، قال السيد جوليادكين لن يسمح أبدًا بأن يعامل كخرقة بالية لا تصلح إلا لتنظيف الأحذية المتسخة. لن يسمح أبدًا بهذا، ولا سيما في الظروف الراهنة. لولا هذه الوقاحة الأخيرة، لكان يمكن لبطلنا أن يقرر ضبط نفسه وكبح جماحه، ولكان يمكن أن يلتزم الصمت وأن يتجه إلى المصالحة من دون أن يصر على احتجاجات صاخبة كثيرة... ولكان يمكن أن يكتفي بمناقشة قصيرة يؤكد فيها حقوقه التي لا تُجحَد: كان يمكن عندئذ أن يقبل التنازلات في أول الأمر، وأن يقبل تنازلات أخرى بعد ذلك أيضًا، وأن ينتهي أخيرًا إلى قبول تسوية كاملة، إذا اعترف أعداؤه صراحة بأنه على حق.

ويمينًا أنه ليكون مستعدًا بعدئذ المصالحة تامة، حتى قد يرقّ قلبه قليلًا. ومن يدري، فقد يكون هذا بداية صداقة جديدة، صداقة وطيدة حارّة، أقوى وأوسع من صداقة الليلة البارحة أيضًا. وفي وسع هذه الصداقة الجديدة أن تمحو السيئات الناشئة عن هذا التشابه المشؤوم بين شخصيهما محوًا تامًا، وفي وسعها أن تحمل السعادة إلى هذين الموظّفين اللذين يستطيعان أن يعيشا عندئذ في سلام وطمأنينة مائة سنة و... أكثر من ذلك أن السيد جوليادكين قد أخذ يندم على تدخله دفاعًا عن حقّه، تدخلًا كان لا بد أن تكون له عواقب سيئة.

قال السيد جوليادكين لنفسه: «يكفي أن يتراجع، وأن يعترف أن هذا كله لم يكن إلا سفاسف، حتى أغفر له وأعفو عنه... لا سيما إذا أعلن ذلك جهارًا على رؤوس الأشهاد. ولكنني لن أسمح أبدًا بأن أعامل كخرقة بالية. أنا لم أسمح بذلك لأحد في حياتي. لم أسمح به لأشخاص أقوى وأرفع منه، فكيف أحتمل مثل هذه الإهانة من رجل فاسد مثله. لست خرقة بالية أيها السيد، لا لست خرقة بالية. ويمكن تلخيص النتيجة التي انتهى إليها السيد جوليادكين في جملة هي التالية: أنت، أيها السيد المسؤول الآثم الوحيد عن وصول الأمور هذه إلى ما وصلت إليه.. لقد قرر السيد جوليادكين الآن أن يحتج، وأن يدافع عن نفسه بجميع الوسائل، إلى النهاية القصوى. ذلك طبعه. إنه يستطيع الرضوخ للإهانة. ولا يقبل أن يُداس كما تداس خرقة بالية. إنه لا يقبل هذا، ولا سيما من شخص جدير بالاحتقار كهذا الشخص. قد يقبل مثل هذا من شخص يريد بل يعزم عزمًا أكيدًا على أن يعامل السيد جوليادكين معاملة أتان، ويتوصل إلى ذلك من دون كبير مقاومة منه، ومن دون كبير خطر على كل حال. هذا أمر كان السيد جوليادكين يقبله هو نفسه أحيانًا. كان في وسع الرجل أن يجعل من بطلنا خرقة بالية خرقة يُرثى لها، خرقة متسخة، ولكنها خرقة يمكن أن يكون لها مع ذلك شيء من كرامة، ومن مكانة، ومن عواطف. هي كرامة صغيرة طبعًا، وهي طبعًا عواطف فقيرة مكبوبة في الثنايا العميقة المتسخة من الخرقة البالية التعيسة أيضًا، ولكنها عواطف على كل حال...

وكانت الساعة تجري بطيئة بطءًا يبعث في النفس الحزن واليأس. ودقت الساعة الرابعة أخيرًا. فما هي إلا لحظات حتى أخذ الموظفون ينهضون ويتركون المكتب وراء رئيسهم ليمضي كل منهم إلى منزله. اندسّ السيد جوليادكين بين الجمهور.

كانت عينه ترقب الشخص الذي كان عليه ألا يدعه يفلت منه. ورأى بطلنا سميّه يتجه نحو حرّاس المعاطف. كان السيد جوليادكين الأصغر يثرثر على عادته الكريهة مع الحارس بانتظار أن يأخذ معطفه. إنها لحظة فاصلة. واستطاع السيد جوليادكين أن يشقّ لنفسه طريقًا بين الجمهور، لأنه لا يريد أن يكون بعيدًا عن غريمه، وطلب معطفه هو أيضًا، ولكن صديقه، صديق ليلة البارحة، أُعطي معطفه قبله. لا شك أن صاحبه قد عرف كيف يتسلل إلى الحارس ويتزلّف إليه ويتملّقه خفية، بما فيه من خسّة وصغار.

ارتدى الغريم معطفه بسرعة، وألقى على السيد جوليادكين نظرة ساخرة، وذلك تحدٍّ سافر واستفزاز مباشر على رؤوس الأشهاد، ثم ألقى نظرة على ما حوله، بالغطرسة المألوفة فيه، وأراد أن يحتفظ بما حصل عليه من تفوق على خصمه أمام جميع الناس، فأسرع يختلط بالموظفين، يقول لهذا كلمة، ويوشوش ذاك لحظة ويزجي إلى الثالث ملاطفة، ويتّجه نحو الرابع بابتسامة، ويصافح يدًا من الأيدي، ثم يهبط السلم خفيفًا مرحًا. هرع بطلنا يجري في أثره، فما كان أشد اغتباطه حين استطاع أن يدركه عند آخر درجة من درجات السلم!... وها هو ذا يمسكه من ياقة معطفه... بدا على السيد جوليادكين الأصغر الحيرة والارتباك، ونظر في ما حوله نظرة مروّعة، ثم دمدم أخيرًا يقول بصوت منطفئ

- ما معنى هذا؟

فقال بطلنا:

- أيها السيد، إذا كنت رجلًا محترمًا، فعليك أن تتذكّر ما كان بيننا من علاقات الود والصداقة بالأمس.

- ها... نعم... بالمناسبة، هل نمت نومًا طيبًا؟

لم يستطيع السيد جوليادكين أن ينطق بكلمة واحدة من شدة حنقه وغيظه، فقال:

- نعم... لقد نمت نومًا طيبًا جدًّا... ولكن اسمح لي أن أنبّهك أيها السيد إلى أن لعبتك سخيفة سخفًا فظيعًا.

- من ذا الذي يدّعي هذا؟ إن أعدائي هم الذين يقولونه...

كذلك أجاب الرجل الذي سمّى نفسه للناس جوليادكين. وبحركة مفاجئة عنيفة تملّص من قبضة بطلنا الضعيفة.

ولم يلبث أن وثب إلى الشارع بسرعة، وأخذ ينظر هنا وهناك، فلما لمح عربة جرى نحوها مسرعًا، واختفى عن عينَيّ السيد جوليادكين الأكبر. وبقي بطلنا وحيدًا، مهجورًا من جميع الناس، فريسة غمٍّ شديد وحزن رهيب. نظر في ما حوله، ولكنه لم يرَ أية عربة. أراد أن يركض ولكن ساقَيْه ترنحتا. استند بجسمه إلى عمود من أعمدة الغاز، منقلب الرأس، فاغر الفم، متقلّص الظهر، خائر القوى. ولبث على هذه الحال في وسط الرصيف لحظات طوالًا. كان يبدو للسيد جوليادكين أن كل شيء قد ضاع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل التاسع

كان جميع الناس متواطئين على السيد جوليادكين، وكأن الطبيعة نفسها متواطئة عليه، ولكن السيد جوليادكين ظل واقفًا لا يريد أن يعترف بالهزيمة. لا... إنه لم يهزم... هو لم يُغلَب... ذلك شيء يحسّه... وهو مستعد لأن يصارع... فبعد انقضاء لحظة الذهول الأولى، بلغ من القوة والحماسة في حك يديه واحدتهما بالأخرى، حد أنه يكفي المرء أن يرى وضعه حتى يصبح على يقين من أنه لن يذعن بحال من الأحوال. ولقد كان الخطر واضحًا مع ذلك. إن السيد جوليادكين يدرك هذا حق الإدراك.

وكيف السبيل إلى تفاديه؟ هذا هو السؤال. ولمعت في رأسه فكرة في لحظة من اللحظات: أليس الأفضل أن يدع الأمور تجري على أعنّتها، وأن يتراجع لا أكثر ولا أقل؟ لماذا؟ ولماذا لا أبتعد... كأن الأمر لا يعنيني في شيء... أترك القضية تجري من تلقاء ذاتها، فلا أتدخل... الأمر لا يعنيني وكفى!... ولعله يرضخ ويذعن هو أيضًا... يدور كما يدور الخذروف، هذا الفاسق، ثم يدور ويدور، ثم يتوقّف راضخًا مذعنًا!... نعم، هو كذلك، سأنتصر عليه بالإذعان، ولكن أين الخطر في الواقع؟ أي خطر في ذلك؟ ليت أحدًا يقول لي أين يوجد الخطر!.. قضية تافهة... قضية مضحكة.. لا أكثر.

هنا توقف السيد جوليادكين، وجمدت الكلمات على لسانه، أنّب نفسه أشد التأنيب على هذه الخواطر. وسرعان ما اتّهم نفسه بالحقارة والجبن. ولكن هذا لا يقدّم أموره خطوة واحدة. كان يحسّ إحساسًا واضحًا بأنه لا بد له في هذه اللحظة من اتخاذ قرار. وكان يحسّ أيضًا بأنه مستعد لأن يدفع أي ثمن لمن يرشده إلى حل. ولكن كيف يستطيع أن يجد هذا الحل بنفسه؟ ثم إن وقته لا يتّسع للبحث عن هذا الحل. وها هو ذا يستأجر عربة ويأمر سائقها بأن يقوده إلى بيته، حتى لا يضيع كثيرًا من الوقت سدًى. سأل نفسه: والآن، كيف حالك؟ كيف حالك في هذه اللحظة يا ياكوف بتروفتش؟ ما الذي ستفعله؟ ما الذي تنوي أن تفعله الآن أيها الجبان، أيها الرعديد؟ لقد صنعت كل شيء حتى وصلت إلى ما وصلت إليه، وها أنت تتباكى وتتشكّى! هكذا كان السيد جوليادكين يستهزئ بنفسه بينما كانت رجات عربته العتيقة تهزّه وتتقاذفه يمنة ويسرة. إن هذه الاستهزاءات المرّة الكاوية التي تنكأ جروحه تُحدِث الآن في نفسه أقوى لذة بل أكبر متعة.

قال يخاطب نفسه: «تصور لحظة أن ساحرًا ظهر أمامك الآن فجأة - ساحرًا أو أي إنسان آخر يملك قدرات فوق الطبيعة - فقال لك: اعطني إصبعًا من أصابع يدك اليمنى يا ياكوف جوليادكين فأسوّي لك الأمور، فلا يكون هنالك بعدئذ جوليادكين آخر، وتعيش سعيدًا من غير أصبع...». ألا إنني مستعد لأن أعطيه الإصبع التي يطلبها... لسوف أعطيه إياها حتمًا... لسوف أعطيه إياها من دون أن تطرف لي عين...

وصاح الموظف المسكين أخيرًا يقول وقد أخذ منه اليأس كل مأخذ: «تبًا لهذا كله... لماذا هذه المصائب جميعها؟ لماذا يجب أن يقع لي كل هذا، لماذا يجب أن يقع لي هذا بعينه، لا أي شيء آخر غيره؟ وكان كل شيء يجري على ما أحب قبل ذلك... كنت راضيًا وكنت سعيدًا... فهل كان لا بد أن يقع لي ما وقع؟... مهما يكن من أمر فلن نصل إلى شيء بالأقوال وحدها، وإنما يجب أن تُقرَن الأقوال بالأفعال».

وبينما هو يهم أن يتخذ قرارًا دخل إلى مسكنه، فتناول غليونه دون أن يضيّع لحظة واحدة، وأخذ يتنشّق بكل ما أوتي من قوة، نافيًا سحائب الدخان في كل اتجاه هنا وهناك، سائرًا في الغرفة جيئةً وذهابًا، وقد تملّكه انفعال شديد. وفي أثناء ذلك أخذ بتروشكا يعدّ المائدة. فما هي إلا لحظات حتى كان بطلنا قد اتخذ قراره الحازم الذي لا رجعة عنه. فرمى غليونه، وأسرع يرتدي معطفه ويخرج من المنزل قائلًا لخادمه إنه لن يتغدى اليوم في البيت. وفيما كان يهبط السلم أدركه بتروشكا لاهثًا وهو يمدّ إليه قبعته التي نسي بطلنا أن يأخذها من فرط تعجّله. فتناول جوليادكين القبعة وأراد أن يقول بضع كلمات عرضًا من أجل أن يبرر هذا النسيان حتى لا يظن بتروشكا الظنون في تعليل اضطرابه، ولكن بتروشكا لم يتنازل لأن يلقى عليه نظرة واحدة بل عاد أدراجه فلم يسع السيد جوليادكين إلا أن يضع القبعة على رأسه مستغنيًا عن أي تبرير، وأسرع يهبط السلم ويدمدم بأن كل شيء يمكن أن يسوّى على أحسن وجه. وكان يحس مع ذلك برعدات تسري في جسمه كله من الرأس إلى القدمين، واستوقف حوذيًا وأمره أن يمضي به إلى منزل آندره فيليبوفتش.

قال لنفسه فجأة وهو يهم أن يشد حبل جرس منزل آندره فيليبوفتش: «ولكن أليس من الأفضل أن أرجئ هذه الزيارة إلى الغد؟ ثم ما عساني قائلًا له؟ ليس ثمة شيء ذو قيمة أقوله له... ماذا أقول له؟ المسألة تافهة في الواقع، المسألة تافهة لا قيمة لها... هي مسألة تافهة تفاهة مطلقة... هي مسألة صغيرة حقيرة ليست بذات شأن... أو لا يكاد يكون لها شأن... وما هي بالمسألة الخطيرة على كل حال...».

وفجأة شد السيد جوليادكين حبل الجرس. فسمع صوت الجرس يرن في داخل البيت، ثم سمع وقع خطوات تتجه نحو الباب. لعن السيد جوليادكين نفسه على هذا التعجّل وهذا التهوّر، وسرعان ما تذكر مشكلاته الأخيرة ومشاداته الأخيرة مع آندره فيليبوفتش، التي كانت قد انتقلت إلى المحل الثاني من اهتمامه، بسبب وجود ما هو أشد منها لجاجة عليه. ولكن أوان الهروب كان قد فات فها هو ذا الباب يفتح. وشاء حسن حظ بطلنا أن يُقال له إن آندره فيليبوفتش لم يعد من المكتب بعد، وأنه لن يتغدى اليوم في المنزل. فقال صاحبنا يخاطب نفسه هاذيًا من شدة الفرح: «وأنا أعرف أين يتغدى.. لا شك أنه يتغدى قرب جسر اسماعيلوفسكي». وسأله الخادم هل من رسالة ينقلها إلى مولاه، فأجابه جوليادكين بقوله: «لا يا صديقي، شكرًا هناك شيء... سأعود مرة أخرى». قال جوليادكين ذلك وأسرع يهبط السلم فرحًا كل الفرح.

حتى إذا صار في الشارع نقد الحوذي أجره وطلب إليه أن ينصرف، فطالبه الحوذي بزيادة قائلًا: «لقد انتظرت مدة يا سيدي، ولم أرحم حصاني في سبيل خدمتك». فكافأه السيد جوليادكين بخمس كوبكات مبتهجًا، ومضى يسير على قدميه.

قال لنفسه وهو في الطريق: «المسألة حرجة.. ولا يسع المرء أن يهملها، ولكنني إذا فكّرت في الأمر مليًا أرى أنه من غير المفيد أن أقلق نفسي الآن. ما فائدة أن أجترّ الحكاية نفسها فأعكّر صفوي واحنق نفسي؟ ما فائدة هذا العذاب وهذا الإضطراب وهذا الألم الذي أسببه لنفسي؟ ما جدوى أن أمزِّق قلبي؟ ما كان قد كان... ولا حيلة لي في العودة عنه.. ولا فائدة من الرجوع إليه.. هلا فكرت قليلًا: هذا إنسان.. أقول هذا إنسان حملٍ رسائل توصي به خيرًا... وهو في ما يُقال من معدن طيب خليق بأن يجعله موظّفا ناجحًا... وسلوكه لا غبار عليه. وهو إلى ذلك فقير. قاسى في حياته آلامًا كثيرة، ولقيّ متاعب جمّة من كل نوع. والفقر ليس بعيب. فما شأني أنا في الأمر؟...».

«وما هي القضية في الواقع؟ لقد شاءت نزوة من نزوات الطبيعة أن يكونٍ بيني وبين هذا الإنسان تشابه كبير كتشابه قطرَتَيْ ماء. حتى لكأنه نسخة مني حقًا، فهل يرفضون توظيفه لهذا السبب؟ إذا كان القدر، نعم إذا كان القدر الأعمى هو المسؤول عن هذا التشابه، فهل يُداس الرجال كما تداس خرقة بالية، وهل يُمنع من حق العمل؟... أين العدالة في هذا؟.. إنه رجل فقير، مهجور، أعزل، ينفطر القلب لرؤيته. فالبر والإحسان والمحبة توجب حمايته وتأمر برعايته. نعم، هذا ما يجب أن يكون عليه الأمر. هل على رؤسائنا أن يفكروا في القضية على نحو ما فكرت أنا فيها من قبل؟ يا لغبائي! ويا لحماقتي! ألا إنني حيوان أشبه بالحيوانات بلاهة... من حسن الحظ أن رؤساءنا قد أحسنوا عملًا، فضمّوا الفقير المسكين... لأفرض أننا توأمان، نعم، لأفرض أننا أخوان منذ الولادة، وكفى!... هل في هذا شيء خارق للمألوف! أبدًا... من الممكن تعويد الموظفين الآخرين على هذه الفكرة... أنا واثق أنه إذا دخل إلى مكتبنا شخص غريب لما رأى في هذا التشابه ما يسيء إلى الكرامة أو يجرح الشعور... حتى لقد يكون في ذلك جانب يبعث على المحبة، وذلك على أساس الفكرة التالية: لقد أرادت مشيئة الله أن تخلق مخلوقين متشابهين تشابهًا كاملًا، فأحدهما «مثل» الثاني... والرؤساء الكرام فهموا مشيئة الله فضموا التوأمين في كنفهم ومنّوا عليهما بالرعاية والحماية...».

واسترد جوليادكين أنفاسه، ثم عاد يقول وقد خفض صوته قليلًا: «صحيح أنه كان من الأفضل ألا يقع شيء من هذا أصلًا... لا تلك المصادفة التي تثير عاطفة المحبة، ولا قصة التوأمين هذه... ما كانت حاجتنا إلى كل هذا؟ لقد كان في الإمكان أن يستغني عن القضية كلها أساسًا... رباه ما هذه الورطة التي أقحمنا فيها هؤلاء الجن، هؤلاء الشياطين! ويجب الإعتراف على كل حال بأن سلوكه لا يدل على شيء من خلق كريم... ثم انظر إلى وجهه الباش الذي ينم عن النفاق... إنه لإنسان ماكر حقًا... إنسان متجسّس، عبدٌ متزلّف حقير، هذا الجوليادكين!... إنه لا يتورع عن تلطيخ شرفي بسلوكه الدنيء، هذا الوغد!... يجب عليّ أن أراقبه! يا لهذا العمل من سخرة!... ولكن هذا مفيد حقًّا! إنه حتمًا غير مفيد... هو رجل نذل ما في ذلك ريب... أما لجهة كونه نذلًا فهو نذل... وسيظل نذلًا. ولكن الآخر رجل شريف. طيب.. فليبق هو نذلًا ولأبقَ أنا شريفًا. وسيقول الناس: جوليادكين هذا نذل جبانٍ فلنشحٍ عنه ولا نخلطن بينه وبين الآخر! أما جوليادكين ذاك فهو شريفٌ، فاضلٌ، دمثٌ، مسالمٌ،

فيمكن الإعتماد عليه في العمل، ويستحق ترقية من غير شك. هذه هي المسألة... ولكن... ماذا لو خلطوا بيننا! هو لا يتورّع عن شيء... هو لا يتورع عن انتحال شخصية رجل آخر... نعم هو لا يتورع عن ذلك أبدًا... وهو لا يتورع عن إحالة ذلك الرجل الآخر إلى خرقة بالية... آه... يا رب! يارب! ما هذه النازلة!...

وفيما كان السيد جوليادكين ممتلئًا بهذه الخواطر كان يضرب في الأرض على غير هدًى، لا يعرف إلى أين تقوده قدماه. ولم يثب إلى رشده إلا حين صار في شارع نفسكي. وكان لا بد أن يثوب إلى رشده في الواقع، لأنه اصطدم بأحد المارة اصطدامًا عنيفًا، فتمتم ببضع كلمات اعتذار من دون أن يرفع رأسه، وكان الرجل الذي اصطدم به قد ابتعد بعد أن نطق ببعض الشتائم. رفع السيد جوليادكين رأسه ونظر في ما حوله. فلاحظ عندئذ أنه على مقربة من المطعم الذي استراح فيه قبيل ذهابه إلى تلك السهرة في منزل أولسوفي إيفانوفتش. فسرعان ما أحسّ بقرصات في معدته، فتذكّر أنه لم يتناول غداءه بعد، وإذ كان من جهة أخرى غير مدعوّ إلى الغداء عند أحد، فقد أسرع يصعد درجات سلم المطعم مقرًّرا أن يأكل لقمة على عجل.

الأسعار غالية قليلًا، ولكن غبنًا يسيرًا كهذا ليس من شأنه أن يوقف السيد جوليادكين، فلا قيمة لمثل هذه السفاسف عنده في لحظات كهذه اللحظات. في قاعة تتلألأ فيها الأنوار كان حشد كبير من الزبائن يزدحم حول البسطة التي مدت عليها ألوان من المقبلات ترضي أشد الأذواق رهافة، وكان القيّم على البسطة غارقًا في العمل لا يكاد يستطيع خدمة الزبائن جميعًا، فهو يسكب الشراب، ويقدم الأطباق، ويتقاضى الأثمان، ويأخذ الطلبات. اتخذ السيد جوليادكين مكانه في الصف، حتى إذا جاء دوره مد يده إلى فطيرة أخذها، ثم مضى إلى أحد الأركان يأكلها بشهية كبيرة، مديرًا للحضور ظهره، فلما فرغ من إلتهامها عاد إلى البسطة فردّ الطبق. وإذا كان يعرف الأسعار فقد أخرج قطعة من النقد بعشرة كوبكات ووضعها على البسطة وهو يبحث بنظره عن البائع ليدلّه على أن هذه الكوبكات العشرة هي ثمن فطيرة أكلها.

فهمهم البائع يقول بين أسنانه:

- عليك روبل وعشرة كوبكات.

فدهش السيد جوليادكين دهشة شديدة.

- أتخاطبني أنا؟ يخيل إليّ أنني لم آخذ سوى فطيرة واحدة.

فقال البائع مؤكدًا:

- بل أخذت إحدى عشرة فطيرة.

- ماذا تقول؟... يخيل إليَّ أنك على خطأ... فإنني واثق من أنني لم أخذ إلا فطيرة واحدة.

- عددت الفطائر التي أخذتها. لقد أخذت إحدى عشرة فطيرة. على الإنسان حين يتناول طعامه بنفسه أن يعرف كيف يدفع ثمن ما أخذ، نحن لا نقدم هنا هدايا!

صعق السيد جوليادكين.

وسأل نفسه: «أتراني سُحرت؟».

وكان البائع في أثناء ذلك ينتظر قرار بطلنا. وكان الناس قد أخذوا يتحلّقون حوله. فدس يده في جيبه وأخرج منها قطعة فضية بروبل واحد، مقررًا أن يدفع على الفور، حتى لا يتعرّض لارتكاب خطيئة...

قال لنفسه وقد احمرّ وجهه: «طيب.. فلأدفع ثمن إحدى عشرة فطيرة ما دام يصرّ على ذلك... لا غرابة في أن يأكل امرؤ إحدى عشرة فطيرة... هنيئًا مريئًا... ومهما يكن من أمر فليس في هذا ما يثير الدهشة أو يبعث على الضحك...».

وفجأة ساور السيد جوليادكين حدس سريع. فما إن رفع عندئذ بصره حتى فهم كل شيء، وأدرك سر السحر... تبدّدت الشبهات كلّها دفعة واحدة... فعلى عتبة الباب المؤدي إلى الغرفة المجاورة، وراء ظهر البائع، أي أمام بطلنا تمامًا، عند فرجة الباب كان السيد جوليادكين يظنه حتى ذلك الحين مرآة... هنالك كان يقف رجل قصير لا شك في أنه السيد جوليادكين نفسه... لا جوليادكين الأصلي، لا جوليادكين القديم، بطل هذه القصة، بل جوليادكين الجديد، وكان واضحًا أنه مبتهج جدًا. إنه يبتسم ابتسامة وقحة، ويتجه إلى بطلنا بإشارات من رأسه وغمزات من عينيه. وهو يتحرّك في مكانه متهيئًا للهروب إلى الغرفة المجاورة عند أول بادرة، وللإنسلال من هناك إلى الخارج عن طريق سلم الخدمة، فتستحيل عندئذ مطاردته... وكان يمسك بيده آخر قطعة من الفطيرة العاشرة، وها هو ذا يلتهمها على مرأى من بطلنا مطقطقًا بلسانه تعبيرًا عن الغبطة والحبور...

قال السيد جوليادكين لنفسه وقد احمرّ وجهه احمرارًا شديدًا، واحترقت نفسه شعورًا بالخجل والعار: «لقد استغل الحقير التشابه بيننا ولم يستح أن يفعل هذا أمام الناس... أتراهم أدركوا ذلك؟ أتراهم يبصرونه؟ يظهر هذا أن أحدًا لم يشعر بهذا الانتحال... قذف السيد جوليادكين قطعة النقد الفضية على البسطة كما لو كانت تحرق أصابعه، ثم انسلَّ من خلال الحشد وخرج، حتى دون أن يلاحظ الإبتسامة الوقحة التي ظهرت في وجه البائع، وهي إبتسامة تعبر عن ظفره وتشهد بسيطرته الهادئة على نفسه.

قال جوليادكين لنفسه: «هو سعيد لأنه لم يذهب بكرامتي تمامًا. نعم، يجب أن أشكر لهذا اللص وأن أشكر للقدر أن الأمور قد سوِّيت أخيرًا. صحيح أن هذا البائع كان فظًا. ولكن يجب الإعتراف بأنه كان على حق. إن له روبلًا وعشرة كوبكات حقًا. هذا طبيعي... ما من أحد يعطي شيئًا بالمجان في بلادنا. ومع ذلك كان في وسعه أن يكون أكثر دماثة، هذا المتحذلق!...».

بهذا كان السيد جوليادكين يحدّث نفسه وهو يهبط السلم. حتى إذا بلغ الدرجة الأخيرة من درجات المدخل توقّف على حين فجأة متجمِّدًا.

صعد الدم إلى وجهه، وظهرت في عينيه الدموع. كان في ذروة الألم والشعور بالذل. وظل جامدًا على هذه الحال قرابة نصف دقيقة، ثم قرع الأرض بقدمه قرعة قوية، وقفز إلى الرصيف بوثبة واحدة، وأخذ يركض كمجنون لا يلتفت إلى ورائه ولا يلوي على شيء، ركض نحو بيته في شارع «الدكاكين الستة» لاهثًا دون أن يشعر بالتعب، فما إن وصل حتى جلس على الديوان وتناول محبرة وريشة، وأخرج ورقة وأخذ يكتب بيد ترتعش انفعالًا (فعل ذلك قبل أن يخلع معطفه، خلافًا لعاداته اللطيفة وقبل أن يحشو غليونه). وإليكم الرسالة التي حرّرها:

السيد جوليادكين ياكوف بتروفتش:

«ما كان لي أن أتناول القلم لولا أن الظروف الراهنة بالإضافة إلى سلوكك يا سيدي تجبرني على ذلك إجبارًا. فصدقني إذا قلت لك إن الضرورة وحدها هي التي تلزمني بأن أدخل معك في شروح كهذه، لذلك أرجوك أولًا أن تعد عملي هذا جوابًا على ما بدر منك من إهانات. جوابًا فكرت فيه مليًا ثم عزمت عليه أخيرًا، بل نتيجة لا معدي عنها للظروف التي تحيط بمصيرنا المشترك».

قال السيد جوليادكين لنفسه وهو يعيد قراءة ما كتب: «يبدو لي أن هذا جيد جدًّا. فهو محتشم ومهذب، ولا يخلو مع ذلك من قوّة وصلابة... لا شيء فيه يؤذي الشعور أو يهين الكرامة في ما يخيَّل إليّ ثم إن هذا من حقّي».

واستأنف يتم كتابة رسالته:

«إن ظهورك المفاجئ الغريب في تلك الليلة العاصفة التي كنت أنا فيها ضحية هجوم، وحتى عدوان آثم، من أعدائي الذين أترفَّع عن ذكر أسمائهم الآن احتقارًا لهم، كان نواة جميع أشكال سوء التفاهم القائمة بيننا الآن...».

«ثم إن إصرارك يا سيدي على أن تركب رأسك وعلى أن تتدخّل عنوة في حياتي العامة والخاصة، أمر يتجاوز الحدود التي تفرضها أبسط مبادىء الأدب، وأدق قواعد التعامل بين الناس في هذه الحياة، ومن نافل القول أن أذكّرك بما فعلت يا سيدي حين اغتصبت أوراقي وحين غششت وخادعت على حساب سمعتي، بهدف الحصول على رضى رؤسائنا، وهو شيء لا تستحقه البتة. ومن نافل القول أيضًا أن أفيض في الكلام على أسلوبك المُهين المقصود الذي عمدت إليه للتهرب من مفاتحتك في الأمر مفاتحة كان لا بد منها».

«ولا أريد أخيرًا أن أشير إلى تصرفك الغريب في المطعم، أقول الغريب حتى لا أقول الشاذ، ولست أحب طبعًا أن أندب روبلًا لا قيمة له عندي، ولكني لا أستطيع أن أكظم استيائي حين أتذكر تلك الطعنة التي وجهتها إلى شرفي يا سيدي وذلك بحضور أشخاص لا شك أنهم أناس ينتمون إلى بيئة راقية رغم أنني لم أشرف بمعرفتهم...».

قال جوليادكين يخاطب نفسه: «أتراني لم أسرف؟ أتراني لم أبالغ؟ هذه الإشارة إلى البيئة الراقية، أليس لها وقع مهين؟... ولكن لا بأس... فلا بد من إظهار شيء من الحزم والصلابة. ومع ذلك، أستطيع، لتخفيف وقع ذلك في نفسه، أن أدسّ في آخر

الرسالة ملاطفة من الملاطفات تتملقه وترضيه. فلنر ماذا نستطيع أن نفعل من أجل هذا».

وأضاف يكتب: «ما كنت لأسمح أن أزعجك برسالتي هذه يا سيدي لولا اقتناعي العميق بأن نبل عواطفك واستقامة خلقك سيمليان عليك الإجراءات التي ينبغي لك اتخاذها إصلاحًا لما أفسدت حتى تعود الأمور إلى ما كانت عليه في الماضي.

وإني، والأمل يملأني، لأسمح لنفسي أن أعتقد أنك لن ترى في رسالتي هذه ما يؤذي شعورك أو يخدش كرامتك، وأنك لن تضنّ عليّ برسالة تبعث بها إلى خادمي شارحًا الأمر.

وبانتظار جوابك يشرفني يا سيدي أن أكون خادمك المخلص جدًا

ي. جوليادكين»

ما إن فرغ جوليادكين من كتابة رسالته حتى قال لنفسه: «عظيم! سُوّيت المسألة... وصلنا في الأمر إلى مرحلة المراسلة. ذنب من هذا؟ هو ذنبه طبعا! إنه هو الذي ألجأني إلى ضرورة مفاتحته كتابة. أنا على حق...».

وأعاد السيد جوليادكين قراءة رسالته مرة أخيرة، ثم طواها ووضعها في ظرف، ونادى بتروشكا. دخل الخادم متورّم العينين من النعاس على عادته، وكان يبدو عليه أنه منزعج انزعاجًا شديدًا.

قال له مولاه:

- سوف تحمل هذه الرسالة يا صديقي... هل تفهم؟

ولكن بتروشكا ظل أبكم لا ينطق.

- سوف تأخذ هذه الرسالة فتحملها إلى القسم الذي أعمل فيه بالمكتب، وهناك سوف تسأل عن الحاجب المناوب، وهو اليوم فاخرامايف... هل تفهم؟

- أفهم.

- أفهم؟! ألا تستطيع أن تقول: نعم أفهم يا سيدي؟ طيب... ستسأل إذًا المستخدم فاخرامايف فتقول له اسمع: إن مولاي يبعث إليك بتحياته ويرجوك ضارعًا، أن تبحث في دفتر العناوين الموجود في دائرتنا عن المكان الذي يسكن فيه الموظف جوليادكين.

ظل بتروشكا أخرس لا ينبس بحرف. وخيِّل إلى السيد جوليادكين أنه رأى ابتسامة تلوح على شفتيه.

- طيب. إذًا ستسأله عن عنوان ذلك الموظّف الجديد الذي يسمى جوليادكين.

- حاضر.

- ستسأله عن هذا العنوان، فمتى حصلت عليه مضيت تحمل الرسالة إلى ذلك العنوان الذي سيذكره لك هل تفهم؟

- أفهم.

- فإذا وصلت إلى المكان... أقصد المكان الذي ستحمل إليه الرسالة، فرأيت السيد الذي عليك أن تسلمه الرسالة... أعني جوليادكين هذا... ما أن لك تضحك يا أبله؟

- لست أضحك. ليس هناك ما يدعو إلى الضحك. ذلك أمر لا يعنيني لا شأن لي أنا به. لا شيء في نظري مضحكًا.

- طيب... في هذه الحالة، إذا رأيت أن ذلك السيد قد أخذ يسألك عن مولاك كيف حاله، أقصد كيف صحته... أعني إذا ألقى عليك أسئلة من هذا النوع... فلا تجبه بشيء، وحسبك أن تقول له: «مولاي بخير... وهو يرجوك أن تبعث إليه بجواب مكتوب». هل فهمت؟ هيا إذا فاذهب.

«آه من هذا الأبله كم يتعبني! إنه يقضي وقته مستهزئًا... مِمَّ يضحك؟ ألا إنني في مأزق رهيب! أنا حقًا في مأزق رهيب! على كل حال، قد تكون الخاتمة حسنة... إن هذا الوغد سينفق ساعتين كاملتين متسكعًا في الطريق... لا شك أنه سيتوقف في مكان ما... يستحيل على المرء أن يعهد إليه بمهمة، آه... ما هذه المصيبة، ما هذه المصيبة التي تسقط على رأسي!

كان بطلنا شاعرًا بجميع المصائب التي نزلت عليه، فقرر أن يهدّئ روعه قليلًا، خلال ساعتين على الأقل، بانتظار عودة بتروشكا. وظل يضطرب في الغرفة ساعة برمتها: دخّن غليونًا ثم تركه، وحاول أن يقرأ، واضطجع أخيرًا على الأريكة وتناول غليونه مرة أخرى، ثم تركه واستأنف طوافه المسعور في الغرفة. ودّ لو يتأمل، لو يفكر. ولكنه كان عاجزًا عجزًا مطلقًا عن تركيز ذهنه. كان وضع الإنتظار هذا أشبه باحتضار. فقرّر أن يغيّر خطته. قال لنفسه، إن بتروشكا لن يعود قبل انقضاء ساعة. فأستطيع أن أضع المفتاح عند بواب العمارة، وأن أستفيد من هذا الوقت في القيام بتحرّيات... نعم القيام بتحريات أتولاها بنفسي. ثم، لرغبته في القيام بهذه التحريات على وجه السرعة دون أن يضيِّع لحظة من وقت، لم يلبث أن تناول قبعته وخرج من المنزل، فأغلق الباب بالمفتاح دورتين ومضى إلى البواب فأودعه المفتاح وأعطاه مع المفتاح «بقشيشًا» عشر كوبكات. يجب أن نذكر في هذه المناسبة أن السيد جوليادكين قد أصبح في هذه الآونة الأخيرة كريمًا كرمًا لم يُعهَد مثله فيه.

خرج السيد جوليادكين إلى الشارع وانطلق إلى الهدف الذي رسمه لنفسه. سار أولًا نحو جسر اسماعيلوفسكي فلما بلغه بعد نصف ساعة، دخل بغير تردد إلى فناء العمارة التي كان يعرفها حق المعرفة، ورفع عينيه نحو نوافذ مسكن مستشار الدولة بيرنديف...

كانت جميع النوافذ مظلمة إلا ثلاثًا تحجبها ستائر حمر، فقال بطلنا لنفسه: «ليس لدى أولسوفي إيفانوفتش مدعوون في هذا المساء والأسرة كلها باقية في المنزل».

لبث السيد جوليادكين لحظة طويلة في فناء العمارة مترددًا لا يدري ماذا يفعل. وأوشك أن يتخذ قرارًا، لكنه غيّر رأيه في آخر لحظة، فحرَّك يده بإشارة تدل على التململ، وغادر المكان. قال لنفسه وهو في الفناء: «لا... ما إلى هنا يجب أن أجيء! ما عساني أفعل هنا؟... الأفضل أن أمضي أقوم بتحرياتي بنفسي... فلما اتخذ هذا القرار اتجه نحو مكتبه. كان عليه أن يسير مسافة طويلة شاقة في الوحل. وكان الثلج المبلل يتساقط أسناخًا كبيرة. ولكن كان بطلنا في تلك اللحظة لا يبالي بالعقبات. لقد تبلل حتى العظام، وتلوّث بالطين، ولكنه لم يكن يعبأ بذلك كله. «المهم أن أبلغ الهدف المرسوم»، كذلك كان يردّد لنفسه. وكان السيد جوليادكين يقترب من غايته فعلًا. فها هو ذا يبصر من بعيد أمامه تلك الكتلة القائمة، ذلك المبنى الضخم الذي تشغله الإدارة العامة. قال لنفسه: «قف.. إلى أين أنا ذاهب؟ ما عساني فاعلًا هنا؟... هبني عرفت العنوان!... إن بتروشكا سيكون في أثناء هذا الوقت قد عاد إلى البيت حاملًا جوابه... فأنا إذًا أضيع وقتاً ثمينًا... لقد بددت وقتًا سدى! على كل حال، لا ضير... ما زلت أستطيع أن أتدارك كل شيء... ولكن ألا يكون من المفيد حقًا أن أذهب إلى فاخرامايف؟... لا... لا داعي إلى ذلك... سأذهب إليه في وقت آخر.. آه.. لم يكن بي أية حاجة إلى الخروج من البيت.. هذه خصلة في طبعي.. دائمًا متعجل، سواء أكان هناك ضرورة أم لا... دائمًا متعجل إلى استباق الحوادث... همم.. كم الساعة الآن؟ إنها تقارب التاسعة ولا شك... فماذا إذا عاد بتروشكا فلم يجد أحدًا؟ حقًا لقد ارتكبت بالخروج حماقة... آه... ما كان أغناني عن هذه المغامرة!».

بعد هذا الإعتراف الصادق بأن سلوكه كان حماقة، أخذ بطلنا يركض نحو مسكنه فوصل لاهثًا يكاد يختنق، فأعلمه الخفير أنه لم ير حتى أثرًا لبتروشكا.

قال بطلنا لنفسه: «تمامًا... هذا ما توقعته... ومع ذلك فالساعة الآن هي التاسعة!... يا للوغد الدنيء!.. إنه لا ينفك يسكر! رباه رباه! ما هذه الأقدار! يا لهذا اليوم من يوم!...».

وصعد السيد جوليادكين السلم ممتلئ الرأس بهذه الخواطر وهذه الشكاوى، ففتح باب بيته، وأشعل شمعة، وخلع ملابسه، ثم اضطجع على الديوان جائعًا، مرهَقًا، مكدودًا، محطم الأعضاء، ينتظر عودة بتروشكا، كانت الشمعة تسكب ضياءها الشاحب على الجدران... والسيد جوليادكين أمضى زمنًا طويلًا يفكّر وينظر حواليه، إلى أن نام آخر الأمر نومًا كالرصاص ثقلًا.

ثم لم يصحُ من نومه إلا في ساعة متأخّرة. كانت الشمعة قد ذابت تقريبًا فهي الآن تدخّن وتوشك أن تنطفئ. نهض السيد جوليادكين بوثبة وانتفض واقفًا، فسرعان ما تذكّر كل شيء، نعم كل شيء. إنه يسمع شخير بتروشكا قويًا من وراء الحاجز. وهرع نحو النافذة. ما من ضياء في الأفق. وفتح كوة من الكوى إن كل شيء صامت. المدينة نائمة، كأنها ميتة، لا شك أن الساعة هي الثانية، وربما الثالثة... وانطلقت ساعة الحائط تدق دقتين. أسرع السيد جوليادكين إلى حجرة خادمه.

فاستطاع بعد جهود كثيرة أن يوقظه، وكانت الشمعة قد انطفأت أثناء ذلك، فأنفق السيد جوليادكين ما يزيد على عشر دقائق في البحث عن شمعة أخرى وفي إشعالها،

فلما عاد إلى بتروشكا وجده قد نام من جديد.

«وغد دنيء، خليع حقير.. هلا صحوت؟ هلا قمت؟» كذلك أخذ يردّد السيد جوليادكين وهو يحاول أن يوقظ بتروشكا. واستطاع بعد نصف ساعة من جهود متصلة أن يوقظه آخر الآمر، فنقله إلى غرفته، ولاحظ عندئذ أنه منطفئ سكرًا، لا يكاد يستطيع الانتصاب على ساقيه، فقال له:

- يا كسلان، يا وغد، يا لص! هل تعرف أنك تطعن قلبي، هل تعرف أنك تقتلني قتلًا؟ آخ يا رب! ترى ماذا صنع برسالتي يا رب! ماذا صنع بها؟ ولماذا كتبت أنا هذه الرسالة؟ ما كانت حاجتي إلى كتابتها؟ اندفعت مرة أخرى في حماسة لا داعي إليها! غروري هو الذي حضّني! غروري هو الذي ورّطني... ماذا صنعت برسالتي يا لص! لمن أعطيتها؟

- ما أعطيتها لأحد... ثم إنه لم يكن معي رسالة....

عض السيد جوليادكين يديه من شدة حنقه، ثم قال لخادمه:

- استمع إليَّ يا بطرس! أنت سكران؟

- سأسمع.

- إلى أين ذهبت؟ أجبني!

- إلى أين ذهبت؟... ذهبت إلى عند أناس طيبين... ليس هذا عيبًا....

- رباه رباه! ولكن قل لي إلى أين ذهبت أولًا؟ هل مررت بالإدارة... استمع إليّ يا بطرس! أنت سكران؟

- أنا، سكران؟ أ... أبـ... أبدًا... فلأمت إذا كنت أكذب!

- لا... لا... لا مانع أن تكون سكرانًا... أنا ألقيت عليك هذا السؤال عَرَضًا، بل حسن أن تكون سكرانًا... ليس عيبًا أن تكون سكرانًا يا بتروشكا... ليس عيبًا أبدًا. لا شك أنك نسيت الآن مؤقتًا.. ولكنك ستتذكر.. قل لي: هل تتذكر أنك ذهبت إلى الموظف فاخرامايف؟ هل ذهبت إليه؟ نعم أم لا؟

- لا.. لم أذهب إليه... لم أضع قدمي عنده... وهذا الموظف لا وجود له... أنا مستعد لأن...

- لا يا بطرس، أقول لك: لا... اسمع يا بطرس.. أنا لست غاضبًا منك.. أنت ترى أنني لست غاضبًا.. ما الذي حدث؟ لا شك أن الجو بارد ورطب في الخارج، لذلك شربت قليلًا... لا مانع... أنا لست غاضبًا. أنا أيضًا شربت قليلًا يا أخي.. هيا... ابذل بعض الجهد... حاول أن تتذكّر، قل لي كل شيء يا أخي.. هل ذهبت إلى الموظف فاخرامايف؟

- طيب... ما دام الأمر كذلك... فأنا أحلف لك بشرفي أنني ذهبت إليه... وأنا مستعد لأن...

- حسنًا... طيب جدًا يا بتروشكا... حسن جدًا أنك ذهبت إليه.. أنا لست غاضبًا... أنت ترى أنني لست غاضبًا... هيا...هيا (كذلك تابع بطلنا يخاطب خادمه، مظهرًا ثقته به، مبتسمًا له، مربِّتًا على كتفه)، هيا قل لي اعترف لي... لقد شربت قليلًا يا عفريت... قليلًا فقط... شربت بعشرة كوبكات لا أكثر.. آه منك يا شيطان.. طيب.. لا بأس أنت ترى أنني لست غاضبًا. لست زعلان يا أخي، لست بزعلان أبدًا.

- لا.. أنا لست شيطانًا.. أؤكد لك.. وأنا ذهبت إلى أناس طيبين.. أنا لست شيطانًا.. ولم أكن شيطانًا في يوم من الأيام...

- ولكن لا... يا بتروشكا.. اسمعني يا بطرس.. أنا لم أقصد سوءًا. واضح أنني لم أقصد سوءًا، ليس شتيمة أن يوصف امرؤ بأنه شيطان. أقول لك هذا لأطمئنك. أنت تعلم يا بتروشكا أنه يقال لأحد الناس في بعض الأحيان إنه شيطان أو لئيم، أو خبيث من قبيل المدح لا الذم.. معنى هذه الصفات عندئذ هو أنه حاذق، وأنه لا يستطيع أحد أن يخدعه. بعض الناس يحبون هذا النوع من التعابير. هيا هيا ليس هذا بشيء. هيا قل لي الآن يا بتروشكا، قل لي بإخلاص وصدق، من دون أن تخفي شيئًا، هل ذهبت إلى الموظف فاخرامايف، وهل أعطاك العنوان المطلوب؟

- نعم أعطاني العنوان فهو رجل طيب، ثم لقد قال لي: «مولاك رجل شريف، رجل شهم جدًا. أبلغه تحياتي... بلِّغ مولاك تحياتي وقل له إنني أحبه واحترمه. هو رجل شهم يا بتروشكا، وأنت كذلك يا بتروشكا، أنت فتى شهم حقًا». هذا ما قاله لي...

صاح السيد جوليادكين مختنقًا:

- آه يا رب! والعنوان.. العنوان... يا يهوذا!

- العنوان؟ أعطاني العنوان...

- أعطاك العنوان؟ طيب.. فأين يسكن إذًا جوليادكين هذا... أين يسكن هذا الموظف جوليادكين؟

- قال لي: «جوليادكين يسكن في شارع «الدكاكين الستة» على اليمين في هذا الشارع بالطابق الثالث، هناك يسكن جوليادكين...».

أعوَلَ جوليادكين صائحًا وقد خرج عن طوره من فرط الحنق:

- يا لص، يا مجرم.. عني إنما تتكلم أنت، عني أنا. أما أنا فأكلمك عن شخص آخر، عن جوليادكين آخر. لص!

- كما تحب. أنا لا فرق عندي. لك ما تشاء.

- والرسالة؟ ماذا فعلت بالرسالة يا قليل الحياء؟

- الرسالة أعطيتها، أعطيتها... وقال لي: «أبلغ مولاك تحياتي. إن مولاك رجل شهم.. أبلغه سلامي...».

- من قال لك هذا؟ أهو جوليادكين؟

صمت بتروشكا لحظة، ثم ابتسم كاشفًا عن جميع أسنانه، وتفرّس في مولاه محدقًا.

قال جوليادكين وهو يختنق حنقًا:

- اسمع يا لص.. أجبني... ماذا فعلت؟ ما صنعت بي؟ لقد قتلتني يا شقيّ، قتلتني.. دققت عنقي.. ذبحتني يا يهوذا؟

قال بتروشكا بلهجة حازمة وهو يتراجع خلف الحاجز:

- كما يحلو لك.. أنا لا فرق عندي.

- تعال هنا.. ارجع إلى هنا يا لص.

- لا لن أرجع، لا داعي إلى الرجوع. أفضّل أن أذهب إلى عند ناس طيبين.. ناس طيبين يعيشون عيشة شريفة.. ناس طيبين لا يغشون ولا يزيفون.. لا يزدوجون.. لا يصبح أحدهم اثنين.. لا يصبح مِثْلين...

هنا أحس السيد جوليادكين بأن يديه وقدميه تجمدت كالجليد.

أصبح لا يستطيع أن يتنفّس. وتابع بتروشكا يقول:

- تمامًا.. لا يزدوجون.. لا يصبح أحدهم اثنين.. لا يصبح أحدهم مثلين. لا يسيئون إلى الله ولا إلى البشر الشرفاء.

- أنت سكران يا حقير.. نم الآن يا لص. وغدًا أؤدبك.

كذلك دمدم جوليادكين بصوت لا يكاد يُسمع. أما بتروشكا فكان يجمجم بأقوال لا يمكن أن يُفهم منها ما يقول.

سمعه بطلنا يضطجع على سريره، فقد صرت نوابض السرير، وتثاءب بتروشكا تثاؤبًا طويلًا ذا صوت، وتمطّى، وغط أخيرًا في نوم عميق وراح يشخر.

كان السيد جوليادكين أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، وكان سلوك خادمه وتلميحاته الغريبة - وهي في الحق أغمض وأبعد من أن تسبب هذا الغضب كله لدى السيد جوليادكين، لا سيما وأنها صادرة عن سكران - قد قلب نفسه رأسًا على عقب. لا شك أن الأمر أخذ يجري مجرًى سيئًا.

دمدم السيد جوليادكين يقول لنفسه بينما كان جسمه كله يرتعد بتأثر إحساس غريب مزعج: «ماذا دهاني حتى أيقظته هكذا في قلب الليل؟ ماذا دهاني حتى مضيت أتشاجر مع رجل سكران؟ ما عسى يُنتظر من رجل سكران؟ إنه يكذب في كل لحظة. ولكن إلى ماذا كان يلمّح هذا اللص؟

آه... يا رب! ولكن قل لي يا جوليادكين! لماذا كتبت هذه الرسالة؟ إنك أنت قاتل نفسك. ألم يكن في وسعك أن تصمت؟ هل كان من الضروري أو من المحتوم أن تخطى؟ أما من طريقة للتوقّف عن إرتكاب الخطأ تلو الخطأ؟ إنك على مسافة إصبعين من ضياعك، أوشكت أن تصير إلى خرقة بالية، وها أنت لا تزل تنهض

محاولًا أن تؤكد غرورك. لقد أساءوا إلى شرفك، فما بالك لا تحاول أن تنقذ شرفك يا قاتل نفسه؟...».

بهذا كان السيد جوليادكين يخاطب نفسه جالسًا على أريكته لا يجرؤ أن يتحرّك، كان مرعوبًا، وفجأة جذب عينيه شيء سرعان ما رأى أنه جدير بأكبر انتباه وأعظم اهتمام، فاضطرب اضطرابًا شديدًا، ومدّ يده إلى هذا الشيء وهو يمتلىء أملًا وخوفًا وحيرة؟ ترى ألم يكن ثمرة هذا سرابًا؟ ألم يكن مجرد وهم من أوهام الحواس؟ ألم يكن ثمرة كاذبة من ثمرات الخيال؟... لا لم يكن هذا سرابًا. لم يكن هذا وهمًا. هي رسالة، رسالة حقًا، رسالة مرسلة إليه شخصيًا. تناول السيد جوليادكين الرسالة خافق القلب حتى ليكاد قلبه ينخلع.

قال لنفسه: «لا شك أن هذا اللص هو الذي أتى بها. لا شك أنه وضعها على الطاولة ثم نسيها. نعم لا شك أن هذا هو ما حدث، لا شك أن هذا بعينه هو ما حدث...».

كانت الرسالة من الموظف فاخرامايف وهو زميل شاب كان في الماضي صديقًا لبطلنا. «لقد تنبأت بهذا كله كما أتنبأ الآن بما تضمه هذه الرسالة». قال جوليادكين هذا لنفسه وأخذ يقرأ:

«عزيزي السيد ياكوف بتروفتش،

إن خادمك سكران، ولا يمكن أن يتفاهم المرء مع سكران. لذلك أوثر أن أرد عليك كتابةً. وأسارع فأؤكد لك أن المهمة التي كلفتني بها، أعني إيصال الرسالة إلى الشخص المرسلة إليه بواسطتي، ستنفذ بأمانة في الموعد المطلوب. وهذا الشخص الذي تعرفه أنت حق المعرفة هو الآن أحد أصدقائي. لن أسميه لأنني لا أحب أن أسيء إلى إنسان بريء كل البراءة. إن هذا الشخص هو الآن واحد من رفاقنا في بنسيون كارولين إيفانوفنا، يسكن في الغرفة التي كان ينزل فيها، أيام كنت واحدًا منا، ضابط المدفعية ذاك الآتي من تامبوف. وأذكر لك عرضًا أنك تستطيع أن تجد هذا الشخص حيثما يوجد شرفاء مخلصون، وتلك من الخصال التي لا يوصف بها جميع البشر. ثم إنني قد عقدت النية جازمًا على أن أقطع كل صلة بك منذ هذا اليوم. فإنه ليستحيل بعد الآن أن نحتفظ بما كان بيننا في الماضي من لهجة الود وعلاقات الصداقة.

لذلك أرجوك يا سيدي، أن تبعث إليَّ فور استلام هذه الرسالة بما لي عليك من دين، وهو مبلغ روبلين هما ثمن موسى الحلاقة المستوردة من الخارج التي بعتك إيّاها دينًا منذ سبعة أشهر. آمل أن تتذكّر هذا من عهد سكنانا معًا عند كارولين ايفانوفنا التي أحترمها من كل قلبي. والسبب الذي يدعوني إلى سلوك هذا المسلك معك هو أنك في رأي جميع الناس العقلاء قد فقدت كل معنى من معاني الشرف والكرامة، وصحبتك أصبحت خطرًا على أخلاق الناس الأسوياء والأبرياء. إن في الحياة أشخاصًا يعيشون بعيدين عن مبادئ الحق والخير، فكل كلمة من كلماتهم كذب وكل موقف من مواقفهم نفاق مشبوه. أما الدفاع عن شرف كارولين ايفانوفنا الفاضلة التي لا غبار على سلوكها، والتي، رغم أنها تقدّمت في السن، هي فتاة بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة وهي سليلة أسرة أجنبية محترمة، فسيبقى هنالك أناس يتولّونه في كل

زمان ومكان، وقد رجاني بعض أصدقائي أن أذكر لك ذلك في رسالتي وأنا أتحمل تبعة ما يقولون.

ومهما يكن من أمر فستعلم بهذا الأمر في حينه إذا كنت لم تعلمه بعد. وقد بلغني من ذلك المصدر نفسه على كل حال أن المجد يكلّلك في هذه الآونة الأخيرة في مختلف أحياء العاصمة، لذلك أفترض أنك أصبحت تعرف منذ الآن رأي الناس فيك. ولا يسعني في ختام رسالتي هذه، يا سيدي، إلا أن أبلغك أن الشخص الذي تعرفه والذي أغفل ذكر اسمه في رسالتي عن عمد حياءً يحظى بتقدير عظيم من جميع كرام الناس، فهو يجمع إلى دماثة الخلق وبشاشة الطبع نشاطًا كبيرًا وهمّة عالية في العمل، لذلك يقدره رؤساؤه وسائر خيار القوم الذين يعيش بينهم. إنه مخلص لما يقول، وفيّ للصداقة، لا يسمح لنفسه يومًا أن يغتاب أولئك الذين تربطه بهم صلات الصداقة على علم جميع الناس.

وفي الختام، أظل خادمك المخلص.

ن.فاخر امايف»

حاشية:

«يجب عليك أن تصرف خادمك، إنه سكّير، ولا شك أنه يسبب لك متاعب كثيرة. استخدم في مكانه أوستاس الذي كان يخدمنا في الماضي وهو الآن بغير عمل. فخادمك ليس سكيرًا فحسب، بل هو لص أيضًا، ففي الأسبوع الماضي باع كارولين إيفانوفنا رطلًا من قطع السكر بسعر بخس، وهذا يحمل على الإعتقاد بأنه قد اختلس هذا السكر من بيتك قليلًا قليلًا كلما سنحت له فرصة.

أذكر لك هذا حرصًا مني على مصلحتك. فلست كبعض الناس الذين لا يهمهم إلا أن يهينوا وأن يخدعوا من يحيطون بهم، ولا سيما الشرفاء الذين لا يسيئون الظن بل يسارعون إلى التصديق وتنطلي عليهم الأكاذيب، ولست كبعض الناس الذين لا ينفكّون يغتابون هؤلاء ويسيئون إليهم خفية، بدافع واحد هو الغيرة منهم وشعورهم بالعجز عن أن يكونوا مثلهم».

ن.ف

ظل بطلنا ساكنًا جالسًا على أريكته لمدة طويلة بعد قراءة رسالة فاخرامايف، إن ضياء جديدًا ينفذ الآن إلى الضباب الكثيف العجيب الذي كان يلفه منذ يومين. أخذ يرى رؤية واضحة.. أراد أن ينهض، أن يسير بضع خطوات عسى أن ينعش فكره ويجمع خواطره ويركّزها على نقطة وحيدة، ويتخذ هكذا في الهدوء قرارًا.

ولكنه ما إن همّ أن يقوم حتى عاد يتهاوى على مكانه نفسه مهدود القوى عاجزًا.

«لقد تنبأت بكل شيء... هذا أكيد... ولكن ماذا يريد أن يقول في رسالته؟ ها هو المعنى الحقيقي الذي يكمن في هذه الرسالة؟ الحق أنني أعرف هذا المعنى. ولكن إلى أين يقودنا هذا؟ لو قد قال لي بوضوح افعل كذا أو كيت.. لو قد أعلن لي بوضوح: يطلب منك هذا أو يطلب منك ذاك، لأطعت... ألا أن المسألة أخذت تجري مجرى مزعجًا.

آه... ليتني في الغد... وددت لو أصل إلى حل العقدة بأقصى سرعة ممكنه. إنني أعرف الآن ماذا يجب عليّ أن أفعل. سأقول لهم ما يلي: أنا موافق على آرائكم، ولكنني أرفض أن أضيّع شرفي.. أما الآخر.. فسنرى... ثم كيف أمكن لهذا الآخر، لهذا الشخص المشكوك فيه، أن يكون له في هذه المسألة ضلع؟ ما الذي أقحمه في هذه القضية؟ آه.. تعال أيها الغد! إنهم الآن يغتابونني ويتواطؤون عليَّ، ويحاولون أن يدهورونـي... المهم ألا أضيّع الوقت سدى.. أظن أنه يُستحسن أن أكتب رسالة على الفور. أن أظهر بعض التسامح، وأن أقدم بعض التنازل.. ثم أبعث بالرسالة في أول ساعة من ساعات الصباح، وأتخذ من جهتي ما يجب أن أتخذه من إجراءات. نعم، ذلك ما ينبغي أن أفعله.. سأشنّ حملة مضادة وسيرون النتائج، هؤلاء الطيور... وإلا فلسوف يجرونني في الوحل وينتهي أمري...».

تناول السيد جوليادكين ورقًا وقلمًا، وحرر الرسالة التالية جوابًا على رسالة السكرتير الحكومي فاخرامايف:

عزيزي السيد نستور أجناتيفتش!

«قرأت رسالتك بدهشة عميقة وحزن صادق. فقد أدركت أنك حين كنت تلمح إلى أشخاص أشرار منافقين إنما كنت تقصدني أنا. إنني لأشعر بمرارة صادقة حين أرى أن النميمة سرعان ما مدّت جذورها الطويلة الكثيرة فأفسدت هدوئي، وأساءت إلى شرفي وسمعتي. وإنه ليحزنني ويحز في نفسي أن أدرك أيضًا أن الشرفاء من الناس، أولئك الذين يملكون أنبل المشاعر وأسمى الأفكار، ويتصفون باستقامة الخلق والطبع، يتخلّون عن مؤازرة الشرف والفضيلة ويتزاحمون بكل قواهم وبكل ما أوتوا من مزايا الغدر المؤذي، الذي لا ينفك ينتشر ويمتد بمزيد من القوة في هذا الزمان القاسي الفاسد، وا أسفاه! أمّا عن دينك عليّ، فإنني أرى أن من واجبي المقدس أن أرد إليك هذين الروبلين. وأما عن تلميحاتك يا سيدي العزيز، تلميحاتك المتصلة بشخص من الجنس اللطيف، وكذلك عن النيّات والأهداف والمطالب التي تنسبها إليه، فإنني أعلن لك يا سيدي أنها لا تزال غامضة في ذهني لم أستطع إلى فهمها سبيلًا، فاسمح لي، يا سيدي العزيز، أن أربأ بسمعتي المحترمة وبعواطفي الرفيعة من أن تُلطخ، وإني مع ذلك لمستعد أن نتكاشف في الأمر بالتخاطب كلامًا متى شئت. فذلك في نظري خير من تبادل الرسائل. وإني لمستعد أيضًا لقبول أية خطوة في سبيل المصالحة شريطة أن تتوافر النية الصادقة المخلصة من شئت الطرفين.

ومن أجل ذلك أرجو منك يا سيدي أن تبلغ الشخص المذكور موافقتي على أن يقوم بيني وبينه حديث شخصي خاص، وأنا أدع له أن يحدّد لاجتماعنا الزمان والمكان اللذين يناسبانه.

وقد قرأت بكثير من المرارة يا سيدي ما ألمحت إليه من أنه كانت لي معك مواقف تزعم أن فيها إهانة لك او إساءة إليك. وكأنك تعتب عليَّ أنني خنت صداقتنا القديمة وأنني أغتبتك وقلت فيك سوءًا. إنني أعتقد بأن مرد هذه الإتهامات إلى سوء تفاهم، أو قل إلى سعايات دنيئة، وإلى الغيرة والكره لدى أولئك الذين يحق لي، واعيًا كل الوعي، أن أعدهم من أعدائي الألداء العتاة. ولا شك عندي في أن هؤلاء يجهلون أن البراءة تحمل قوَّتها في ذاتها، وأن الدناءة والوقاحة، والاستهتار المثير لدى بعض الناس، لا بد أن تلقى عقابها احتقارًا عامًّا في يوم من الأيام، وسيهلك هؤلاء الناس يومئذ جزاء ما جنت أيديهم من سيئات وما حملته قلوبهم من شرٍّ. لذلك أرجو منك يا سيدي أن تبلغ هؤلاء الأشخاص أن أطماعهم الغريبة ورغباتهم الدنيئة والعجيبة في أن يغتصبوا بالقوة المكان الذي يحتّله غيرهم كأنه حقٌّ من حقوقهم، لا يستحقون إلا الاستغراب والاحتقار والاشفاق، ولا يستحقون خاصة إلا أن يُحجزوا في مستشفى من مستشفيات المجانين.

وأضيف إلى هذا أن محاولات من هذا القبيل ممنوعة بحكم القوانين وذلك في رأيي أمر سليم له ما يسوّغه، لأن على كل إنسان أن يقنع بالمكان الذي خُصِّص له. إن

لكل شيء حدودًا، وإذا كان الأمر في الحالة الراهنة أمر مزاح، فإنني أؤكد لك أنه مزاح كريه يدل على سوء ذوق صاحبه، بل يدل على سوء خلقه، وفي وسعي أن أؤكد لك، يا سيدي العزيز، أن المعاني التي عبّرت لك عنها منذ هنيهة بشأن المكان المخصص لكل إنسان، مشتقة من أنبل مبادئ الأخلاق.

وفي الختام، يشرفني أن أبقى خادمك المطيع:

ي. جوليادكين».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل العاشر

لا شك في أن حوادث اليومين الأخيرين قد أحدثت في نفس السيد جوليادكين اضطرابًا عميقًا. كان نومه في تلك الليلة قلقًا. والحق أنه لم يستطع أن يُغمض جفنَيْه أكثر من خمس دقائق. لكأن شخصًا خبيثًا قد نثر على سريره شوكًا. قضى ليلته بين اليقظة والوسن، يتقلب على سريره بغير انقطاع من جنب إلى جنب، ويئنّ ويدندن، فما يكاد يغفو لحظة حتى يستيقظ. إنه نهب غم شديد وخوف هائل، ما تنفك تحاصره ذكريات غامضة ورؤى عجيبة.

إنها ليلة «كوابيس»، لا ينقصها شيء... فتارة يتراءى له وجه آندره فيليبوفتش في ظلام، متجهمًا قاسيًا، عنيف النظرة، لا يرحم، وعلى شفتيه تقريع خشن بارد يهم أن ينطلق... فيريد السيد جوليادكين أن يقترب منه محاولًا أن يبرئ نفسه بطريقة من الطرق، وأن يبرهن له على أنه ليس كما يصوره أعداؤه، وأنه إنسان كسائر الناس، بل وإنه يملك عدا ذلك مزايا كثيرة فُطر عليها... وفيما هو كذلك إذا بوجه آخر يتراءى له على حين فجأة، وجه يعرفه بسهولة من فرجة فمه الوقحة، وإذا بهذا الوجه يدمر جميع محاولات بطلنا في لحظة واحدة، متوسلًا إلى ذلك بحيلة من الحيل الحقيرة الدنيئة، فهو يأخذ يلطخ سمعة بطلنا على مرأى منه ومسمع، وهو يأخذ يسيء إلى كرامته، ويجره في الوحل، ويغتصب في آخر الأمر مكانه في الوظيفة وفي المجتمع... وتارة يشعر بطلنا بورم في جمجمته، نتيجة لطمة أصابه بها أحدهم؛ والمشهد يجري على مرأى من الناس؛ وربما في مكاتب الإدارة نفسها؛ وهو عاجز عن دفع الإهانة... وفيما يحفر بطلنا في دماغه محاولًا أن يفهم سبب عجزه عن الاحتجاج على مثل هذه الإهانة؛ إذا بذكرى اللطمة تتخذ شكلًا جديدًا، شيئًا بعد شيء.

فهو الآن ذكرى جبانة من الجبانات تحاصر ذهنه، جبانة تافهة أو ذات بال... وهو لا يعرف تمامًا هل الأمر أمر شيء شهده أو شيء حدثوه عنه. ولكن لعل هذه الجبانة قد صدرت عنه هو، ولعلها تصدر عنه كثيرًا، مرة تلو مرة، لأغراض حقيرة وأهداف مخجلة... أو لعلها تصدر عنه مصادفة بغير سبب، عن حياء أو عن عجز... فلماذا صدرت عنه هذه الجبانة، نعم لماذا؟... الحق أن السيد جوليادكين كان يعرف حق المعرفة لماذا؟

وهنا يحمرُّ السيد جوليادكين وهو نائم، ويحاول أن يسكت خجله فيؤكد متمتمًا أن عليه أن يظهر شيئًا من قوة الإرادة، بل إن عليه أن يظهر كثيرًا من قوة الإرادة... نعم.. عليه ذلك.. ولكن ما معنى قوة الإرادة الآن؟...». إنما الشيء الذي يُحنق السيد جوليادكين حنقًا شديدًا الآن هو أن ذلك الشخص الكريه نفسه يعود إلى الظهور في تلك اللحظة نفسها. هل دُعيّ إلى ذلك؟ هل جاء من تلقاء نفسه؟ أليس الأمر مدبرًا؟ المهم أنه يظهر مرة أخرى بفرجة فمه الكريهة، ويأخذ يدمدم هو أيضًا قائلًا بابتسامة وقحة: «ما قوة الإرادة هذه؟ هل نملك شيئًا من قوة الإرادة أنا وأنت يا ياكوف بتروفتش؟...».

ورأى جوليادكين نفسه بعد ذلك في صحبة أناس عُرفوا بذكائهم ورقة شعورهم ورهافة ذوقهم. ورأى نفسه لامعًا مرموقًا بتهذيبه الراقي وبديهته الحاضرة. لقد ملك على الحفل قلوبهم. حتى لقد استطاع أن يفتن عقول عدد من أعدائه الذين كانوا حضورًا في الحفل، فسرَّه ذلك سرورًا عظيمًا. كان سيد السهرة من غير منازع... وبلغ السيد جوليادكين ذروة المجد حين سمع رب البيت يمتدحه لأحد المدعوين على انفراد... فطار صوابه فرحًا بذلك، ولكن سرعان ما ظهر ذلك الشخص الكريه القاسي مرة أخرى على حين فجأة. فما هي إلا لحظة حتى كان السيد جوليادكين الأصغر يقلب الوضع رأسًا على عقب. فذهب ما حصله بطلنا من انتصار ومجد أدراج الرياح. إن سميَّه يُكسِف نجمه ويمرّغه في الوحل. وأسوأ من ذلك أنه يجعله في نظر الناس نسخة هو أصلها اللامع، ويبرهن جازمًا على أن بطلنا ليس ذلك الرجل الذي قد توهم به المظاهر، وأن من الواجب إبعاده إذًا من كل مجتمع لامع راقٍ. وقد جرى هذا المشهد بسرعة بلغت من الشدة أن بطلنا لم يتسع وقته لأن يفتح فمه بكلمة، كان شبيهه الدنيء قد استولى على عقول المدعوّين استيلاءً كاملًا، فإذا هم ينأون عن السيد جوليادكين المسكين باحتقار شديد لم يستطع أحد منهم أن يقاوم سحر الغاصب. لقد استأثر بهم جميعًا، واحدًا بعد آخر، من ألمعهم إلى أتفههم. كان هذا الشخص المزيَّف الصلف يعرف كيف يتملّق الناس للوصول إلى مآربه. كان من النعومة والحذق في التملق أن مخاطبه لا يلبث أن يرق له قلبه وتهتز عاطفته، فإذا هو يأخذ ينشج ساكبًا دموع الإنفعال دليلًا على عمق رضاه وقوة انشراحه. وذلك كله يتم في لحظة كومض البرق. إن ما يتصف به تأثير هذا الشخص الخبيث الماكر من سرعة لأمر يُذهل العقل، فما إن يفرغ من الالتفاف على أحد الناس وأسره بالزلفى حتى تراه ينتقل إلى آخر، وما هي إلا بضع كلمات من تملّق تكافئها إبتسامة ودود، حتى يثب بساقيه القصيرتين الصلبتين نحو ثالث وهكذا دواليك: مزيد من عبارات التزلف ومن مظاهر الود؛ فما يكاد المرء ينشق نسمة هواء حتى يكون صاحبنا قد إلتفتَ إلى رابع فظفر به لكأن الأمر سحر.. إن جميع الناس يستقبلونه باشين فرحين، ويعطفون عليه ويميلون إليه، ويحملونه إلى السحب. وهم جميعًا يعلنون على رؤوس الأشهاد أنه بآدابه الرفيعة وروحه الفكهة وفكره النقاد يتفوّق على السيد جوليادكين الأصلي تفوقًا عظيمًا. لقد أذلَّ بطلنا المسكين، بطلنا البريء، وأهانه خصمه وسامه سوء العذاب، إن الناس الآن ينبذون هذا الإنسان الذي يفيض قلبه رحمة ومحبة لأخيه الإنسان، ويرهقونه، ويمطرونه بوابل من اللطمات بأطراف سباباتهم.

ويسرع بطلنا المسكين هاربًا إلى الشارع وهو يرتعد خوفاً ورعبًا وحنقًا. وها هو ذا يبحث عن عربة. إنه يريد أن يطير فورًا إلى صاحب السعادة يشكو إليه أمره، فإن لم يجده فليذهب دون تأخير إلى آندره فيليبوفتش. ولكن ما من حوذيّ يرضى أن يقله وا أسفاه... فالحوذيون جميعًا يقولون له: «لا يا سيدي... يستحيل علينا أن نُقِّل رجلين متشابهين تشابهًا مطلقًا... وما ينبغي لرجل شريف يريد أن يعيش حياة شريفة، أن يكون له مثل...». وينظر السيد جوليادكين حواليه وهو يهذي من فرط الغيظ، فيلاحظ أن الحوذيين، وبتروشكا الذي كان منضمًا إليهم أيضًا، هم جميعًا على حق ما في ذلك ريب. ذلك أن شبيهه الدنيء كان على مسافة خطوتين منه، يتهيأ لمقارفة

وقاحة جديدة على عادته المقيتة، نعم، إن هذا الدجال الكريه الذي يتظاهر في كل مناسبة بأدبه الجَم وعواطفه النبيلة سيرتكب الآن فعلًا حقيرًا، لا يدل حتمًا على شيء من حُسن التهذيب ورهافة الذوق.

فما كان من بطلنا المسكين السيد جوليادكين الأصلي إلا أن فرَّ هاربًا وقد امتلأ قلبه شعورًا بالعار والحزن... إنه يركض الآن قدمًا على غير هدى لا يدري أين يذهب، ولكنه كلما خطى خطوة، وكلما قرعت قدمه أسفلت الرصيف مرة، انبجس إلى جانبه عدوٌّ جديد كأنه يخرج من بطن الأرض، انبجس جوليادكين جديد، انبجس ذلك الدجّال نفسه رهيبًا حقيرًا باعثًا على التقزز والاشمئزاز كما كان ويأخذ هؤلاء الأشخاص، المتشابهون جميعًا، يركضون واحدًا وراء آخر، فكأنهم سرب من الإوز يطارد بطلنا ويلاحقه أصبح بطلنا لا يعرف إلى أين يهرب. أصبح لا يعرف كيف ينجو من هؤلاء الجوليادكين الذين يجرون وراءه. تقطعت أنفاس بطلنا المسكين. وسرعان ما حاصره هؤلاء الأشخاص المتشابهون من كل جهة. إنهم ألوف. إنهم مبثوثون في كل مكان. إنهم يجتاحون جميع شوارع العاصمة. وهذا رجل من رجال الشرطة يرى نفسه مضطرًا أمام هذا التراكم الفاضح إلى أن يمسك بتلابيبهم فيقبض عليهم ويحبسهم في مركز مجاور من مركز الشرطة. واستيقظ بطلنا وقد تجمّد من الخوف والذعر وتحذرت أعضاؤه... فإذا... فإذا هو يرى أن الواقع ليس خيرًا من المنام.. إن حلقه يختنق.. خيّل إليه أن أحدًا يريد أن يلتهم قلبه.. وأصبح السيد جوليادكين عاجزًا عن إحتمال هذا العذاب مزيدًا من الإحتمال.

«لا.. لن يتم هذا»، كذلك أعول يقول عن اقتناع، وهو ينتفض ويرتجف في سريره، وما إن صاح هذه الصيحة حتى استيقظ من نومه تمامًا..

الوقت يبدو ضحى الضوء يغمر الغرفة على غير عادة. أشعة الشمس تتسلل من زجاج النافذة التى تشقق جليدها عن أشكال كأشكال الأزهار، وتنتشر في الحجرة. دهش السيد جوليادكين. إنه لم يألف أن تزوره الشمس قبل الظهر، ولا يذكر أنها خالفت هذه القاعدة إكرامًا له في يوم من الأيام، إذا صدقت ذاكرته. وما إن راودته هذه الدهشة حتى سمع ساعة الجدار ينفلت نابضها الذي يؤذن بأنها ستدقّ. فقال لنفسه وهو يترقب دقات الساعة مغمومًا: «ها.. سنعرف الآن كم الساعة». فما كان أشد دهشته حين لم تدق الساعة إلا دقة واحدة. صاح بطلنا وهو يثب عن سريره قائلًا: «ما هذا؟». وكأنه لم يصدّق أذنيه، فها هو ذا يهرع إلى ما وراء الحاجز، حتى من دون أن يتدثر بشيء: كان عقرب الساعة يشير فعلًا إلى الواحدة... ألقى السيد جوليادكين نظرة على سرير بتروشكا... فلم يجد أثرًا لخادمه، لا على السرير ولا في الغرفة. كان السرير مرتبًا. ولم يجد السيد جوليادكين حذاءي خادمه، وذلك دليل على أن الخادم قد خرج. مضى السيد جوليادكين نحو باب المدخل مسرعًا، فوجده مقفلًا، فأخذ يردد بصوت خافت وقد تملكه انفعال شديد وأخذت أعضاؤه جميعها ترتعش: «ولكن أين بتروشكا؟». وإنه لكذلك إذا بفكرة مفاجئة تومض في ذهنه كالبرق، فيثب نحو الطاولة، فيفتشها وينبش كل ركن من الأركان. نعم، لقد صدق ظنه. إن الرسالة التي كتبها في الليل إلى فاخمارايف قد اختفت.. وبتروشكا غائب.. وعقرب الساعة يشير إلى الواحدة.. ثم إن الرسالة التي تلقاها أمس من فاخمارايف

وكانت تشتمل على نقاط غامضة ها هي ذي تتضح الآن.. لم يبق أي شك في ما يتصل بخادمه بتروشكا: لقد رشوه. لقد رشوه حتمًا رشوه ما في ذلك ريب.

«ها.. هذه هي عقدة القضية كلها إذًا»، كذلك صاح السيد جوليادكين وهو يلطم جبينه. أصبح الآن يرى الأمور رؤية أوضح. «إذًا في مغارة هذه الألمانية الغادرة إنما تدبّر جميع المؤامرات. الآن فهمت. فحين حثتني هذه نحو جسر اسماعيلوفسكي إنما كانت تقوم إذًا بمناورة تضليل، فهي تموه الأمور، وتحرف انتباهي، وتمد الفخاخ في أثناء ذلك. يا لها من ساحرة غدارة! نعم، هذه هي المسألة. كل شيء يصبح واضحًا تمامًا متى نظرنا من هذه الزاوية، وظهور هذا الوغد يصبح واضحًا أيضًا. الأشياء مترابطة. كانوا يدخرونه منذ زمن طويل، كانوا يهيئونه ويعدونه للخروج في اللحظة المناسبة. نعم، أصبح لكل شيء تعليل... أصبح كل شيء مفهومًا.. هذه هي المسألة إذًا. طيب.. لا ضير.. لم يضع بعد كل شيء، لم تفت كل فرصة.. لا يزال في الوقت متسع... وهنا، في هذه اللحظة تمامًا، تذكر بطلنا مذعورًا أن الساعة قد تجاوزت الواحدة بعد الظهر: «ما عسى يكون الحال إذا كان وقتهم قد اتسع منذ الآن لـ...»، كذلك قال السيد جوليادكين لنفسه وأفلت من صدره أنين فقال يطمئن نفسه: «لا... إنهم يكذبون... لم يتسع وقتهم بعد... سوف نرى على كل حال...». ثم أسرع يرتدي ملابسه، وتناول ورقة وريشة، فحرّر الرسالة التالية:

السيد المحترم ياكوف بتروفتش:

إما أنا وإما أنت، يستحيل أن نكون كلانا في وقت واحد معًا! لذلك أعلن لك أن دعواك الغريبة، المضحكة، المستحيلة التحقق في الوقت نفسه، أعني أن تظهر بمظهر الأخ التوأم لي وأن تستغل هذا الظرف، فذلك لن يزيد في آخر الأمر على أن يلطخ شرفك بالعار وعلى أن يضيعك. لذلك أناشدك، في سبيل مصلحتك أن تنسحب، وأن تخلي المكان للناس الشرفاء العقلاء حقًا! وإلا رأيتني مضطرًا إلى اتخاذ إجراءات قصوى. وعلى هذا أضع قلمي منتظرًا جوابك... وأظل تحت تصرفك في جميع الأمور - ومنها المسدسات»

ي. جوليادكين

لما انتهى بطلنا من رسالته فرك يديه بقوة، ثم ارتدى معطفه على عجل، وليس قبعته وفتح باب بيته بالمفتاح، وخرج متجهًا نحو مكتبه.

حتى إذا بلغه تردّد في الدخول. كانت الساعة تشير إلى الثانية والنصف. لقد فات الأوان. غير أن حادثًا لا يدل ظاهره على أن له قيمة لم يلبث أن ذهب بتردّده. ففي ركن من مبنى الإدارة ظهر شخص لاهث أحمر الوجه، يمشي ملامسًا الجدار مشية فأر، ثم يتسلّل إلى درجات المدخل، ويتسلل من هناك إلى الدهليز. إنه كاتب المحكمة أوستافييف. إن السيد جوليادكين يعرفه حق المعرفة. فهو رجل يمكن الانتفاع به، مستعد لكل شيء في سبيل عشرة كوبيكات.

إن السيد جوليادكين لا يجهل هذا التوتر الحساس في أوستافييف الذي لا شك أن تغيبه القصير الذي حمله عليه ظمأٌ قاهر قد زاد ميله إلى النقود الرنانة. وإذ قرر بطلنا أن يبذل كل ما يجب أن يبذله من تضحيات، وثب إلى درجات المدخل وتوغل في الدهليز يلاحق أوستافييف وناداه، ثم انتحى به ركنًا مظلمًا وراء مدفأة ضخمة، وقد لاح في وجهه السر، حتى إذا صار الرجلان هناك أخذ السيد جوليادكين يسأله:

- هيه يا صديقي... ماذا حدث فوق؟ هل أدركت ما أريد أن أقول؟

- أنا أصغي إليك يا صاحب النبالة، وأتمنى لصاحب النبالة صحة جيدة.

- حسنًا جدًا يا صديقي، حسنًا جدًا، سأكافئك يا صديقي. والآن قل لي يا صديقي ماذا يجري هنالك فوق!

قال كاتب المحكمة وهو يخفي بيده جزءًا من فمه الذي أوشك أن ينفرج:

- ما هو السؤال الذي تشرفني بإلقائه عليّ؟

- أنا؟ طيب.. اسمع.. أسألك عن.. ولكن إياك أن يذهب بك الظن إلى أشياء خارقة.. بالمناسبة: هل آندره فيليبوفتش هنا؟

- نعم هو هنا.

- والموظفون الآخرون؟

- هم هنا، كالعادة.

- وصاحب السعادة.

- صاحب السعادة أيضًا.

قال كاتب المحكمة ذلك، وعاد يغلق فمه بيده. وخيّل إلى بطلنا أن أوستافييف يتفرّس فيه بنظرة غريبة تفيض استطلاعًا وتعجبًا.

- إذا يا صديقي لا شيء خارقًا يحدث هناك فوق؟

- لا.. لا شيء البتة.

- طيب يا صديقي، ألم يأت أحد على ذكري بشيء؟... هه؟ ولو عرضًا.. أأنت تفهمني يا صديقي؟

- لا.. حتى الآن لم أسمع شيئًا.

ومرة أخرى وضع كاتب المحكمة يده على فمه، وشفع هذه الحركة بنظرة غريبة ألقاها على مخاطبه. وكان السيد جوليادكين يتفرس هو أيضًا في وجه أوستافييف، محاولًا أن يلتقط أية علامة تكشف عما يخفيه رأس الرجل من أفكار. لا شك في أن هناك سرًا. ثم إن لهجة أوستافييف قد تغيرت. فبينما كان الحديث يجري في أول الأمر بتودد ظاهر ولطف واضح أصبحت لهجة أوستافييف الآن خشنة متكبرة، كان يبدو أنه غير حافل بمصالح السيد جوليادكين.

قال بطلنا لنفسه: «هذا من حقه. ما أنا عنده؟ لعله أخذ مكافأة من الطرف الآخر.. فتغيب من أجل أن.. هذه قوة قاهرة.. يجب عليَّ أن أعطيه أنا أيضًا..».

وأدرك السيد جوليادكين أن ساعة الكوبكات قد دقت.

- خذ.. هذا لك.. يا صديقي.

- أشكر لك كرمك من كل قلبي يا صاحب النبالة.

- سأعطيك المزيد.

- أنا تحت أمرك يا صاحب النبالة.

- سأعطيك اليوم مزيدًا، وسأعطيك أيضًا حين تسوّى هذه القضية كلها. هل تفهم.

وكان كاتب المحكمة المتصلب كأنه وتد، يتفرّس في السيد جوليادكين صامتًا.

- والآن تكلّم.. هل سمعت شيئًا يتناولني؟

- يخيل إلي أنني حتى الآن.. أقصد.. حتى الآن لم أسمع شيئًا.

كان أوستافييف يجيب عن الأسئلة مقطِّرا كلامه كما كان يفعل السيد جوليادكين، محتفظًا بهيئة السر، محرِّكًا حاجبيه، مطرقًا إلى الأرض، باحثًا عن التعبير المناسب؛ أي أنه كان يجهد بجميع الوسائل أن يستحق المكافأة الموعودة، معتقدًا أن المال الذي تلقاه قد أصبح منذ الآن ملكًا له لا يمكن أن ينازع فيه.

سأله السيد جوليادكين:

- ولم يُتخذ أي قرار حتى الآن؟

- حتى الآن.. لم يُتخذ أي قرار.

- طيب.. اسمع.. قد نعرف شيئًا بعد قليل.

- سنعرف شيئًا بعد قليل ما في ذلك ريب.

قال السيد جوليادكين لنفسه: «الأمور تجري مجرى سيئًا». وأردف يخاطب صاحبه:

- خذ.. خذ هذا لك أيضًا يا صديقي.

- شكرًا من كل قلبي يا صاحب النبالة.

- هل كان فاخمارايف موجودًا مساء أمس؟

- نعم.. كان موجودًا.

- ولم يكن أحد معه؟.. حاول أن تتذكر يا صديقي.

غرق كاتب المحكمة دقيقةً طويلةً بين ذكرياته، ولكنه لم يظفر بطائل؛ لم يستطع أن يتذكر شيئًا خاصًا.

- لا.. لم يكن هناك أحد غيره.

- هممم.

وأعقب ذلك صمت.

- إسمع يا صديقي.. خذ هذا لك أيضًا. والآن قل لي الحقيقة.. الحقيقة كلها.

- أنا تحت أمرك.

لقد تأنس أوستافييف الآن. وهذا ما كان يتمناه بطلنا.

والآن قل لي يا صديقي: كيف يعاملونه الآن.

- معاملة عادية، معاملة جيدة جدًّا.

بهذا أجاب كاتب المحكمة وهو يلتهم مخاطبه بعينيه إلتهامًا.

- ماذا تعني بقولك جيدة جدًّا؟

- أعني.. أقصد...

ومرة أخرى أخذ أوستافييف يحرك حاجبيه. الحق أنه أصبح يشعر بأنه محاصر في طريق مسدود محاصرةً لا تنفك تضيق، فهو لا يعرف بماذا يجيب ليخرج من هذه الطريق.

قال جوليادكين لنفسه: «الأمور تجري مجرى سيئًا».

- ألا تعتقد أنه يدبر شيئًا مع فاخمارايف؟

- طبعًا... كالعادة.

- فكر جيدًا.

- يقال إنهما يدبران شيئًا.

- ماذا يدبران؟ قل.. أسرع..

وعاد كاتب المحكمة يضع يده على فمه من جديد.

- أليس ثمة رسائل مرسلة إليَّ من هناك؟

- لقد ذهب الخفير ميخايف في هذا الصباح إلى فاخمارايف... نعم... في البنسيون الألماني. لذلك سأمضي أسأله بعد قليل إذا شئت.

- نعم اذهب يا صديقي. قدم لي هذه الخدمة... أرجوك... ناشدتك الله.. أقول هذا هكذا.. فلا يذهبنَّ بك الظن إلى أي شيء غير عادي. قلت هذا عرضًا.. اتفقنا إذًا يا صديقي... اسأله.. حاول أن تعرف هل يدبر شيئًا ضدي هناك. ماذا يهيئ هو؟ ذلك هو ما يهمني أن أعرفه. إذهب وسأعرف كيف أكافئتك بعد ذلك يا صديقي..

- أنا تحت أمرك يا صاحب النبالة. إن إيفان سيميونوفتش هو الذي حل محلك في المكتب هذا الصباح.

- إيفان سيميونوفتش! ها.. نعم.. هل هذا ممكن؟

- آندره فيليبوفتش هو الذي أمره بأن يحل محلك...

- أهذا ممكن؟ ولكن لماذا؟ حاول أن تعلم يا صديقي.. ناشدتك اللّٰه.. حاول أن تعلم يا صديقي.. حاول أن تعلم، وأنا سأعرف كيف أكافك يا عزيزي. ذلك هو ما يهمني.. ولكن إياك خاصةً أن يذهب بك الظن يا صديقي إلى...

- تحت أمرك.. تحت أمرك.. سأذهب إليه حالًا.. ولكن أليس في نية صاحب النبالة أن يدخل المكتب اليوم؟

- لا يا صديقي.. لا.. لقد جئت إلى هنا عابرًا لا لشيء غير أن ألقي نظرة يا صديقي. اذهب وسأعرف كيف أكافئك في المستقبل؛ هيا يا رئيسي.

- تحت أمرك.

قال كاتب المحكمة ذلك ثم اندفع يصعد السلم وقد امتلأ همةً ونشاطًا. وبقي السيد جوليادكين وحده.

قال لنفسه: «الأمور تجري مجرى سيئًا، سيئًا جدًا، آه! إن وضعنا معرض للخطر. ماذا يعني هذا كله؟ ترى ماذا كان المعنى الدقيق لتلك التلميحات التي قالها هذا السكير؟ من هو الممسك بالأسلاك في هذه القضية؟.. الآن عرفت من هو الممسك بالأسلاك. الآن فهمت القضية كلها، لا شك أنهم علموا.. و... عندئذ أحلوه محلي.. لقد أحلوه هناك، وبعد ذلك؟ إن آندره فيليبوفتش هو الذي أحل إيفان سيميونوفتش محلي. فلأي غرض؟ لا شك أنهم علموا.. هذا من فعل فاخمارايف... لا بل هو من فعل غيره.. إن فاخمارايف غبي، قليل الذكاء بليد! إنهم هم من أطلقوا على هذا الكلب المسعور، للأسباب نفسها.. هم الذين دفعوا تلك الألمانية العوراء إلى رفع شكوى عليّ. ولقد تنبأت دائمًا على كل حال بأن هناك أسبابًا خفية تحملهم على تدبير هذه المكيدة كلّها، وأن ثمة شيئًا يُحاك وراء هذه الثرثرات التي تشبه ثرثرات العجوز الشمطاء... لقد قلت لكريستيان إيفانوفتش، قلت له إنهم آلوا على أنفسهم أن يغتالوني، بالمعنى المجازي لهذه الكلمة طبعًا، وإنهم يستخدمون في سبيل ذلك كارولين إيفانوفنا. إن المرء يشعر بأن هناك يد معلم في هذه القضية يا سادة. لا... ليس هو فاخمارايف. سبق أن قلت ذلك: إن فاخمارياف غبي، أما... أنا أعرف من يدبر هذا كله لهم... إنه ذلك الوعد الحقير، ذلك الدجال المخادع. وهذا ما يفسر تأثيره في الناس ونجاحه بينهم. الحق أن من المهم أن أعرف دوره وامتيازاته على وجه الدقة.. وأن أعرف على أي قدم يعامل هناك؟ ولكن لأي سبب أخذوا إيفان سيميونوفتش؟ ألم يكن في وسعهم أن يجدوا أحدًا غيره؟ النتيجة واحدة على كل حال، سواء أخذوه أم أخذوا غيره، الشيء المحقق أنني أشتبه منذ زمن طويل في إيفان سيميونوفتش هذا، إنني أراقبه منذ مدة طويلة. يا له من عجوز رهيب، عجوز يبعث على الاشمئزاز والتقزز! يظهر أنه يقرض بالربا وأنه جنى أرباحًا كبيرة

كأرباح يهودي! ولكن الدب هو الذي يدبر ذلك كله من الخلف! هو روح المؤامرة. كذلك بدأت المسألة.. بدأت من جسر اسماعيلوفسكي.. نعم لقد انطلق كل شيء من هناك!.

جعد السيد جوليادكين خده كأنه عضَّ قشرة ليمونة. لا شك أن ذكرى مزعجة قد استيقظت في ذاكرته قال لنفسه: «أوه.. على كل حال.. ليس لهذا كله كبير شأن لنعد إلى أعمالنا. لماذا تأخر أوستافييف؟ لا شك أن أحدًا قد استوقفه. أحسب أن من حقي أن أمكر أنا أيضًا، وأن أنصب بعض الشباك. يكفي أن أعطي أوستافييف بضع قطع نقود أخرى... فينحاز إلى جانبي. ومع ذلك يجب أن أعرف هل هو حقًا في جانبي.. لعلهم رشوه هو أيضًا.. ربما كان ضالعًا في المؤامرة! إن هيئته هيئة لص، لص عريق. إنه يخفي لعبته هذا الوغد! لا ينفك يقول لك: "لا.. لا يوجد شيء قط.. أشكرك من كل قلبي يا صاحب النبالة.. لك كل امتناني...". آه... يا له من لص عريق!».

وفجأة سمع السيد جوليادكين وقع خطوات. فأسرع يلطو وراء المدفأة. نزل أحدهم على السلم وخرج إلى الشارع. تساءل بطلنا: «من عساه يخرج في هذه الساعة؟»، وبعد بضع لحظات سمع مرة أخرى وقع خطوات على السلم. فلم يستطع أن يصبر، بل جازف فمد أنفه.. لكنه لم يلبث أن سحبه كأن إبرة وخزته. إن الرجل الذي كان هابطًا على السلم ليس إلا ذلك الوغد الحقير، ذلك النصاب المغتصب، ذلك الفاجر المكار! كان يتقدم بخطاه القصيرة المعهودة، بمشيته الوقحة المكردَحَة، رافعًا قائمتيه القصيرتين عاليًا، كمن يريد أن يضرب بهما أحدًا. بطلنا يقول: «سافل.. دني». ولكن بطلنا لم يفته أن يلاحظ أن السافل الدنيء كان يتأبط المحفظة الخضراء الضخمة، محفظة صاحب السعادة. قال السيد جوليادكين لنفسه: «وهذه مهمة خاصة أخرى»، قال ذلك وقد إحمر وجهه غضبًا، وأقعى مزيدًا من الإقعاء، وما كاد الوغد يختفي، دون أن يخطر بباله أن يكون بطلنا حاضرًا، حتى سمع المحكمة. لقد شعر السيد جوليادكين بذلك فورًا. وما هي إلا لحظة حتى ظهر خلفه وجه مدهش هو وجه كاتب آخر من كتاب المحكمة اسمه بيسارنكو. صعق السيد جوليادكين من ذلك. قال لنفسه: «لماذا يقحم في هذه القضية! آه من هؤلاء الهمج!.. لا حرمة عندهم لشيء...».

ثم قال يخاطب بيسارنكو:

- هيه يا صديقي، هل من جديد؟ من ذا أرسلك يا صديقي؟ جئت من أجل قضيتك الصغيرة. حتى الآن ما من نبأ جديد، وسنبلغك متى جاءنا نبأ جديد.

- وأوستافييف؟

- يستحيل أن يتغيب يا صاحب النبالة. لقد قام صاحب السعادة بجولة على المكاتب مرتين. ثم إن وقتي لا يتسع أنا أيضًا...

- شكرًا يا عزيزي شكرًا، ولكن قل لي...

- ليس في وقتي متسع، أحلف لك... إنهم ينادوننا في كل لحظة... إبق هنا لحظة.. فإذا علمنا شيئًا جديدًا يتصل بقضيتك... أبلغناك...

- طيب يا صديقي طيب. اقتراحك جيد جدًّا يا صديقي العزيز. والآن شيء آخر: إليك هذه الرسالة يا صديقي، وسأكافئك يا عزيزي.

- تحت أمرك.

- حاول أن توصلها إلى السيد جوليادكين.

- جوليادكين؟

- نعم إلى السيد جوليادكين يا صديقي.

- حاضر. متى انتهيت من الأعمال المستعجلة، سأحمل الرسالة إليه. أما أنت فابق هنا إلى حين. ما من أحد يمكن أن يراك هناك...

- ولكن يا صديقي لا تصدق هذا.. أنا لا أبقى هنا حتى لا يراني أحد. لا يا صديقي لن أنتظر هنا، بل في الشارع الصغير، على جانب. يوجد هناك مقهى. سأنتظر فيه، فإذا بلغك شيء فلا تتأخر عن نقله إليَّ. هل فهمت؟

- طيب، فهمت. والآن دعني أنصرف.

- وسأكافئك يا عزيزي.

كذلك هتف جوليادكين يقول لكاتب المحكمة الذي تملص وابتعد. قال بطلنا لنفسه وهو يخرج من وراء المدفأة: «إن هذا الوغد يصبح أكثر وقاحة.. آ.. إن وراء الأكمة ما وراءها.. هذا واضح. في أول الأمر لم يكن هناك إلا شيء من كتمان... على كل حال ربما كان مستعجلًا حقًا. لا شك أنه مشغول كثيرًا. إذًا لقد تفقد صاحب السعادة المكاتب مرتين.. لماذا؟... لا بأس.. قد لا يكون لهذا كبير شأن. لننتظر ونرى...

وهم السيد جوليادكين أن يفتح الباب ليخرج، ولكنه سمع في هذه اللحظة قرقعة عربة تقف أمام المدخل. إنها عربة صاحب السعادة. ولم يكد السيد جوليادكين يثوب إلى رشده حتى كان باب العربة قد فتح، فإذا برجل ينزل من العربة ويصير على درجات المدخل بوثبة واحدة. ولم يكن هذا الرجل إلا جوليادكين الأصغر نفسه الذي كان قد غادر الوزارة منذ عشر دقائق. تذكر بطلنا عندئذ أن منزل صاحب السعادة قريب من الوزارة، على مسافة خطوتين منها.

قال بطلنا لنفسه: «هي مهمة خاصة. ذلك واضح لا ريب فيه». ولكن الدجَّال كان قد فتح باب المدخل بعد أن أصدر إلى الحوذي بعض الأوامر. إنه لا يزال يتأبط المحفظة الضخمة الخضراء، محفظة صاحب السعادة، مع أوراق أخرى. وحين فتح الباب أوشك أن يصدم بطلنا، ولكنه تظاهر بأنه لم يلاحظ وجوده فكانت هذه إهانة جديدة لبطلنا. واندفع يصعد السلم راكضًا.

قال بطلنا لنفسه: «الأمور تجري مجرى سيئًا... إن وضعي معرض للخطر... أما هذا... آه يا رب!...». وظل بطلنا ساكنًا في مكانه نصف دقيقة. ثم لم يلبث أن اتخذ قرارًا، فإذا هو يجري صاعدًا السلالم ملاحقًا سميَّه. كان قلبه يخفق خفقانًا شديدًا. وكان يحس برعدات تسري في جميع أعضائه. «لا بأس... من لم يجازف بشيء لم يظفر بشيء. ثم إنني في هذه القضية كلها لست إلا مشاهدًا...». كذلك كان يردّد السيد جوليادكين وهو يخلع قبعته ومعطفه وجرموقيه في حجرة المدخل.

كان الغسق يرين على جو المكتب، حين دخل السيد جوليادكين، لم يبصر لا آندره فيلييوفتش ولا أنطون أنطونوفتش. كانا كلاهما في إجتماع بمكتب المدير. وكان المدير من جهته يستعجل الذهاب إلى صاحب السعادة فيما يظهر، وكان معظم الموظفين، ولا سيما الشباب منهم، قد استغلوا فرصة هذا الغياب وهذه العتمة، فقعدوا عن العمل واستسلموا للفراغ بانتظار ساعة إغلاق المكاتب. وقد تألفت منهم جماعات تثرثر وتتمازح وتضحك، حتى إن بعض الموظفين الشباب، وهم أدناهم رتبًا، قد أخذوا يلعبون قرب النافذة لعبة «الطرَّة والنقش» في غمرة هذه الفوضى العامة. وهذا بطلنا الذي يعرف شؤون الإدارة حق المعرفة، ويرغب في إلتقاط بعض المعلومات النافعة، فيقترب من عدد من الموظفين هم الذين بينه وبينهم مودة، محاولًا أن يسلّم عليهم. فما كان أشد دهشته وأقساها حين لاحظ ما في لهجة أجوبتهم من غرابة وتهرب!.. لقد بدا له وضعهم باردًا جافًا، بل قاسيًا. لم يمد أحد له يده واكتفى بعضهم برد التحية مختصرة ثم ابتعد عنه، ولم يزد بعضهم الآخر على أن رد التحية بحركة صغيرة من الرأس. حتى إن أحد زملائه أشاح بوجهه عنه من دون أن يرد التحية أصلًا. ثم كانت الإهانة الكبرى، وهي أن عددًا من الصبيان السعاة الذي ليس لهم رتب البتة والذين لا يجيدون شيئًا غير لعبة «الطرة والنقش»، وغير التسكع في الأماكن المشبوهة، على حد تعبير السيد جوليادكين، قد تجمعوا حوله ثم أحاطوا به إحاطة تامة فلا يستطيع أن يخرج من النطاق الذي أحكموا ضربه عليه، وأخذوا يتفرسون فيه باستطلاع وتعجب واحتقار.

ذلك نذير سيئ. لقد أدرك السيد جوليادكين ذلك، فقرر ألا يوليه أي انتباه. غير أن حادثًا لم يكن في الحسبان قط، جاء يفسد عليه خططه فجأة، ويبدد آماله كلها جملة.

فمن جمع الشبان الموظفين الذين تحلقوا حول بطلنا في هذه اللحظة المشؤومة، لم يلبث أن ظهر له سميُّه على حين بغتة. كان السيد جوليادكين الأصغر مرحًا، فرحًا نشيطًا على عادته نعم كان كثير الحركة، متواثب الخطى، ساخر اللهجة، شديد التملق حاضر البديهة، سريع الجواب، خفيف الساقين، على عهده به، على ما كان دائمًا، ولا سيما أثناء تلك الجلسة التي لا يزال بطلنا يحتفظ منها بذكرى كاوية جدًّا. إنه يدور ويطير مبتسمًا ابتسامةً تكشف عن أسنانه، ابتسامةً تحيي الجميع. فما هي إلا ثوان حتى كان في وسط الجماعة يصافح الأيدي ويربت على الأكتاف ويمسك بذراع هذا، بينما هو يشرح لذاك المهمة التي عهد بها إليه صاحب السعادة. تكلّم عما قام به من مساع وما بذله من نشاط وما حصل عليه من نتائج حتى لقد مضى به الأمر إلى حد أنّه قبّل أحد الموظفين على شفتيه، وهو خير أصدقائه ولا شك... الخلاصة أن كل شيء جرى على نحو ما رآه السيد جوليادكين في منامه. وبعد هذه

الأنواع من الرياء المتصنّع والكلام الكاذب والتقبيل المتملق مع جميع الناس، بدا للسيد جوليادكين الأصغر، على حين فجأة، أنه نسى أن يحيي أقدم أصدقائه، عن سهوٍ من دون شك، وسرعان ما مد يده إلى بطلنا مسلِّمًا، وسرعان ما تناول بطلنا هذه اليد، عن سهوٍ من دون شك أيضًا، لأنه كان قد استطاع خلال ذلك الوقت كله أن يلحظ مكائد هذا الرجل الدجال، أقول سرعان ما تناول بطلنا هذه اليد التي مدت إليه فجأة على غير توقع، تناولها باندفاع وصافحها بقوة، وأقبل يرد التحية بعاطفة قوية وصداقة خالصة لقد صافح بطلنا يد صاحبه باندفاع روحي وحنان قلبي. أتراه فعل ما فعل لأن هذه البادرة من صديقه الوقع قد خدعته، أم لأن سرعتها فاجأته، أم لأنه شعر في هذه اللحظة بعجزه لا أكثر من ذلك، ولا أقل؟ من الصعب عليَّ أن أقطع في هذا برأي. وإنما المهم أن السيد جوليادكين، بكامل صحوه وملء إرادته، صافح مصافحة قوية، على مرأى من الناس يد ذلك الإنسان الذي كان يعد عدوه اللدود.

فما كان أشد الذهول والحنق والهول والعار الذي شعر به بطلنا حين رأى خصمه، حين رأى عدوه اللدود يغير موقفه فجأة، لقد أدرك الدجال الكريه الخطأ الذي ارتكبته ضحيته البريئة، فإذا هو ينتزع يده من يد بطلنا بحركة مفاجئة فظة متعجرفة، وببرود كامل لا تخالطه أية عاطفة من عواطف الرحمة الإنسانية، ثم إذا هو ينفض يده كمن يريد أن يطهرها من رجسٍ علق بها نتيجة لملامسة تثير الاشمئزاز والتقزّز، وإذا هو يشفع هذه الحركة ببصقة على الأرض وبحركة كريهة وقحة، وإذا هو يزيد على ذلك فيخرج منديله ويأخذ يمسح به أصابع يده التي صافحها بطلنا، وكان المغتصب الدنيء يشفع هذه الحركات كلها بنظرات يجيلها حوله على عادته، كأنه يريد أن يتخذ من الحضور شهودًا على سلوكه الحقير، وهو يتفرس في الأعين كأنه يريد أن ينفخ فيها الكره والاحتقار للسيد جوليادكين، غير أن هذا الموقف المستفز المتحدّي، الذي وقفه هذا الشخص المقيت بدا أنه أثار استنكار الحضور واستياءهم، فقامت هنا وهناك دمدمات واحتجاجات، وسمع السيد جوليادكين هذه الضجة. ولكن الدجال لم يلبث أن طلع على الحضور بمزحة فكهة موفقة، فإذا بالمزحة تحطّم وتبدد آخر آمال بطلنا. لقد مالت كفة الميزان مرة أخرى إلى جهة عدوه القاسي الحقير.

«أنظروا إلى فوبلاس الروسي، إلى فوبلاسنا القومي. اسمحوا لي أن أقدم إليكم أيها السادة الفتى فوبلاس». كذلك دوى صوته رنانًا وقحًا على عادته المألوفة، وهو يتطاير وسط الموظفين مشيرًا إلى جوليادكين الأصلي، الواقف ساكنًا متجمَّدا، ثم أضاف إلى ذلك يقول بلهجة ألفة لا تطاق، وهو يتقدّم نحو الشخص الذي يستهزئ به: «هيا نتعانق يا حبيبي..». ووجدت مزحة هذا الشخص الدنيء صدى حسنًا لدى بعض المشاهدين، لا سيما وأنها تومئ إيماءً مباشرًا وقحًا إلى حادث يبدو أن جميع الناس يعرفونه.

أحس بطلنا بيد أعدائه ثقيلة على كتفيه. فلم يلبث أن اتخذ قرارًا، فإذا هو، وقد اتقدت عيناه واصفر وجهه، وانفرجت شفتاه في جانب، يتملص من الجمهور على نحوٍ من الانحناء ويتجه نحو مكتب صاحب السعادة بخطى مترنحة صغيرة. ولما وصل إلى حجرة المدخل وجد نفسه وجهًا لوجه أمام آندره فيليبوفتش الذي كان خارجًا من

مكتب المدير. كان في الحجرة عدد من الأشخاص ليس لهم أي شأن بهذه القضية، ولكن ذلك لم يؤثر في صاحبنا، فسرعان ما عزم أمره، وجمع شجاعته (وهو يكاد يُدهش من جرأته ويغبط نفسه عليها)، واتجه إلى آندره فيليبوفتش الذي بهتته هذه الهجمة التي لم تكن في الحسبان.

سأله آندره فيليبوفتش دون أن يصغي إلى كلامه المضطرب:

- ها... هذا أنت... ماذا تريد؟

فقال بطلنا بصوت واضح رصين وهو يحدق إلى مخاطبه صامدًا:

- آندره فيليبوفتش... أريد... هل أستطيع أن ألتمس حديثًا خاصًا مع صاحب السعادة يا آندره فيليبوفتش؟

- ماذا تقول؟... طبعا... لا.

و نظر آندره فيليبوفتش إلى بطلنا من رأسه حتى قدميه:

- أقول لك ذلك يا آندره فيليبوفتش لأنه يدهشني أنه لم يحسر أحدًا حتى الآن القناع عن وجه الدجال الحقير!

- كيف؟

- أقول: الحقير، يا آندره فيليبوفتش!

- من تعني؟

- أعني شخصًا بعينه يا آندره فيليبوفتش، أعني شخصًا بعينه يا آندره فيليبوفتش... وأنا على حق... أعتقد يا آندره فيليبوفتش أن رؤساءنا لا بد أن يشجعوا مثل هذه المبادرات (أضاف جوليادكين خارجًا عن طوره)... وأنا على يقين من أنك تفهم معنى مبادرتي الكريمة الشريفة هذه.. إن علينا كما يُقال أن نعد رئيسنا أبًا لنا يا آندره فيليبوفتش. وأنا أحب أن يكون هذا الرئيس العادل بمثابة أب لي أضع مصيري بين يديه يتصرف فيه كما يشاء. سوف أقول له... (هنا أخذ صوت السيد جوليادكين يرتجف واحمرَّ وجهه، وسقطت دمعتان من عينيه)...

بهت آندره فيليبوفتش من أقوال السيد جوليادكين، وبلغ من الدهشة والذهول أنه وقف وتراجع خطوتين على غير شعور منه، وأخذ ينظر حواليه خائفًا قلقًا.

كان يصعب على المرء أن يتصوّر لهذا المشهد مخرجًا... ولكن باب مكتب صاحب السعادة فتح فجأة، وظهر صاحب السعادة في العتبة بصحبة عدد من الموظفين. هبَّ جميع الحضور واقفين. ونادى صاحب السعادة آندره فيليبوفتش. وترك الرجلان الحجرة سائرين جنبًا إلى جنب متحدثين في شؤون تتصل بالعمل وتبعهما الآخرون. فلما بقيّ السيد جوليادكين وحيدًا استردّ شعوره وثاب إلى رشده، ثم مضى يلطو خاضعًا طائعًا تحت جناح أنطون أنطونوفتش الذي كان يسير في آخر الموكب مهدم الهيئة متجهم الوجه.

قال السيد جوليادكين لنفسه شاكيًا: «آ... لقد أخطأت مرة أخرى.... أخطأت مرة أخرى... على كل حال، لا ضير.»..

ثم قال يخاطب أنطون أنطونوفتش مدمدمًا بصوت ناعم مرتجف من الإنفعال بعض الارتجاف:

- آمل ألا ترفض أنت على الأقل أن تستمع إلى كلامي وأن تنظر إلى حالتي بعين الإعتبار. إنني حتى الآن لا أستطيع أن أفهم أقوال آندره فيليبوفتش فهلا شرحتها لي يا أنطون أنطونوفتش إذا كان ذلك في وسعك!

فأجابه أنطون أنطونوفتش بلهجة قاسية وهو يفصل كلماته:

- سيُعرف كل شيء في حينه.

أدرك السيد جوليادكين أن رئيس دائرته لا يحب أن يواصل الحديث معه. وأضاف أنطون أنطونوفتش قوله:

- على كل حال، ستكون على علم بالأمر قريبًا. ستبلغ رسميًا في هذا اليوم نفسه.

- ماذا تعني بقولك «رسميًا» يا أنطون أنطونوفتش؟ لماذا تقول: «رسميا»

كذلك سأل السيد جوليادكين خائفًا وجلًا.

- ليس لنا أن نناقش في قرارات رؤسائنا يا ياكوف بتروفتش...

- ما علاقة الرؤساء بهذا الأمر يا أنطون أنطونوفتش؟ ما شأنهم في هذه القضية؟ إنني لا أرى أي داعٍ إلى إزعاج رؤسائنا يا أنطون أنطونوفتش؟ أتراك تقصد حوادث الأمس يا أنطونوفتش؟

- لا... ليس الأمر أمر ما جرى بالأمس. إن في قضيتك شيئًا آخر يعرج.

- ما الذي يعرج يا أنطون أنطونوفتش؟ يخيّل إليَّ يا أنطون أنطونوفتش أنه ما من شيء يعرج!

قاطعه أنطون أنطونوفتش يقول بلهجة خشنة:

- مع من كان في نيتك أن تتآمر؟

فقد السيد جوليادكين رباطة جأشه وارتعش، واصفر وجهه إصفرارًا شديدًا. قال ثائرًا:

- طبعًا يا أنطون أنطونوفتش... إذا لم يُستمع إلا إلى وشايات الأعداء، دون الإصغاء إلى أقوال المتهم، فمن الطبيعي عندئذ...

كذلك تمتم السيد جوليادكين بصوت مختنق، وأردف يتم كلامه:

- نعم من الطبيعي في هذه الحالة يا أنطون أنطونوفتش أن يُدان بريء وأن يتألم ظُلمًا وعدوانًا.

- ها.. وما قولك في فعلك الدنيء مع فتاة شريفة أوشكت أن تدنس سمعتها؟ فتاة غمرتك أسرتها الكريمة السخية التي يجمع الناس على احترامها بأنواع الخيرات...

- عن أي فعل تتكلم يا أنطون أنطونوفتش؟

- ها... ولا شك أنك تريد أن تتكر أيضًا الأذى الذي ألحقته بفتاة أخرى، متواضعة المركز الإجتماعي طبعًا، ولكنها من أسرة أجنبية محترمة!

- إسمح لي يا أنطون أنطونوفتش... إصغ إلى كلامي من فضلك يا أنطون أنطونوفتش!

- وما قولك في موقفك الدنيء من شخص آخر، في وشاياتك عليه في اتهامك إياه بأفعال أنت وحدك مقترفها؟ هه؟ ما قولك في هذا؟

تمتم بطلنا مبهورًا لاهثًا:

- أنا يا أنطون أنطونوفتش؟ ولكنني لم أطرده أبدًا من بيتي... لم آمر بتروشكا أبدًا... أقصد لم آمر خادمي أن يطرده.. لقد أكل من خبزي يا أنطون أنطونوفتش... استفاد من ضيافتي (أضاف السيد جوليادكين ذلك بصوت أجش يفيض انفعالاً، وكانت ذقنه ترتعش، وامتلأت عيناه مرة أخرى بالدموع).

أجاب أنطون أنطونوفتش ساخرًا:

- تلك حكايات يا ياكوف بتروفتش!

فهزت لهجته الساخرة السيد جوليادكين هزًا عميقًا.

- إسمح لي يا أنطون أنطونوفتش أن ألقي سؤالاً أخيرًا: هل صاحب السعادة على علم بهذه القضية كلها؟

- طبعًا... والآن دعني... لا أملك من الوقت ما أضيعه معك. سوف تُبلَّغ اليوم كل ما يتصل بك.

ناشدتك الله يا أنطون أنطونوفتش... أتوسل إليك... دقيقة واحدة أخرى...

- سيتسع وقتك لقص كل شيء.

- لا، لا يا أنطون أنطونوفتش... أنا... استمع إلي.. أرجوك يا أنطون أنطونوفتش... أنا لا أناصر الأفكار الهدامة... أنا أتحاشى الأفكار الهدامة. أنا مستعد كل الإستعداد لأن أسلم بأن... حتى لقد أعلنت رأيي قائلًا...

- طيب، طيب... لقد سمعت هذا.

- لا، لا. هذا لم تسمعه يا أنطون أنطونوفتش. لا... أقصد هنا شيئاً آخر يا أنطون أنطونوفتش شيئًا حسنًا، حسنًا جدًا، يسرُّ سماعه... لقد أعلنت رأيي يا أنطون أنطونوفتش، وشرحته قبل الآن. إليك رأيي الذي أعلنته وشرحته قلت: إن اللّٰه قد شاء أن يخلق شخصين متماثلين تماثلًا كاملًا مطلقًا، فأحدهما عين الآخر تمامًا، وإن رؤساءنا الكرام الذين يملكون البصيرة الصادقة قد أدركوا مشيئة اللّٰه، فشملوا

برعايتهم وحمايتهم التوأمين كليهما... هذه فكرة حسنة يا أنطون أنطونوفتش... أنت ترى أنها فكرة حسنة يا أنطون أنطونوفتش. إنني بعيد عن الأفكار الهدامة، كما ترى. وأعتقد بأن قلوب رؤسائي تفيض محبة ورأفة كقلوب الآباء. هذا هو رأيي: فهناك من جهة أولى رؤساء تفيض قلوبهم كرمًا ورأفة، وهناك من جهة أخرى شاب يحتاج إلى عمل... كن لي عونًا وسندًا يا أنطون أنطونوفتش. دافع عني واحمني يا أنطون أنطونوفتش أنا لم أفعل سوءًا يا أنطون أنطونوفتش...

ولكن أنطون أنطونوفتش كان قد ابتعد. أما بطلنا فقد أصبح لا يعرف أين هو، ولا يعرف ماذا يسمع، ولا ماذا يصنع، ولا ماذا يُصنعُ به، ولا ماذا سيصنعُ به... لقد اضطربت نفسه اضطرابًا عميقًا مما سمعه ومما وقع حتى الآن.

أخذ يبحث في جمهرة الموظفين عن أنطون أنطونوفتش، بنظرة ضارعة متوسلة. كان يريد أن يبرئ نفسه في نظره. كان يريد أن يقول له بضع كلمات أخرى، كلمات جميلة، بريئة طاهرة، كلمات يمكن أن تدل على نبل نياته. وفي أثناء ذلك كان شعاع جديد يتسلّل شيئًا فشيئًا إلى قلب هذا الإضطراب في عواطف بطلنا، شعاع جديد رهيب يكشف له فجأة عن آفاق فسيحة لحوادث ليست في الحسبان، حوادث لم يكن بطلنا قد تصور أنها ممكنة حتى الآن.

وفي أثناء هذه اللحظة صدمه أحدهم في خاصرته.

فالتفت ورأى أمامه بيسارنكو.

- هذه رسالة لك يا صاحب السعادة.

- ها... لقد أوصلت إذًا رسالتي؟

- لا، بل جيء بهذه الرسالة إلى هنا في الساعة العاشرة من الصباح. إن ميكايف هو الذي حملها من السكرتير فاخمارايف.

- طيب يا صديقي طيب جدًا، سوف أكافئك يا عزيزي.

قال السيد جوليادكين هذه الكلمات ودس الرسالة في جيب ردنجوته. عاقدًا أزراره بكثير من العناية. ونظر حواليه، فما كان أشد دهشته حين رأى أنه قد أصبح في الدهليز الكبير وسط سائر الموظفين. إنها ساعة انصراف الموظفين وإغلاق المكاتب لم يكن السيد جوليادكين قد شعر بذلك أبدًا، ولا فهم ما هي الظروف التي جعلته الآن موجودًا في الدهليز لابسًا معطفه منتعلًا جرموقيه حاملًا قبعته بيده. كان الموظفون جامدين ساكنين، ينتظرون في وضع يدل على الاحترام، ذلك أن صاحب السعادة كان واقفًا في أسفل السلم ينتظر عربته، ويتحدث في كثير من الحماسة مع اثنين من مستشاري الدولة ومع آندره فيليبوفتش، وعلى بضع خطوات من تلك الجماعة كان يقف أنطون أنطونوفتش مع اثنين أو ثلاثة من الموظفين يبتسمون وهم يرون صاحب السعادة ضاحكًا ممازحًا، وكان سائر المستخدمين المحتشدين في أعلى السلم يبتسمون هم أيضًا، ويرصدون كل ضحكة جديدة يطلقها صاحب السعادة. كان هنالك رجل لا يبتسم: إنه البواب الضخم فيدوستتش. إنه واقف وقفة التأهب العسكري، قابضًا على مقبض الباب ينتظر بفارغ صبر أن ينال نصيبه

اليومي من المتعة. وكانت متعته هي هذه: أن يفتح أحد مصراعي الباب عريضًا بدفعة واحدة، ثم يدع لصاحب السعادة أن يمر وقد حنى ظهره، كالقوس احترامًا وإجلالًا... أما الشخص الذي كان يشعر بأكبر فرح في أثناء هذا الإنتظار العارض، فلا شك أنه ذلك العدو الكريه الفاجر اللدود، عدو السيد جوليادكين.

كان في هذه اللحظة لا يعرف أحدًا من سائر الموظفين. وكان في هذه اللحظة لا يتواثب بينهم ولا يدور على عادته المقيتة الحقيرة وكان لا يحاول أن ينتهز الفرصة المواتية للتحبّب إليهم وكسب مودتهم. هو الآن كله أبصار وأسماع.. إنه متجمع على نفسه في وضع غريب، ليرهِف السمع من غير شك. إنه يلتهم صاحب السعادة بعينيه؛ ولا تظهر على وجهه إلا بضع جعدات تشنجية من حين إلى حين تكشف عما في قرارة نفسه من حركات عميقة خفية.

قال بطلنا لنفسه: «يا للوغد! إنه يصطنع هيئة من له حظوة! يا له من لص... وددت لو أعرف أسباب نجاحه بين الناس إنه لا يملك شيئًا، لا فكرًا ولا ثقافة ولا خلقًا ولا إرادة ولا عاطفة... إنه محظوظ هذا الفاسق! رباه رباه! ما أعجب ما يمكن أن يحصل عليه إنسان من نجاح سريع ومن ثقة كبيرة! ولسوف يمضي في هذا الطريق قدمًا. يمينًا إنه سوف يمضي في هذا الطريق قدمًا، هذا الوغد... لسوف يحقق هدفه. إن الحظ معه، هذا اللص! ليتني أعرف بماذا كانوا يتهامسون منذ هنيهة! ما الأسرار التي بينه وبين الآخرين؟ بماذا كانوا يتهامسون خفية؟ رباه ما عساي أصنع؟ ما عساي أفعل؟... أأمضي أقول له: «لقد تبت... إنني أعترف بخطأي.. ففي زماننا هذا لا بد لرجل شاب من أن يعمل يا صاحب السعادة.. ولست أشعر بخجل من هذه المصادفة التي تبعث الإضطراب في النفس. أعدك بأن لا أرفع صوتي بعد الآن باحتجاج. أعدك بأن أحتمل بعد الآن كل شيء طائعًا صاغرًا صابرًا، ترى أهذا ما يجب أن أفعله؟.. لا... لا.. إن هذا لا يجدي مع شخص فاجر كهذا الشخص. ليس للكلمات من تأثير في نفسه. يستحيل رد عقل غبي كعقله إلى سبيل الصواب والرشاد. ولكن فلنحاول. قد تواتيني فرصة مناسبة. لماذا لا أجرب حظي؟...».

أحس السيد جوليادكين، وهو في ما هو فيه من حيرة واضطراب وقلق بأنه لا يستطيع أن يلبث في مكانه هذا على هذه الحال. أحس بأن اللحظة الحاسمة تقترب، فلا بد له أن يكاشف أحدًا بالأمر. وشيئًا فشيئًا أخذ يشق لنفسه طريقًا إلى المكان الذي يقف فيه ذلك الرجل الدنيء العجيب الذي كان رفيقه في ذات مساء.

ولكن قرقعة عربة تقف لم تلبث أن سُمعت في هذه اللحظة نفسها. إنها العربة التي كان صاحب السعادة ينتظرها منذ مدة طويلة. شد فيدوستش الباب، وفتح الطريق لصاحب السعادة منحنيًا كالقوس. وأسرع الموظفون الآخرون نحو الباب في الوقت نفسه. فانفصل السيد جوليادكين عن سميِّه في غمرة هذا الاندفاع.

انسل السيد جوليادكين في صفوف الجمهور مرددًا لنفسه، دون أن يحول بصره عن الرجل الذي يريد أن يدركه: «لا... لن تفلت مني». وتبعثر الجمهور أخيرًا... فأصبح بطلنا حرًا طليقًا، فأسرع يطارد عدوه.»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الحادي عشر

تقطعت أنفاس السيد جوليادكين في صدره، كان يكاد يطير، كان له جناحين، ملاحقًا عدوه الذي يبتعد سريعًا.. إن بطلنا يشعر بحماسة عظيمة وحميا شديدة. ومع ذلك فإن كل شيء يحمل على الاعتقاد، رغم هذا الاندفاع القوي، أن في وسع ذبابة أن تقلبه على الأرض بسهولة إذا هي لطمته بجناحها لطمة صغيرة، هذا إذا وجد ذباب في بطرسبرج في مثل هذا الفصل من السنة. كان السيد جوليادكين يحس بأنه عاجز عن مواصلة السيرة وكان يحس في الوقت نفسه أن قوة غريبة مستقلة عن جسمه استقلالًا تامًا كانت تجره جرًّا، فلولا هذه القوة الغريبة عن جسمه لما استطاع أن يخطو أيسر خطوة، لأن ساقيه كانتا تصطكّان وترفضان أن تسعفاء وظل يتابع جريه متقطع الأنفاس وهو يردّد لنفسه كالآلة: «لا يزال يمكن أن يسوّى كل شيء على أحسن وجه. نعم على أحسن وجه، أو على أسوأ وجه...».

«ومهما يكن من أمر فقد ضاعت قضيتي، ما في ذلك ريب... لقد دمرت.. دمرت تمامًا.. هذا أكيد.. محقق.. لا عفو ولا غفران.. ليس في الإمكان إجراء أي تغيير...». ومع ذلك ففي اللحظة التي استطاع فيها بطلنا أن يمسك بحافة معطف عدوه، أحس كأنه يُبعث بعثًا جديدًا دفعة واحدة. لكأنه حقق نصرًا عظيمًا. لقد نادى العدو الحقير عربة، وهمَّ أن يركبها، فصاح بطلنا يقول: «سيدي، سيدي آمل منك أن...». فأجابه عدوه القاسي الذي وضع إحدى قدميه في العربة:

- لا... لا تأمل مني شيئًا، أرجوك...

فلما حاول أن ينقل إلى العربة قدمه الثانية، حركها في الهواء مضطربًا، ولم يستطع أن يحافظ على توازنه إلا في كثير من العناء، وكان في الوقت نفسه، يحاول أن يتملص من تشبث جوليادكين به، ولكن بطلنا تمسك بمعطف خصمه بكل ما وهبته الطبيعة من قوى.

- ياكوف بتروفتش، عشر دقائق فقط...

- آسف.. ليس في وقتي متسع.

- أرجوك يا ياكوف بتروفتش، أرجوك أتوسل إليك... من فضلك يا ياكوف بتروفتش.. من فضلك.. هي مفاتحة صريحة... بلا مواربة.. بلا لف ولا دوران.. لحظة واحدة يا ياكوف بتروفتش.

- ليس في وقتي متسع يا صديقي العزيز جدًّا.

كذلك أجاب الدجال المرائي المنافق، وكان تلطفه المتصنع يكشف عن مودة وفظاظة كلتاهما جارحة.

ثم أردف يقول:

- دع هذا ليوم آخر.. صدقني سيسرني أن أستمع بقلب مفتوح... أحلف لك.. أما اليوم فمستحيل فعلًا.

قال السيد جوليادكين لنفسه: «ما أجبنه!». ثم راح يقول وقد فاض قلقًا وخوفًا:

- ياكوف بتروفتش، ياكوف بتروفتش، أنا لم أكن عدوّك في يوم من الأيام، إن ألسنة سوء قد اتهمتني ظلمًا.. أما أنا فمستعد لأن.. ياكوف بتروفتش، هلا دخلنا لحظة إلى هذا المقهى فتكاشفنا بصراحة، بقلب مفتوح على حد تعبيرك الصحيح جدًّا. سنتكلم لغة صريحة رفيعة.. وسوف ترى: سوف يصبح كل شيء واضحًا، نعم يا ياكوف بتروفتش، سوف ترى سوف يتضح كل شيء حتمًا.

- في هذا المقهى؟ موافق.. ولم لا أوافق؟ لندخل هذا المقهى. ولكن أضع شرطًا، شرطًا واحدًا، ياعزيزي، هو أن يتضح كل شيء آخر الأمر، مرة واحدة. نعم، مرة واحدة إلى الأبد، يا صديقي اللطيف.

كذلك قال جوليادكين الأصغر وهو ينزل من العربة ويلطم كتف بطلنا من دون حياء. وأضاف يقول:

- آه منك أيها الرفيق القديم، إنني مستعد في سبيلك لأن أسير في هذا الطريق الضيق، كما اقترحت عليَّ هذا في المساء الأول، هل تتذكر؟... آه ما أخبث هذا الياكوف بتروفتش! إنه يصنع بي ما يشاء (هذا ما أضافه الرفيق المنافق المرائي، وهو يبتسم إبتسامةً خفيفة، ويدور حول بطلنا ويلتف).

كان المقهى يقع في زقاق صغير بعيد عن الشوارع الكبرى في العاصمة. فلما دخلاه كان خاليًا خلوًا كاملًا، إلا من ألمانية سمينة ظهرت لهما وراء البسطة حين سمعت رنين فتح الباب. مضى السيد جوليادكين ورفيقه الشرير إلى الغرفة المجاورة حيث كان هناك صبي بدين حليق شعر الرأس، يتحرك حول المدفأة محاولًا أن يؤجج النار بقبضة من نشارة. وجيء للزبون بقدحين من الشكولاته تنفيذًا لطلب السيد جوليادكين.

قال جوليادكين الأصغر لصديقه وهو يغمز غمزة خبيثة:

- امرأة بضة شهية.. هه؟

فاحمر وجه بطلنا وحاذر أن يجيب.

- ها... معذرة.. لقد نسيت تمامًا.. أنا أعرف ذوقك. نحن من عشاق الألمانيات النحيلات الرشيقات يا سيدي. نعم يا عزيزي الشهم ياكوف بتروفتش، نحن أنا وأنت ميالان إلى الألمانيات النحيلات، شريطة ألا يعوزهن شيء من فتنة وإغراء طبعًا: نستأجر في بيوتهن غرفًا، ثم نغويهن، وفي مقابل أطباق الطعام الصغيرة التي يقدمنها لنا، وفي مقابل صحون الحساء بالبيرة وصحون الحساء باللبن التي نطعمها عندهنّ، نعطيهن قلبنا وبضع سندات.. هذه طريقنا في العمل. آه منك أيها الغاوي الذي يسحر قلوب النساء ويفتن عقولهن! آه منك يا فوبلاس!

قال السيد جوليادكين الأصغر هذه الغمزات واللمزات الموجعة الوقحة مصحوبة بابتسامات لطيفة ومداعبات وكان هذا المنافق يبسط عواطف الصداقة ويعرب عن فرحته بوجوده مع السيد جوليادكين. ولكن بطلنا لم يكن من الغباء والسذاجة وقلة

الخبرة بحيث تنطلي عليه هذه الأحابيل، فلما لاحظ صاحبه المقيت الكريه ذلك أسرع يبذل أسلوبه ويلعب بأوراقه مكشوفة. فما إن نطق الدجّال الحقير بتلك الكلمات الدنيئة حتى بادر يضع يده على كتف جاره ويشدّ غير متحرج أي تحرج، رافعًا الكلفة إلى حد يثير الحفيظة ويبعث على السخط والحنق؛ لم يكفه ذلك فاندفع في أمازيح أخرى غليظة بذيئة، ثم أراد أن يكرر فعلته الكريهة التي فعلها أمس حين قرص وجه بطلنا رغم ما أظهره بطلنا من مقاومة وأعلنه من احتجاج واستياء. فغلى الدم في عروق بطلنا إزاء هذه الوقاحة. ومع ذلك كبح جماح نفسه ولزم الصمت.. كان ينتظر ساعته.

أجاب بصوت مضطرب بعض الاضطراب، وكأنه لا يزال مسيطرًا على نفسه:

- هذه مزاعم أعدائي.

وفي هذه اللحظة نفسها ألقى بطلنا نظرة قلقة نحو الباب. كان يخشى ألا يندفع مخاطبه الذي كان واضح المرح والارتياح في مزاحه المزعج الثقيل في مكان عام، مزاح لا يمكن احتماله في مجتمع محترم على كل حال.

أجاب الدجّال على قول السيد جوليادكين وهو يضع قدحه الذي أفرغه في جوفه بشراهة لا حياء فيها:

- في هذه الحالة أوافق. في هذه الحالة أوافق، ولم يبق ما يقوله أحدنا للآخر.. كيف صحتك الآن يا ياكوف بتروفتش؟

قال بطلنا بهدوء ووقار:

- لن أقول لك إلا شيئًا واحدًا يا ياكوف بتروفتش، هو أنني لم أكن عدوك في يوم من الأيام.

- هممم... هذا شيء يجب التثبت منه! وبتروشكا؟ ما اسم ذلك القرد؟ بتروشكا، أليس كذلك؟ نعم هو كذلك. كيف هو الآن؟ أحسب أن حالته جيدة! أهو على ما كان عليه دائمًا؟

قال السيد جوليادكين مدهوشًا بعض الدهشة:

- حالته حسنة، مثلما كان دائمًا يا ياكوف بتروفتش. لا أدري ماذا يجب أن أقول يا ياكوف بتروفتش... ولكنني من جهتي... بكل صدق وبكل صراحة.. أخيرًا أنت تعرف يا ياكوف بتروفتش.

قال السيد جوليادكين الأصغر بصوت شجي معبّر، مصطنعًا هيئة إنسان حزين أعمق الحزن نادم أشد الندم، هيئة إنسان جدير بالإشفاق والرثاء والرحمة:

- ولكنك تعلم أنت نفسك يا ياكوف بتروفتش، تعلم أنت نفسك أن هذا الزمان صعب.

ثم أضاف وقد عقد النية واضحة على أن يتملّق بطلنا:

- أنظر يا ياكوف بتروفتش، سوف أشهدك أنت نفسك: إنك رجل ذكي تستطيع أن تحكم حكمًا منصفًا.. هل الحياة سهلة؟... لا يا ياكوف بتروفتش.. ليست الحياة لعبًا.. إنك تعرف ذلك حق المعرفة يا ياكوف بتروفتش.

بهذا ختم الماكر المنافق كلامه بلهجة سيد ذكي مثقف أهل لأن يناقش أخطر مشكلات الحياة وأرفع مسائل الوجود.

قال بطلنا بحماسة:

- سوف أخاطبك من جهتي يا ياكوف بتروفتش بلغة صريحة جريئة لا أحاول أن ألف أو أن أدور. سأقول لك يا ياكوف بتروفتش، بكل صدق و إخلاص واستقامة وشرف إنني بريء كل البراءة... نعم يا ياكوف بتروفتش أؤكد لك ذلك. ثم إنك تعرفه بنفسك يا ياكوف بتروفتش المسألة، في حياتنا نحن، يا ياكوف بتروفتش مسألة سوء تفاهم متبادل - وكل شيء ممكن في هذه الحياة - سوء تفاهم فاقمته أحكام المجتمع، أحكام أناس رعاع عمي، عبيد... أنا أكلمك بصراحة يا ياكوف بتروفتش: أعود فأقول لك إن كل شيء ممكن في هذه الحياة... وأضيف إلى ذلك أننا إذا ارتضينا أن ننظر إلى القضية كلها نظرة صادقة رفيعة سامية، كان في وسعي أن أؤكد لك بغير خجل زائف، أنه يكاد يسرني أن أعترف لك ببعض ما ارتكبت من أخطاء، وما وقعت فيه من ضلالات... نعم، ولسوف يبهجني أن أكشف عن هذه الأخطار والضلالات. أنت إنسان ذكي شريف. وإنك لتدرك بنفسك حق الإدراك كل ما أعترف لك به. نعم أنا أؤكد لك أنني مستعد لأن أبوح بكل شيء، لأن أعترف بكل شيء، اعترافًا شريفًا صادقًا لا يخالطه حياء كاذب، ولا خجل زائف.

هكذا ختم بطلنا كلامه وقد لاحت في وجهه رفعة ونبالة ووقار.

- مصير! قدر! ياكوف بتروفتش... دعنا من هذا كله الآن، ولنستعمل هذه اللحظات القصار التي تهيأت لنا في حديث أمتع وأفيد ذلك أليق بزميلين... ثم إنك لم تتح لي أن أقول كلمتين طوال هذه المحادثة.. وليس الذنب في هذا ذنبي يا ياكوف بتروفتش.

فقاطعه بطلنا بحماسة:

- ولا هو ذنبي، ولا هو ذنبي... أُشهد على ذلك قلبي يا ياكوف بتروفتش... قلبي يؤكد لي أنني غير مسؤول عن هذه القضية كلها.

ثم أضاف يقول بلهجة المصالحة:

- فلنحمل القدر تبعة ذلك كلّه.

وكان صوته لا ينفك يزداد ضعفًا.

قال المنافق بصوت رقيق عذب:

- ماذا بك؟ وكيف حالك على العموم في هذه الأيام؟

قال السيد جوليادكين بصوت أرق وأعذب أيضًا:

- أعاني من سعال قليل.

- يجب أن تحاذر. هذا أوان الأمراض المعدية. ما أسرع ما يصاب المرء بالتهاب في الحلق في هذه الأيام أنا من جهتي لا أكتمك أنني ألبس قميصًا داخليًا من صوف.

- أنت على صواب يا ياكوف بتروفتش ما أسرع ما يصاب المرء بالتهاب في الحلق!

وأضاف بطلنا بعد صمت قصير:

- ياكوف بتروفتش، إنني أدرك الآن أخطائي... وأتذكر بكثير من الحنان تلك اللحظات الجميلة التي سعدت بقضائها معك في مسكني الذي أصفه بأنه متواضع، ولكنني أتجرأ فأصفه أيضًا بأنه مضياف.

فأجابه مخاطبًا بلهجة فيها شيء من العتب، المسوَّغ على كل حال:

- ليس هذا ما عبّرت عنه في رسالتك.

(والواقع أن السيد جوليادكين الأصغر كان في هذه اللحظة، في هذه اللحظة فقط، صادقًا كل الصدق منصفًا كل الإنصاف).

- كنت مخطئًا يا ياكوف بتروفتش... إنني أرى اليوم بوضوح أنني كنت مخطئًا. كتبت لك تلك الرسالة اللعينة. إنني أستحي أن أنظر إليك الآن يا ياكوف بتروفتش.. أقسم لك.. اسمع.. أعد إليَّ تلك الرسالة.. سوف أمزقها أمامك يا ياكوف بتروفتش.. اقرأها معكوسة، معكوسة تمامًا، أقصد حملها معاني صداقة ومودّة افهم كل كلمة من كلماتها على غير معناها، افهم كل كلمة من كلماتها بعكس معناها. لقد أخطأت خطأً كاملًا، خطأً قاسيًا يا ياكوف بتروفتش.

قال الصاحب المرائي وقد لاح في وجهه ذهول وعدم اكتراث:

- ماذا تقول؟

- أقول إنني قد أخطأت خطأً كاملًا يا ياكوف بتروفتش، وإنني مستعد، بغير حياء زائف أو خجل كاذب، لأن...

- آ.. نعم.. صحيح.. لقد أخطأت أنت.. صحيح جدًا.

كذلك قال جوليادكين الأصغر بلهجة خشنة.

قال بطلنا بوقار وصدق من دون أن يدرك الازدواج الرهيب في سلوك صاحبه الوقح:

- حتى لقد خطرت ببالي فكرة يا ياكوف بتروفتش.. نعم خطرت ببالي الفكرة التالية: «لقد خلق الله إنسانين متماثلين تماثلًا مطلقًا...».

- آ... أهذه هي الفكرة؟

قال الشخص الحقير ذلك ثم نهض متناولاً قبعته ونهض السيد جوليادكين أيضًا. إنه لم يدرك المناورات الوقحة التي يقوم بها عدوه. كان يبتسم في نبل ومودة. كان البريء يحاول أن يلاطف عدوه، وأن يواسيه وأن يعقد بينه وبينه صلات صداقة جديدة...

صاح الدجّال فجأة يقول:

- وداعًا يا صاحب السعادة.

ارتجف بطلنا حين رأى في وجه عدوه ذلك التعبير المسعور الساخر، المعربد.

ومن أجل أن يتخلّص السيد جوليادكين من هذا الشعور وضع أصبعين في اليد التي مدها إليه الشخص الكريه. وفي هذه اللحظة... في هذه اللحظة تجاوزت وقاحة السيد جوليادكين الأصغر كل الحدود. فها هو ذا يقبض على الأصبعين، ويضغطهما، ثم لا يلبث أن يكرر مزحة الصباح أمام بطلنا مرة أخرى بسرعة. هنا نفدت مدخرات جميع الصبر الإنساني.

أعاد جوليادكين الأصغر إلى جيبه المنديل الذي مسح به يديه، وخرج... واسترد السيد جوليادكين وعيه أخيرًا، فأسرع يلحق بعدوه، ولكن عدوه كان قد انسل على عادته، فأصبح في الحجرة الأولى. إنه الآن واقف قرب البسطة، مرتاحًا، يلتهم بعض الفطائر في غير اضطراب، ويتحدث مع الألمانية بائعة الفطائر بلطف وأدب.

قال بطلنا لنفسه: «لا داعي إلى فضيحة أمام سيدة..». واقترب هو أيضًا من البسطة منفعلًا أشد الانفعال.

قال جوليادكين الأصغر:

- حقًا إن هذه المرأة اللطيفة لا بأس بها... ما رأيك؟

وعاد يكرر مزحاته البذيئة معتمدًا على صبر بطلنا.

كانت الألمانية السمينة تنظر إلى زبونها بعينين شهباوين لا تعبران عن شيء، مع إبتسامة تودّد وتلطف وكان واضحًا أنها لا تفهم الروسية. نفذ صبر بطلنا، وأصبح من فرط استيائه من كلمات الدجال الوقحة لا يستطيع كبح جماح نفسه، فأسرع نحو صاحبه ملتهب الوجه، حنقًا، يريد أن يمرقه إربًا، وأن يجهز عليه مرة واحدة ولكن الشخص الجبان كان قد ابتعد على عادته في الكيد والحيلة. لقد وثب فجأة فأصبح الآن على درجات المدخل. ذهل السيد جوليادكين، ولكنه لم يلبث أن أفاق من ذهول اللحظة الأولى، فهرع يجري وراء الشخص الذي أهانه جريًا سريعًا. ولكن خصمه لم يلبث أن ركب عربة كانت واقفة في الشارع. لا شك أن حوذي العربة كان متواطئًا مع الرجل المخادع الدجال.

وفي هذه اللحظة نفسها أطلقت الألمانية البدينة، وقد رأت زبونيها يهربان، أطلقت صرخة حادة وهزّت جرس الباب بكل ما أوتيت من قوة، فالتفت السيد جوليادكين إلى خلف وهو يركض، فرمى إليها مالًا ثمن ما شرب هو وصاحبه، وتابع ركضه

نحو العربة دون أن ينتظر أن ترد إليه البقية؛ واستطاع رغم تأخره أثناء ذلك أن يدرك خصمه من جديد، وقد تحركت العربة.

تشبث السيد جوليادكين بجناح العربة بكل قواه، وظل يجري معها على هذه الصورة محاولًا أن يتسلّق إلى داخلها، حيث كان عدوه يجهد أن يصده بكل ما أوتي من قوة أيضًا. وفي أثناء ذلك كان الحوذي يستحث فرسه الضعيفة الهزيلة بضربات من سوطه، وكذلك بشتائم وسباب؛ فإذا بالفرس الضعيفة الهزيلة تأخذ تعدو عدوًا سريعًا على غير توقع، عاضةً زمامها رافسةً بقائمتيها. واستطاع بطلنا أخيرًا أن يصعد إلى العربة، فأصبح أمام عدوه وجهًا لوجه مديرًا ظهره لمقعد الحوذي، تداخلت ركب الرجلين وأمسك السيد جوليادكين بيده اليمنى ياقة الفراء المهترئ من المعطف الذي كان يرتديه خصمه الدنيء...

العربة تعدو بسرعة شديدة. والخصمان المتماسكان صامتان لا يتكلمان. الشارع مليء بالحفر، فالمركبة تهتز، ويوشك بطلنا أن ينكسر ظهره في كل لحظة، وعدوه، من جهته، لا يعترف بأنه غُلب، فهو يستميت في سبيل أن يدحرج السيد جوليادكين إلى الوحل. ومن تمام المصيبة أن الجو كان رهيبًا. فالثلج يتساقط أسناخًا كبيرة، ويتسرب إلى داخل معطف صاحبنا. ولم يكن في وسع المرء أن يرى شيئًا من شدة كثافة الثلج والضباب. كان يستحيل على المرء أن يعرف الشارع الذي تجري فيه العربة بسرعة شديدة وفجأة شعر السيد جوليادكين بذلك الشعور الذي يحس صاحبه بأنه سبق له أن رأى ما يراه الآن»... فظل بضع لحظات يحاول أن يتذكر.

ترى ألم يوجس هذا كله في الليلة البارحة، في الحلم مثلًا؟... وأخذ قلقه يزداد شدة بغير انقطاع هو الآن في ذروة القلق. إنه يحتضر. أراد أن يصرخ وهو متشبث بعدوّه الذي لا يرحم... ولكن صرخته تلاشت على شفتيه... ثم جاءت لحظة نسيان كامل شعر السيد جوليادكين شعورًا غامضًا بأن كل ما يقع له أمر لا سبيل إلى فهمه... أمر لا فائدة منه.. أمر لا طائل تحته.. أمر لا شأن له به.. باطل وسخيف أن يحتج.. وفي هذه اللحظة، حدثت رجة شقية فغيرت وجه الأشياء... سقط بطلنا كسقوط كيس طحين، وتدحرج في الوحل وهو يردد لنفسه أن كل شيء باطل، وأنه أخطأ حين تحمس.

فلما نهض أبصر أن العربة كانت تقف في فناء منزل من المنازل، وأدرك من أول نظرة أنهم الآن في فناء المنزل الذي يسكنه أولسوفي إيفانوفش. فتملكه اضطراب لا يوصف، وهمَّ أن يلاحق عدوه الدجال، ولكنه توقف في الوقت المناسب لحسن الحظ ودفع للحوذي أجره، وخرج إلى الشارع، وأطلق ساقيه للريح يجري قدمًا ولا يلوي على شيء.. الثلج لا يزال يتساقط أسناخًا كثيفة. والجو مظلم رطب يملؤه الضباب، إن السيد جوليادكين يطير طيرانًا، فيصدم المارة، ويقلب المارة من الفلاحين والنساء والأطفال، ويتلقى بدوره صدمات تلو الصدمات... ومن حوله وورائه، ترتفع صرخات وتعلو صيحات ذعر، ويقوم عياط وشياط.. لكن السيد جوليادكين لا يريد أن يرى شيئًا، ولا يريد أن يفهم شيئًا، فلما صار قريبًا من جسر سيميونوفوسكي استرد صوابه وثاب إلى رشده بعد أن صدم بائعتين وما تعرضان من بضائع، فقلبهما على الأرض، وانقلب معهما في الوقت ذاته. فقال لنفسه: «ما

هذا بشيء... كل أمر يمكن أن يسوّى على أحسن نحو»، ودس يده في جيبه باحثا عن روبل يعوّض به للبائعتين ما فقدتاه من فطائر وتفاح وجوز، وغير ذلك من بضائع انسفحت على الأرض. غير أن نورًا جديدًا ظهر في دماغه عندئذ على حين فجأة. لقد مست يده الرسالة المغلقة التي حملها إليه كاتب المحكمة في ذلك اليوم.

وسرعان ما تذكر السيد جوليادكين أن هناك، غير بعيد عن المكان الذي هو فيه، مطعمًا حقيرًا يعرفه حق المعرفة. فأسرع يمضي إلى المطعم ثم أسرع يجلس إلى إحدى موائده التي تضيئها شمعة ملطخة، من دون أن يضيِّعَ من وقته لحظة واحدة.

كان لا يشعر بما حوله، حتى إنه لم ينتبه إلى الخادم الذي جاء يسأله عن طلبه؛ فض غلاف الرسالة بسرعة، وأخذ يقرأ مشدوه الفكر، مذهول اللب أعمق الذهول:

«أيها الإنسان النبيل، العزيز على قلبي إلى الأبد.

أنت يا من تتألم في سبيلي!

إنني أتألم، إنني أتعذب، إنني أموت عذابًا، فانقذني.. إن رجلًا محتالًا، رجلًا نمامًا، رجلاً معروفًا بغروره وتفاهته قد أحاطني بشباكه. نصب لي فخًا، فوقعت في الفخ. لقد ضعت. ولكنني أكرهه وأمقته.. أما أنت.. لقد باعدوا بيننا.. وحجزوا الرسائل التي كنت أكتبها إليك. وذلك كله من صنع الإنسان الدنيء الذي استغل ميزته الوحيدة، وهي أنه يشبهك.

أنا أعلم على كل حال أن في وسع إنسان غير جميل أن يفتن بسمو فكره وكرم عواطفه ورفعة أخلاقه وآدابه.

لقد سقطت.. إنهم يزوجونني رغم إرادتي.. وإن أبي، نعم، أبي، مستشار الدولة، أولسوفي إيفانوفتش، هو الذي يقود الأمر كله. أهي الرغبة في أن يستفيد من مكانتي في المجتمع، ومن علاقاتي بعلية القوم؟...

ولكنني قد عزمت أمري، وسأحتج بكل ما أوتيت من قوة معتمدة على جميع الوسائل الممكنة. انتظرني هذا المساء، ابتداءً من الساعة التاسعة في فناء المنزل، تحت نوافذ مسكننا تمامًا. سيقام احتفال راقص عندنا. وسيأتي ضابط ملازم جميل. سأنسل من الاحتفال، وأجيء إليك، فنهرب معًا. إن في بلادنا وظائف كافية ينفع المرء فيها وطنه. وفوق هذا كله يجب أن تتذكر يا صديقي أن البراءة تستمد قوتها من ذاتها. إلى اللقاء. انتظرني في الفناء هذا المساء مع عربة. سآتي أحتمي بذراعيك في الساعة الثانية تمامًا.

وسأظل لك حتى الممات».

كلارا أولسوفيفنا

بعد أن قرأ بطلنا هذا الرسالة ظل برهة طويلة مشدوه العقل، ذاهلًا عن نفسه. ثم أخذ يذرع الحجرة جيئةً وذهابًا مضطرب النفس قلقًا ممتقع اللون، ممسكًا الرسالة بيده.

ومن تمام سوء الحظ أنه لم يلحظ أن الأنظار جميعها أصبحت متجهة إليه. كانت ملابسه فوضى، وكان انفعاله ظاهرًا؛ وكان كل ما يراه الناس فيه، من مشيته في القاعة أو قل ركضه في أرجائها، إلى حركات يديه، إلى الكلمات الغريبة القليلة التي كانت تفلت من شفتيه على غير شعور، كل ذلك كان لا يهيئ الناس لأن ينظروا إليه نظرة حسنة. حتى الخادم كان يتأمله مرتابًا محاذرًا.. فلما ثاب إلى رشده، لاحظ أنه كان في وسط القاعة، وأنه كان يحدق في رجل عجوز قصير وقور المظهر، تحديقًا غير لائق، أو تحديقًا لا معنى له في أقل تقدير. كان الشيخ القصير قد فرغ من تناول غدائه، وانحنى أمام الأيقونة، فهو الآن جالس على كرسيه لا يحوّل بصره عن السيد جوليادكين. أجال السيد جوليادكين عينيه في أرجاء القاعة حائرًا قلقًا. فرأى عندئذ أن جميع الأعين كانت مصوّبة إليه، وهي أعين تفيض احتقارًا وعداوةً وهذا ضابط متقاعد يرتدي بزة ذات ياقة حمراء، يأخذ طالبًا أن يؤتى بجريدة «رسول الشرطة».

ارتعش السيد جوليادكين. واحمرَّ وجهه احمرارًا شديدًا. وخفض عينيه بحركة آلية، ملاحظًا أن مظهره غير لائق ولا محتشم. ما كان لرجل محترم أن يرتضي لنفسه أن يرتدي هذه الملابس في بيته فكيف بين الناس! كان أحد حذاءيه وسرواله وكل الجانب الأيسر من ردنجوته، كل ذلك كان ملطخًا بالوحل. وكانت الثنية اليمنى من سرواله منزوعة. وكان الردنجوت ممزقًا في مواضع عدة. فما إن رأى السيد جوليادكين ذلك كله حتى تملكه خوفٌ كاوٍ، فأسرع يجلس إلى المائدة التي كان جالسًا إليها حين قراءة الرسالة. فلم يلبث أن رأى الخادم مقبلًا عليه. كان في وجه الخادم وقاحة وشراسة. فاضطرب بطلنا وتحيَّر وتفرس في المائدة، فرأى عليها أطباقًا وسخة، ومنشفة ملطخة، وسكينًا وشوكة وملعقة.

تساءل بطلنا: «من ذا أكل هنا؟ أنا؟ أهذا ممكن؟ آه... كل شيء ممكن. لقد تغديت دون أن أشعر. فما الذي يجب أن أفعله الآن؟». ورفع عينيه فرأى الخادم واقفًا أمامه يهم أن يتكلم.

- كم الحساب يا صاحبي؟

كذلك سأل بطلنا الخادم. فسمع من حوله قهقهات صاخبة، حتى لقد سمح الخادم لنفسه أن يبتسم. ففهم السيد جوليادكين على الفور أنه ارتكب غلطة فاحشة، وأنه ارتكب خطيئة كبيرة. فاضطرب أشد الإضطراب ودس يده في جيبه باحثًا عن منديل. كان في حاجة إلى أن يفعل شيئًا ما، إلى أن يقوم بحركة ما، رجاء أن يغطي اضطرابه. ولكن ما كان أشد دهشته، وما كان أشد دهشة الحضور أيضًا حين لم يخرج من جيبه منديل، وإنما خرجت زجاجة فيها الدواء الذي وصفه له كريستيان إيفانوفتش منذ بضعة أيام. وهذه فكرة تلمع في رأسه « جميع الأدوية في صيدلية واحدة؛ وارتعش وهو لا يكاد يستطيع أن يكظم صيحة ذعر. لقد أضاء فكره فجأة. إن السائل الذي تضمه الزجاجة كئيب اللون قاتم الحمرة، تلألأ حزينًا أمام بطلنا. وفجأة أفلتت الزجاجة من يديه وتحطمت.

أطلق السيد جوليادكين صرخة، ووثب وثبة إلى الوراء. إن أعضاءه كلها ترتجف. والعرق يتقاطر على جبينه وصدغيه. «لا شك أن حياتي في خطر»، كذلك قال

لنفسه. وكان يسود الغرفة صخب شديد وصياح قوي. أحاط الناس بالسيد جوليادكين كلّموه. أمكسوا بذراعيه، بكتفيه. ظل هو ساكنًا صامتًا، لا يرى شيئًا ولا يسمع شيئًا ولا يحس بشيء... وأخيرًا انتزع نفسه من مكانه، وأسرع يخرج من المطعم. أرادوا أن يستبقوه. ولكنه أبى ومضى في طريقه يصدم كل ما يلقاه أمامه. فلما صار في الشارع ارتمى في عربة من العربات خائر القوى على غير وعي، وأمر الحوذي أن يقوده إلى بيته. وفي الدهليز صادف ميخايف، خفير الإدارة، حاملًا إليه رسالة عمل... تمتم بطلنا يقول له مصعوقًا، بصوت كامد شاك: «أعرف مضمون الرسالة يا صاحبي... أعرف كل شيء.. هي تبليغ رسمي». قال ذلك وتناول الرسالة وأعطى الخفير عشرة كوبكات. وكانت الرسالة تتضمن مذكرة رسمية فعلًا. إنها مذيلة بتوقيع آندره فيليبوفتش وهي تأمر السيد جوليادكين أن يسلم إيفان سيميونوفتش جميع الملفات والأوراق التي في عهدته.

فلما دخل السيد جوليادكين بيته حتى رأى بتروشكا منهمكًا في تكديس ملابسه وخرقه وأسماله. ما من شك البتة أن بتروشكا يستعد لترك مولاه ويتهيأ لمغادرة البيت.

لا شك في أن كارولين إيفانوفنا قد أغرته، وأنه ذاهب إليها يحل محل أوستاش.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الثاني عشر

دخل بتروشكا مترنحًا، كان غير عابىء، وفي وجهه تعبير غريب عن مرح وفرح، وعن شعور فظ غليظ بالانتصار.

واضح أنه كان قد وضع خطته، إنه يتصرف الآن تصرُّف إنسان حر طليق، غريب كل الغرابة عن المكان الذي هو فيه؛ أو قل إنه يتصرف تصرف خادم لواحد من الناس ليس هو جوليادكين حتمًا.

قال بطلنا لاهثًا:

- ها أنا ذا يا عزيزي! كم الساعة الآن يا صديقي؟

ذهب بتروشكا إلى ما وراء الحاجز من دون أن يجيب، ثم عاد يقول هادئًا بلهجة طليقة:

- قريبة من السابعة والنصف.

- آ... طيب... جيد جدًّا يا صديقي الشهم، إذًا اسمح لي أن أقول لك يا صديقي.. أخيرًا.. أظن أن كل شيء قد انتهى بيننا الآن.

لم يجب بتروشكا بكلمة واحدة.

- طيب.. أما وقد انتهى بيننا كل شيء، فقل لي صراحةً، قول صديق لصديقه، أين كنت يا عزيزي الطيب؟

- أين كنت؟ كنت عند أناس طيبين.

- أعرف يا صديقي أعرف. لقد كنت راضيًا دائمًا عن خدماتك. يا عزيزي، وسأعطيك شهادة بذلك... إذًا ستعمل بعد اليوم عندهم؟

- والله يا سيدي... أنت نفسك تعرف: ما من إنسان شريف يفعل فعلًا سيئًا.. هذا معروف.

- نعم، أعرف يا صديقي الشهم أعرف. الشرفاء قلة في هذا الزمان ويجب علينا أن نقدرهم حق قدرهم يا صديقي. كيف الحال هناك الآن؟

- كما كانت دائمًا.. أما أنا يا سيدي فلا أستطيع أن أبقى في خدمتك بعد اليوم. وأنت تعرف ذلك جيدًا على كل حال.

- أعرف يا عزيزي أعرف أنا أعرف همتك ونشاطك وحماستك في العمل. لقد لاحظت فيك هذه المزايا دائمًا، وقدرتها حق قدرها دائمًا يا صديقي. إنني أقدرك كثيرًا يا صديقي، لقد قدرت دائمًا الناس الطيبين الشرفاء، ولو كانوا خدمًا.

- واللّٰه هذا شيء معروف. أنت تعلم أن شبانًا مثلنا ليس لهم نظير.. هكذا. أما أنا يا سيدي فأجد أن من الصعب أن أعيش من دون أناس شرفاء، هذا أكيد.

- حسنٌ جدًا يا صديقي الشهم، حسنٌ جدًا. أنا متفق معك في الرأي، طيب.. إليك أجرك وشهادتك.. والآن فلنتعانق يا صديقي الشهم ولنفترق... ولكنني سأطلب منك خدمة صغيرة أخرى، خدمة صغيرة أخيرة، يا عزيزي (قال السيد جوليادكين ذلك بلهجة وقورة). إن كل شيء يمكن أن يقع في هذه الحياة يا عزيزي. الشقاء موجود في كل مكان يا صديقي الطيب، حتى في المساكن المذهبة. ما من أحد يستطيع أن يفلت منه، يخيّل إليَّ يا عزيزي أنني كنت دائما لطيفًا معك، أليس كذلك؟

ظل بتروشكا صامتًا لا يجيب.

ردد جوليادكين يقول:

- لقد كنتُ لطيفًا معك دائمًا يا عزيزي.. قل لي بالمناسبة يا عزيزي: كم بقيّ لي من ملابس؟

- ملابسك كلها موجودة: ستة قمصان، ثلاثة أزواج أجربة، أربع صديرات، صديرة من الصوف، وهناك أيضًا سروالان داخليان. أنت تعرف هذا كله على كل حال. أما أنا يا سيدي، فلم آخذ منك شيئًا البتة في يوم من الأيام.. إنني أحافظ على كل ما يخصك. وبالنسبة إليك يا سيدي.. على كل حال... من المؤكد.. لست ألوم نفسي على شيء يا سيدي، لست ألوم نفسي على أي شيء.. أنت تعرف ذلك يا سيدي.

- أنا أصدقك يا صديقي، أصدقك.. ما عن هذا أردت أن أتكلم.. اسمع يا صديقي...

- هذا معروف يا سيدي.. جميع الناس يعرفونه.. حين كنت في خدمة الجنرال ستولبيناكوف.. كان يمنحني إجازة كلما ذهب إلى ساراتوف التي يملك فيها أطيانًا.

- لا يا صديقي.. ما عن هذا أريد أن أكلمك.. أنا لا ألومك على شيء... لا تبتئس هكذا يا صديقي العزيز.

- هذا معروف تمامًا: إن أناسًا من طبقتنا يسهل اتهامهم.. أنت تعرف ذلك بنفسك يا سيدي.. أما أنا فقد أرضيت دائمًا أسيادي، وزراء كانوا أو جنرالات أو أعضاء في مجلس الشيوخ أو كونتات.. لقد خدمت في كل مكان: خدمت في منزل الأمير سفتتشاتكين، وفي منزل الكولونيل بيربوركين، وفي منزل الجنرال نيدوباروف، وكان يأخذني معه إلى أملاكه... هكذا...

- صحيح يا صديقي.. هذا حسنٌ جدًا، حسنٌ جدًا. والآن فقد جاء دوري أنا للسفر.. لكل إنسان طريقه يا عزيزي، وما من أحد يعرف الطريق التي رسمها له القدر. طيب.. ساعدني الآن في ارتداء ثيابي يا صديقي.. ضع بزتي الرسمية مع باقي الأشياء.. وكذلك السراويل، والمفارش، والأغطية، والمخدات.

- هل يجب أن أجعل هذا كله في رزمة؟

- نعم يا صديقي هذا ما يجب أن تفعله.. تحزم جميع الأشياء في رزمة. من ذا الذي يعلم ما يخبئ لنا المستقبل؟ والآن يا صديقي، انزل فاستدع لي عربة.

- عربة؟

- نعم يا صديقي عربة. استأجرها لوقت طويل، وأحرص على أن تكون العربة واسعة. ولكن إياك أن تذهب بك الظنون يا صديقي إلى تصور أشياء...

- هل تسافر إلى بعيد؟

- لا أعرف يا صديقي.. حقًا لا أعرف.. ومن المستحسن أن تضع في العربة لحافًا. ما رأيك يا صديقي؟ إنني أعتمد عليك يا عزيزي...

- أأنت مسافر فورًا؟

- نعم يا صديقي نعم..

- أفهمك يا سيدي. في الكتيبة التي كنت فيها حدثت هذه المغامرة نفسها لملازم أول. خطف ابنة أحد كبار المُلاكين.

- خطف؟ ماذا تقول؟ ولكن يا عزيزي....

- نعم، خطفها وتزوجا في أبرشية مجاورة. أعدَّ كل شيء سلفًا. ولقد لاحقوهما ولكن الأمير، نعم الأمير المتوفي، قد تدخل وسوى كل شيء.

- إذا تزوجا.. ولكن كيف علمت يا صديقي الشهم بما عقدت عليه النية؟

- الأمر معروف. الإشاعات تسري سريعة على هذه الأرض، نحن على علم بكل شيء، نعم بكل شيء.. طبعًا، ما من إنسان معصوم من الزلل، مبرأ من الخطايا.. ولكن يجب أن أقول لك يا سيدي... إسمح لي أن أقول لك لأنني خادم طيب.. ما دامت الأمور قد وصلت إلى هذه المرحلة الآن، فيجب أن أقول لك يا سيدي إن لك عدوًّا، إن لك منافسًا، نعم يا سيدي، إن لك منافسًا خطرًا يا سيدي.. نعم يا سيدي.

- أعلم ذلك يا صديقي، أعلم. أنت نفسك تعلم يا صديقي... طيب... على كل حال أنا أعتمد عليك. ماذا نفعل الآن يا صديقي؟ بماذا تنصحني؟

- والله يا سيدي، أما وقد اخترت هذا الحل فيجب عليك أن تشتري أشياء كثيرة.. مفارش، مخدّات، لحافًا آخر لشخصين.. غطاءً جيدًا.. وهذه الأشياء كلها تستطيع أن تجدها عند الجارة.. هناك.. تحت.. وعندها أيضًا فراء ثعلب جيد. في وسعك أن تراه وأن تشتريه فورًا. ليس عليك إلا أن تنزل إليها.. هو معطف جميل مغطى بالساتان وله فروة ثعلب.

- طيب طيب يا صديقي، أنا موافق وأنا أعتمد عليك اعتمادًا كاملًا يا صديقي وأنا موافق أيضًا على شراء الفروة يا عزيزي. ولكن أسرع أرجوك أسرع، أسرع؛ أنا مستعد لشراء المعطف، ولكن أسرع أرجوك.. لقد اقتربت الساعة من الثامنة. يجب أن نسرع يا صديقي أرجوك يا صديقي، أسرع.

ترك بتروشكا كدسة الملابس والأغطية والمخدات وغير ذلك من الأثواب التي كان بسبيل جمعها وهرع يخرج من الغرفة، وأخرج السيد جوليادكين الرسالة مرة أخرى، ولكنه لم يستطع أن يقرأ.

فأمسك رأسه المسكين بين يديه وأسند ظهره إلى الحائط شارد اللب. إنه لا يستطيع لا أن يفكر ولا أن يقوم بأية حركة. كان لا يدري هو نفسه ماذا يحدث في نفسه... فلما لاحظ أخيرًا أن الدقائق تجري، وأن بتروشكا والمعطف لم يحضرا، قرر أن ينزل، ففتح باب المدخل، فسمع ضجة.. إنها أصوات كلام ومناقشة وصياح تحت.. هن الجارات يثرثرن ويعولن ويتشاجرن. إن السيد جوليادكين يعرف حق المعرفة بصدد أي شيء كن يختصمن. وسمع أيضًا صوت بتروشكا، ثم سمع وقع خطوات تصعد السلم.

«آه.. يا رب... يا رب... لسوف يصعدون إلى هنا بالعالم كله»، كذلك تنهد بطلنا يقول وهو يعض يديه حزنًا وكمَدًا، ثم أسرع عائدًا إلى غرفته وارتمى على الديوان داسًا رأسه في المخدة.

أصبح لا يعرف ماذا يفعل. وظل على هذه الحال دقيقة كاملة، ثم نهض بوثبة واحدة دون أن ينتظر بتروشكا، فدس قدميه في جرموقيه وارتدى معطفه ووضع قبعته على رأسه، وتناول محفظته واندفع يهبط السلم، فلما صادف بتروشكا على السلم تمتم يقول له: «ألستَ في حاجة إلى شيء يا عزيزي. سأفعل كل شيء بنفسي. لست في حاجة إليك الآن. لا يزال يمك أن نيسوي كل شيء على خير وجه...». ووصل إلى فناء المنزل، وأسرع إلى الشارع. كان قلبه يوشك أن يتوقف عن الخفقان.. وهو لا يزال متردِّدا: ما عساه يصنع؟ ما الذي يجب عليه أن يقرّره؟ على أي شيء يجب أن يعقد عزمه في هذه اللحظة الحاسمة؟ وصاح أخيرًا يقول وقد استبد به القلق واليأس: «ماذا يجب أن أفعل؟ لكأنه لم يكن في الإمكان الإستغناء عن هذا كله!...».

كان لا يزال يجري قدمًا بخطى قصيرة لا يلوي على شيء. وتابع يخاطب نفسه: «نعم.. ما كان أغناني عن هذا كله! لولا هذه القصة، نعم لولا هذه القصة لكان يمكن أن يسوّي كل شيء... كان يمكن أن يسوي كل شيء دفعة واحدة، كان يمكن أن يسوّي كل شيء بضربة قوية محكمة واحدة.. قطعت يدي إذا لم يمكن أن يسوّي عندئذ كل شيء، وأنا أعرف حق المعرفة كيف كان يمكن أن يسوّي عندئذ كل شيء. كنت سأنفرد بهذا الرجل فأقول له: «اسمح لي أن أصرح لك يا سيدي.. إن المرء، على وجه العموم، نعم على وجه العموم، لا يتصرف هكذا.. نعم يا سيدي نعم.. ما من أحد يتصرف هذا التصرف. الاغتصاب لا ينجح هنا.. وأنت شخص محتال دجال يا سيدي، أنت رجل لا قيمة له ولا فائدة منه للوطن. نعم، هل فهمت هذا الكلام؟» وكان في وسعي أن أضيف إلى ذلك... ولكن فيم أضيف إلى ذلك شيئًا.. ذلك كل شيء. ماذا أقول؟ يا لي من أبله! يا لي من أبله؟ أأكون إذًا قاتل نفسي؟ لا لا.. بلى بلى.. أنت امرؤ مستهتر.. ما العمل الآن؟ ما عساي أصبح؟ لأي شيء أصلح؟ نعم، لأي شيء تصلح يا جوليادكين؟ يا جوليادكين الدنيء والآن؟ يجب استئجار عربة. لقد طلبتَ مني عربة. إذًا لا بد أن تكون العربة مهيأة. فإذا لم يكن هنالك عربة تبللت أقدامنا الصغيرة؟ من ذا الذي كان يمكن أن يتصوّر هذا؟ آه... يا آنسة.. يا آنسة.. إن سلوكك مشين.. إن سلوكك معيب.. ما هذا كله إلا ثمرة تربية سيئة.. نعم لقد فهمت كل شيء منذ رأيت ما يجري.. لا شك أن هذا كله نتيجة مباشرة التربية غير أخلاقية. كان ينبغي أن تستعمل معها الشدة والقسوة منذ

طفولتها.. وكان لا بد لها من سوط تَجلد به من حين إلى حين.. ولكنهم بدلا من ذلك كانوا يحشون فمها بأنواع المرطبات والحلوى!... وهذا العجوز الذي لا ينفعك يتباكى أمامها ويقول لها: آه يا حبيبتي الغالية.. إنك في غاية اللطف والظرف، إنك في غاية الحسن والجمال.. يمينًا لأزوجنَّكِ بكونت... وها هي ذي الآنسة تخرج من الظل وتلقي بأوراقها قائلة: إليكم لعبتي أيها السادة، فاعجبوا بي ما شاء لكم أن تعجبوا.. إنهم بدلًا من أن يلزموها البيت وضعوها في مدرسة داخلية لدى امرأة فرنسية، مهاجرة، امرأة لا يُعرف لها أصل يُقال لها مدام فالبالا... فلا غرابة إذا هي لم تَسِر في الطريق القويم! انحنوا لها أيها الناس! وما هي النتيجة؟ هي ما ترون: «انتظرني في عربة، في الساعة كذا، تحت نوافذ بيتنا، وأنا أعتمد عليك لتغني لي أغنية عاطفية إسبانية... إنني أنتظرك، أنا أعرف أنك تحبني. سوف نمضي معًا. سوف نعيش في كوخ...».

«ولكن هذا مستحيل.. نعم يا سيدتي، هذا مستحيل استحالة مطلقة.. هذا شيء تمنعه القوانين.. ليس من حق إنسان أن يختطف فتاة عفيفة طاهرة من بيت أبيها من دون موافقة أهلها. وفيم هذا على كل حال؟ فيم هذا؟ ما كان عليكِ إلا أن تتزوجي الرجل الذي هيأه لك القدر وكفى! أنا... ماذا أنا؟ أنا موظف.. وأنا مهدد بفقدان وظيفتي بسبب ذلك كله. نعم يا آنسة... إنني أعرض نفسي للمثول أمام المحاكم بسببك. فاعلمي هذا يا آنسة.. إن الألمانية هي التي تدبّر هذه المكائد.. كل المصائب مصدرها هذه الألمانية الشمطاء.. إنها هي التي تضع النار في البارود. يَشُونَ بإنسان، ويسلّطون عليه أقاويل ثرثارة نمّامة بإيعاز من آندره فيليبوفتش، وتنجح المكيدة. لولا أن الألمانية وراء هذا كله، أكان يتدخل بتروشكا في هذه القضية؟ ما شأنه في هذا الأمر؟ ما علاقته بهذه المسألة، هذا الوغد الحقير؟!.. لا يا آنسة، لا أستطيع أن أفعل في سبيلك شيئًا، لا أستطيع قطعًا!.. معذرة هذه المرة يا آنسة.. أرجو أن تسامحيني.. والحق أنك أنت سبب البلاء كله، يا آنسة لا الألمانية! أنت سبب رأسًا. الألمانية الساحرة امرأة طيبة، الألمانية الساحرة بريئة من الذنب يا آنسة. هذه هي الحقيقة، أنت وضعتني في أسوأ ورطة يا آنسة.. رجل أصبح من ضياعه قاب قوسين.. إنه يهوي إلى العدم.. ولا يملك أن ينقذ نفسه.. ثم تجيئين أنت وتحدثينه عن الزواج. كيف يمكن أن ينتهي هذا كله؟ كيف يمكن أن يسوى هذا كله؟ ليتني أعلم ذلك...».

وفيما كان جوليادكين يستطرد على هذه الصورة وقد استبد به الحزن والكمد، عاد فجأة إلى الواقع، فلاحظ أنه قد أصبح في شارع ليتانيايا. كان الجو رهيبًا: مطر وثلج وجليد يذوب. كل شيء يشبه تمامًا تلك الليلة التي لا تنسى، تلك الليلة التي بدأت فيها جميع مصائب بطلنا في الظلام. وراح السيد جوليادكين يجتر خواطره: «الزواج؟ ألا إنها نهاية العالم.. أين عساي أجد عربة؟ ها.. ها هي تلك عربة... هناك عند الناحية في ما أظن.. فلأذهب إلى هناك لأرى عن كثب. آه.. يا رب يا رب!..».

اتجه السيد جوليادكين بخطاه المترنّحة صوب ناصية الشارع، حيث حسب أنه أبصر عربة. قال لنفسه: «لا لا.. هذا ما يجب أن أفعله: سأذهب إلى هناك، فأخر ساجدًا عند قدميه، قائلاً له: أنظر إلى حالتي.. إنني أضع مصيري بين يديك، بين

يدي رؤسائي.. أتوسل إليك يا صاحب السعادة، أناشدك الله أن تدافع عني، أن تحميني. هذه هي المسألة.. فعلٌ يحرمه القانون.. لا تتركني.. لا ترهقني.. إنني ألجأ إليك كما يلجأ إبن إلى أبيه.. أنقذ كرامة إنسان شقي، وأنقذ شرفه وسمعته. أنقذني من هذا الرجل العاتي المنحط الذي لا أخلاق له. نحن، أنا وهو، شخصان إننا إثنان يا صاحب السعادة.. هو يعيش على هواه، وأنا من جهتي أحيا حياة بسيطة هادئة يا صاحب السعادة، لا أسيء إلى أحد ولا أؤذي أحدًا، أؤكد لك يا صاحب السعادة أنني لا أنال أحدًا بسوء قط.. أنا لا أشبهه، أنا لا يمكن أن أشبهه! فأضرع إليك يا صاحب السعادة رحماك يا صاحب السعادة، غيِّر لي وظيفتي فتنتهي هذه المشكلة، ينتهي هذا الاحتيال الوقح وهذا الاغتصاب الدنيء... حتى لا يكون هذا قدوة سيئة للآخرين يا صاحب السعادة. إنني أَعُدُّكَ أبًا يا صاحب السعادة. إن الرؤساء الذين يملكون صدرًا رحبًا وذمة سامية لا بد أن يشجعوا مثل هذه المبادرات. بل إن في مبادرتي هذه لروحًا فروسية، إنني أتوجه إليه كتوجهي إلى أب... أضع مصيري بين يديه، وأعده بأن لا أعترض على ما يتخذه من قرار، أنصاع لإرادته وأنحني أمامه.. هذه هي المسألة...».

- قل لي يا عزيزي.. أأنت حوذي؟

- نعم

- أأنت حر طوال السهرة؟

- هل المسافة طويلة؟

- أنا أستأجر العربة للسهرة، للسهرة كلها. لا تسأل عن المكان الذي أقصد إليه ليس لهذا من قيمة.

- هل في نيتك الخروج من المدينة؟

- نعم يا صديقي. هذا ممكن. لا أدري أنا نفسي بعد. لا أستطيع أن أقطع بذلك يا عزيزي. ومن الممكن أن يسوّى كل شيء على خير وجه يا صديقي الشهم. وهذا أفضل يا صديقي

- طبعاً هذا أفضل يا سيدي. أنا أتمنى ذلك لجميع الناس.

- هو كذلك يا صديقي، هو كذلك. شكرًا يا عزيزي. فما هو الأجر الذي تطلبه يا صديقي الطيب؟

- أأنت مسافر حالا؟

- نعم حالًا. أقصد... سوف نذهب أولًا إلى مكان ما ننتظر فيه برهة... يجب أن ننتظر برهة.. برهة قصيرة يا عزيزي...

- إذا كنت تكتري العربة لليلة كلها، فالأجر سنة روبلات. يستحيل أن أرضى بأقل من هذا في مثل هذا الجو.

- طيب طيب يا صديقي. اتفقنا. وسأعطيك مكافأة أيضًا يا عزيزي. طيب. والآن هيا بنا يا صديقي.

- اجلس.. بل انتظر لحظة. سأرتب بعض الترتيب. هه... تفضل بالجلوس الآن! إلى أين تأمر بأن أذهب بك؟

- إلى جسر اسماعيلوفكسي يا صديقي.

صعد الحوذي إلى مقعده، ولكن الحصانين اللذين لم يمكن انتزاع كيس العلف منهما إلا في عناء. واتجهت العربة صوب جسر اسماعيلوفسكي. ولكن السيد جوليادكين لم يلبث أن شد الحبل فجأة، واستوقف الحوذي وطلب إليه بصوت ضارع أن ينثني إلى وراء وأن يقوده إلى عنوان آخر عينه له. استدار الحوذي. وبعد دقيقتين كانت العربة تقف أمام العمارة التي يسكن فيها صاحب السعادة. نزل السيد جوليادكين وطلب من الحوذي بكثير من الإلحاح، أن ينتظره. ثم اندفع خافق القلب يصعد السلم. فلما وصل إلى الطابق الأول، شد حبل الجرس، ففتح الباب، ووجد نفسه في حجرة المدخل.

- هل صاحب السعادة في البيت؟

كذلك سأل السيد جوليادكين الخادم فأجابه الخادم وهو ينظر إليه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه:

- ماذا تريد منه؟

- إنما جئت يا صديقي من أجل... أنا اسمي جوليادكين.. أنا موظف، نعم، أنا الكاتب جوليادكين جئت لأشرح لصاحب السعادة بعض الأمور...

- انتظر لحظة. صاحب السعادة مشغول.

- ولكنني لا أستطيع الإنتظار يا صديقي. المسألة مهمة لا تحتمل أي تأخير.

- من أرسلك؟ هل تحمل أوراقًا؟

- لا يا صديقي، فإنما جئت في زيارة شخصية... أبلغ صاحب السعادة أنني جئت لشرح بعض الأمور، وسأكافئك يا صديقي...

- مستحيل. لقد مُنعت من إدخال أي إنسان، هناك ضيوف. إرجع غدًا في نحو الساعة العاشرة.

- أبلغ عني يا صديقي.. لا أستطيع الإنتظار، فإن لم تبلغ عني كنت مسؤولًا

- هيا أبلغ عنه. ماذا يمنعك من ذلك؟ أأنت خائف على نعليك أن يهترئا؟

كذلك صاح خادم آخر كان غائصًا في أحد المقاعد، ولم ينطق قبل ذلك بكلمة واحدة.

- المسألة مسألة نعلين حقًا! أنت تعلم أنني مُنعت من إدخال أحد. لا يستقبل أحدًا إلا في الصباح.

- هيا أبلغ عنه. أأنت خائف أن تبلع لسانك؟

- طيب سأبلغ عنه. ولن أبلع لساني. ولكنني قلت لك إنني مُنعت من إدخال أي إنسان، مُنعت من ذلك منعًا باتًا. تعال. أدخل إلى هنا.

دخل السيد جوليادكين إلى الحجرة المجاورة. وكان على المنضدة ساعة يشير عقربها إلى الثامنة والنصف، خفق قلب السيد جوليادكين. لقد همَّ أن يخرج، ولكن الخادم كان قد وقف على عتبة قاعة الاستقبال، وصاح يعلن بأعلى صوته:

«السيد جوليادكين».

قال بطلنا يخاطب نفسه وقد تملكه خوف شديد: «ما هذا الصوت؟ ألم يكن في وسعه أن يبلغ عني خفية؟ لقد كان يمكنه أن يقول: إن هذا الرجل يا صاحب السعادة جاء يشرح بعض الأمور متذللًا متوسلًا.. فهلا تفضلت باستقباله.. أما الآن فإن الأمور تجري مجرى سيئًا. لقد غرقت قضيتي في الماء... على كل حال، ليس هذا بشيء..». غير أن أوان التفكير قد فات. فهذا هو الخادم يعود فيقول لبطلنا: «أدخل»، ثم يدخله إلى صالون صاحب السعادة.

شعر بطلنا وهو يدخل أنه أصبح أعمى. فهو لا يرى شيئًا. كل ما هنالك أنه أبصر قامتين أو ثلاثًا أمام عينيه. قال لنفسه: «هؤلاء ضيوف ولا شك..». واستطاع أخيرًا أن يميّز نجمة على رداء الفراك الأسود الذي كان يرتديه صاحب السعادة. وبعد رؤية النجمة، رأى الرداء. وأخيرًا عادت إلى بطلنا قدرته على الإبصار...

- ماذا هنالك؟

كذلك سأل صوت يعرفه السيد جوليادكين جيدًا.

- أنا الكاتب جوليادكين يا صاحب السعادة.

- وبعد؟

- جئت لأشرح أمري؟

- كيف.. ماذا؟

- جئت لأراك وأشرح لك أمري يا صاحب السعادة.

- ولكن من أنت؟

- أنا جوليادكين يا صاحب السعادة، كاتب في الإدارة.

- طيب.. وماذا تريد؟

- المسألة يا صاحب السعادة أنني أعدك أبًا. أنا لن أثبت وجودي، أنا سأنسحب، فاحمني أنت من أعدائي يا صاحب السعادة. هذه هي المسألة.

- ما هذا الذي تقوله؟

- أصبح معروفًا...

- ما الذي أصبح معروفا؟

صمت بطلنا وأخذت ذقنه ترتجف.

سأله صاحب السعادة:

وبعد؟

- كان قصدي أن أقوم ببادرة فروسية يا صاحب السعادة. أنا أرى من الفروسية أن يعد المرء رئيسه أبًا له... فأنا أرجوك أن تحميني.. أتوسل إليك ضارعًا ذليلًا.. إن بادرات من هذا النوع لا بد أن تشجـ... أن تشجع...

أشاح صاحب السعادة وجهه عنه. اضطربت عينا بطلنا برهة. اختنق صدره. أخذ يلهث، بل أصبح لا يعرف أين هو.. كان يشعر بالخجل والعار. لقد صعق وانهار.. والله وحده يعلم ماذا حدث بعد ذلك. فلما ثاب بطلنا إلى رشده سمع صوت صاحب السعادة يتكلم. كان صاحب السعادة يكلم ضيفين من ضيوفه في حرارة وحماسة. وسرعان ما عرف السيد جوليادكين أحد الضيفين: إنه آندره فيليبوفتش. ولكنه لم يستطع أن يتعرف الثاني. ذلك بدا له وجهه مألوفًا معروفًا. إنه فارع القامة. بدين الجسم. وهو يبدو متقدمًا في السن. وله حاجبان كثيفان. نظرته قاسية معبرة. وهو يحمل وسامًا يتدلى من عنقه. وكان يدخن سيجارًا. السيجار لا يترك فمه، وكان هذا الرجل المجهول يهز رأسه في وقار وهو يلقي على بطلنا نظرة من حين إلى حين. شعر السيد جوليادكين بارتباك شديد حول عينيه، فسرعان ما لمح ضيفًا آخر عجيبًا. ففي فرجة الباب التي كان السيد جوليادكين قد حسبها مرآة حتى ذلك الحين، تمامًا كما حدث له ذلك في المطعم، ظهر الرجل المعروف جيدًا، الصديق الحميم للسيد جوليادكين. كان الدجال قد مكث حتى ذلك الحين في حجرة صغيرة مجاورة، يكتب تقريرًا على عجل. كانوا في حاجة إليه ما في ذلك ريب... وها هو ذا يجيء الآن. إنه يحمل ملفًا تحت إبطه. اقترب من صاحب السعادة؛ وبانتظار اللحظة التي يفلت فيها من أنظار المتخاطبين انضم إلى الجماعة بمهارة كبيرة. وقف وراء آندره فيليبوفتش تمامًا، إلى جانب الرجل المجهول الذي يدخن السيجار. كان يبدو على السيد جوليادكين الأصغر أنه يتابع الحديث باهتمام كبير. لقد اتخذ وضعًا مناسبًا، فهو يهز رأسه علامة الموافقة والتأييد، ويحرك قدميه ويبتسم ولا يتحول ببصره عن صاحب السعادة؛ وكأنه يتوسل إليه أن يتيح له، هو أيضًا، أن يقول كلمة. قال السيد جوليادكين بينه وبين نفسه وهو يتقدم خطوة إلى أمام دون أن يشعر: «يا للجبان!». وفي هذه اللحظة نفسها إلتفتَ صاحب السعادة، واتجه نحو بطلنا. كان يبدو مترددًا بعض التردد.

«طيب، طيب، انصرف الآن، والله يرعاك. سأدرس حالتك، وسآمر بأخذك إلى...». قال الجنرال ذلك وألقى على الرجل المجهول نظرة ذات دلالة. فرد الرجل على النظرة بحركة من رأسه علامة التأييد. أدرك السيد جوليادكين رأسًا أنهم أخطأوا في معرفة شخصه،، وأنهم يعاملونه معاملة غير لائقة به. قال لنفسه: «لا بد لي من أن أشرح أمري بطريقة من الطرق. يجب أن أقول له: يا صاحب السعادة... إليك المسألة!». ولكنه تحير وطاش صوابه فغض بصره، فما كان أشد دهشته حين

لاحظ على كل حذاء من حذاءي صاحب السعادة بقعة بيضاء. قال لنفسه: «هل يعقل أن يكون حذاءي صاحب السعادة ممزقين؟». ولكنه لم يلبث أن أدرك أن ما حسبه لم يكن في حقيقة الأمر إلا تلألؤا. فإن الحذاءان الملمعان بالشمع كانا يتلألآن تلألؤًا ساطعًا، وذلك هو سبب خطأ السيد جوليادكين. قال بطلنا لنفسه: «هذا ما يسمى حقًا بالبريق. إن الكلمة مستعملة كثيرًا في ورشات التصوير. أما في غير ورشات التصوير فيستعمل اصطلاح آخر...».

رفع السيد جوليادكين عينيه، فأدرك أن عليه أن يتكلم بأقصى سرعة، وإلا فإن الأمور ستجري مجرى سيئًا... فتقدم خطوة إلى أمام.

- إليك المسألة يا صاحب السعادة. يجب أن أقول لك.. ما من أحد يستطيع في أيامنا هذه أن يصل إلى شيء بالاحتيال والاغتصاب!

لم يجب الجنرال، واكتفى بأن شد حبل الجرس شدًا قويًّا. فتقدم بطلنا خطوة أخرى إلى أمام.

- إنه رجل جبان لا أخلاق له يا صاحب السعادة.

كذلك قال السيد جوليادكين وهو يختنق خوفًا وذعرًا، ولا يدري ماذا يصنع. وفي الوقت نفسه أومأ بإصبعه إلى سميِّه الذي كان يدور حول الجنرال.

- نعم يا صاحب السعادة، إنني أقصد بهذا الكلام شخصًا تعرفه...

قامت جلبة عامة شاملة. حرك آندره فيليبوفتش والرجل الذي يدخن السيجار رأسيهما، فأمسك صاحب السعادة بحبل الجرس يشده ثم يشده، وينادي الخادم بلهجة صارمة.

وفي الوقت نفسه تقدّم السيد جوليادكين الأصغر وقال: «يا صاحب السعادة، أتوسل إليك متذللًا أن تسمح لي بأن أتكلم». كانت لهجته قاطعة جازمة. لا شك أن هذا الرجل كان يحس بأنه يتصرف تصرفًا هو حق من حقوقه...

وقال متوجهًا بالكلام إلى بطلنا، مستبقًا جواب الجنرال:

- اسمح لي أن أسألك: أأنت تعرف في حضرة من تتكلم هذا الكلام؟ أأنت تعرف أمام من تقف الآن، وفي غرفة من توجد الآن؟

كان الدجال يبدو منفعلًا انفعالًا شديدًا. إن وجهه المحمر يشتعل استياءً وحنقًا وغيظًا، حتى لقد ظهرت في أهدابه دموع.

صاح الخادم ملء حنجرته وهو واقف على عتبة الصالون يعلن عن وصول ضيفين: «السيد والسيدة باسافريوكوف». فقال السيد جوليادكين لنفسه: «اسم جميل. هي أسرة نبيلة من الأسر الروسية». وفي تلك اللحظة نفسها شعر بيد تحط على كتفه وتضغط عليها بمودة وصداقة. وما هي إلا لحظة حتى كانت يد أخرى تحط على ظهره. كان المحتال الوقح يتحرك أمامه مشيرًا للخادمين إلى الطريق التي كانا يدفعان فيها بطلنا. أدرك السيد جوليادكين أنه يُقاد نحو أبواب الصالون قال لنفسه:

«هذا عين ما حدث عند أولسوفي إيفانوفتش». كان قد وصل إلى الدهليز. إلتفتَ فرأى إلى جانبه خادمين من خدم صاحب السعادة و«مثله» الحقير الذي كان يزقزق قائلًا: «المعطف، المعطف، هاتوا معطف صديقي، معطف خير صديق لي». وانتزع المعطف من يدي الخادم، فرماه من قبيل المزاح، المزاح الدنيء الجبان، على رأس بطلنا. وسمع السيد جوليادكين، بينما كان يحاول التخلص من المعطف، سمع قهقهات الخادمين تدوي واضحة متميزة. ولكنه أصبح لا يحب ان يسمع شيئًا، وأصبح لا يولي ما يجري حوله أي انتباه. خرج من الدهليز، ووجد نفسه على السلم المضاء، وتبعه «مثله». يصيح وراءه:

- إلى اللقاء يا صاحب السعادة.

- جبان...

كذلك تمتم السيد جوليادكين.

- فلنسلم بأنني جبان.

- فاجر عاهر.

- فلنسلم بأنني فاجر عاهر...

بهذا أجاب العدو اللدود الدنيء بطلنا المحترم، وهو يرشقه من أعلى الدرج بنظرة تفيض غطرسة على عادته. إنه يتفرس فيه دون أن يتحرك، محدقًا إلى عينيه، كأنه يريد بوضعه هذا أن يتحداه وأن يستفزه. فما كان من بطلنا إلا أن بصق احتقارًا واستياءً، وأسرع يهبط السلم، متجها نحو الباب.

كان قد بلغ من الإنهيار والانعدام أنه لم يشعر كيف ركب العربة، ولا عرف من الذي ساعده في ركوبها.

فلما عاد إلى رشده لاحظ أن العربة تسير على طول نهر فونتاكا. قال لنفسه: «لا شك أن الحوذي يقودني الآن إلى جسر اسماعيلوفسكي». وأراد بطلنا في هذه اللحظة أن يفكر في شيء ما، ولكنه لم يستطع. وكان ذلك أمرًا رهيبًا لا يتصوّره عقل. فما كان منه إلا أن خلص من ذلك كله إلى أن قال: «لا ضير.. لا بأس..». وترك للحوذي أن يقوده نحو جسر اسماعيلوفسكي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الثالث عشر

الجو يبدو أنه سيتحسن. فالثلج المبتل الذي كان يهطل غزيرًا حتى ذلك الحين راح يخفّ شيئًا بعد شيء، ثم لم يلبث أن انقطع عن الهطول انقطاعًا تامًا، وأصبح المرء يستطيع أن يرى السماء التي تتلألأ فيها بضعة نجوم هنا وهناك. كل ذلك كان يرهق السيد جوليادكين الذي لا يكاد يستطيع أن يتنفّس. إن معطفه المبتل يثقل على كتفيه ويبدو أنه يبلل أعضاءه برطوبة فاترة؛ وساقاه المتعبتان تنثنيان تحت وطأة ملابسه المبتلة ورعشات حمى تسري في جسمه كله كأنها بعوض ظامئٌ كاوٍ. وجسمه المهدود يفرز عرقًا باردًا هو عرق مرض. وقد بلغ بطلنا من الحمد أنه نسي أن يردّد جملته الأثيرة بذلك الحزم القوي المعهود: «لا يزال في الإمكان أن يسوّى كل شيء على خير وجه». ومع ذلك استطاع بطلنا أن يتغلب على انهياره وأن يحتفظ بشجاعته فعاد يقول مدمدمًا: «حتى الآن ليس لهذا كله من قيمة». ومسح وجهه الذي تسيل عليه قطرات الماء منهمرة في كل إتجاه من قبعته المدورة التي بلغت من الابتلال أنها أصبحت لا تستطيع أن تحجب المطر. «ليس لهذا كله قيمة». كذلك ردّد بطلنا القول وجلس على قطعة ضخمة من الخشب كانت قرب كومة من الحطب في فناء العمارة التي يسكنها أولسوفي إيفانوفتش. لم يبق مجال الآن لأغنيات غرامية إسبانية يحلم بها بطلنا. فإنما هو يبحث الآن عن ركن صغير مريح بعض الشيء إن لم يكن دافئًا جدًّا، ركن صغير مظلم يعتصم به. ولنقلْ عابرين إنه كان يغريه كثيرًا أن يكون الآن في تلك الزاوية الصغيرة من دهليز سلّم الخدم، التي لطا فيها قرابة ساعتين، في أولى مغامراته، بين خزانة الملابس والحواجز العتيقة، وسط أكوام من الأسمال والثياب الرثة والخرق البالية.

ولنذكر أن السيد جوليادكين ينتظر ههنا منذ أكثر من ساعتين، في فناء المنزل الذي يسكنه أولسوفي إيفانوفتش. ولنذكر أيضًا أن الركن الصغير المريح الذي سبق أن اختبأ فيه يشتمل الآن على عيوب لم يكن يشتمل عليها في الماضي. أول هذه العيوب أنه قد لوحظ واكتشف حتمًا، فلا بد أنه محروس حراسة جيدة منذ الفضيحة التي وقعت ليلة الحفلة الراقصة. والثاني أن إلتجاء بطلنا إلى ذلك الركن يبعده عن المكان الذي يجب عليه أن يبقى فيه انتظارًا للإشارة التي ستأتي من كلارا أولسوفييفنا.

كان بطلنا على يقين من أنها ستنبهه بإشارة ما. ذلك مؤكد لا ريب فيه: «ثم إننا لسنا من أثار هذه القضية كلها، ولسنا من يجب عليه أن يختمها». قال السيد جوليادكين ذلك لنفسه ثم تذكر جزءًا من رواية كان قد قرأها منذ زمن طويل، وفي ذلك الجزء كان الإتفاق بين بطلة الرواية وحبيبها «ألفرد»، في ظروف مماثلة لهذه الظروف مماثلة تامة، أن تنتبهه بإشارة هي شريط وردي اللون تعلّقه على النافذة، أما اليوم، في الليل، مع هذا الظلام وهذه الرطوبة في جو سان بطرسبرج، فليس شريط وردي اللون بإشارة مناسبة، لذلك ليس على بطلنا أن يتوقع أن يرى شريطًا بمثابة إشارة. قال بطلنا لنفسه: «الأفضل أن ألجأ إلى ركن من الفناء مظلم مختف...». واعتصم فعلًا في ركن من الفناء يقع أمام النوافذ قرب كومة من الحطب. لا شك أن حركة الذهاب والإياب لا تنقطع في هذا الفناء: فثمة حوذيون وخدم يتجولون وسط صرير

العجلات وصهيل الخيول... ولكن المكان مريح مع ذلك. كان السيد جوليادكين قابعًا في الظل، وليس يهمه كثيرًا أن يلحظه أو أن لا يلحظه حوذيون. كان يستطيع أن يرى كل شيء في المنزل، من دون أن يراه من أهل المنزل أحد. النوافذ تسطع بالأنوار. لا شك أن في منزل أولسوفي إيفانوفتش سهرة كبرى. ومع ذلك لا تسمع موسيقى.

«ما هي حفلة راقصة، بل اجتماع من نوع آخر»؛ كذلك قال بطلنا لنفسه قلقًا. ثم تساءل: ولكن هل الموعد المضروب هو هذه الليلة؟ أليس ثمة خطأ في يوم الموعد؟ ذلك جائز. كل شيء جائز... وأغلب الظن أن ما حدث هو التالي: كُتبت الرسالة وأرسلت أمس، ولكنني لم أستلمها إلا اليوم، بسبب إهمال بتروشكا، هذا الوغد الدنيء... أو لعل الرسالة كُتبت غدًا... أقصد أن الموعد حُدِّد للغد.. فكان عليَّ أن أجيء أنتظرها مع العربة غدًا..».

تجمد الدم في عروق السيد جوليادكين حين تصور هذا الإحتمال ومن أجل أن يتحقق من صدق الافتراض دس يده في جيبه. فما كان أشد دهشته حين لم يجد فيها الرسالة!... تمتم بطلنا يقول وقد كاد ينهار: «ماذا جرى؟ أين عساني وضعتها؟ أتراني أضعتها؟». ثم أضاف متنهدًا: «آه.. هذا ما كان ينقصني!.. وما عسى يحدث لو وقعت في أيدي أعدائي؟ لعلها وقعت في أيديهم وانتهى الأمر! آه... يا رب!.. ما الذي سيقع؟ لسوف يكون هذا فضيحة فظيعة! آه.. يا للشقاء... يا للشقاء الرهيب!...». وسرعان ما خطر بباله «مثله»، فأخذ يرتعش كورقة في مهب الريح. لعل عدوه الدنيء، حين رمى معطفه على رأسه، قد انتهز فرصة اضطرابه ليسرق الرسالة التي تسرب إليه نبأها بواسطة أعداء السيد جوليادكين.. قال بطلنا لنفسه: «لا سيما وأنه أَلِفَ أن يستولي على الأدلة... ولكن فيم الأدلة؟...». وبعد أن انتابته نوبة أولى من الذهول والرعب ازدحم الدم قويًا عنيفًا في رأس بطلنا. فأطلق صرخة من بين أسنانه، وأمسك رأسه المحترق بيديه، وتهاوى على قطعة الخشب الضخمة، وغرق في التأمل.. وعجز عن تركيز أفكاره. إن وجوهًا كثيرة تتخاطر الآن أمام عينيه غامضة تارة واضحة تارة أخرى... وأخذت تتخاطر أمام بصره كذلك حوادث كان قد نسيها منذ زمان طويل، وأخذت تتوافد على ذاكرته ألحان بعض الأغاني التافهة.. كان في ذروة الخوف والقلق، بل كان في حالة من الخوف والقلق لا سبيل إلى وصفها. «يا رب، يا رب!». كذلك أخذ بطلنا يردد، عائدًا إلى رشده، خانقًا نشيجًا قويًا في حلقه: «يا رب.. يا رب، هب شيئًا من القوة والعزيمة لروحي الغارقة في هوّة من الشقاء ليس لها قرار! لقد ضعت، لقد تلاشيت، ما في ذلك ريب. هذا من طبيعة الأمور. لا يمكن أن يكون الأمر على غير هذا النحو. لقد فقدت وظيفتي.. فقدتها حتمًا.. ما كان يمكن إلا أن أفقدها. طيب... فلنفرض الآن أن الأمور يمكن أن تسوّى بطريقة من الطرق.. لنفرض أن ما أدخره من مال يكفيني للأيام الأولى... سيكون عليَّ أن أستأجر مسكنًا آخر... ولن أستطيع الاحتفاظ ببتروشكا.... طيب.. في وسعي أن أستغني عن ذلك الوغد.. سأستأجر غرفة لدى بعض الناس.. ذلك أمر يمكن تدبيره... وسأستطيع أن أخرج وأن أعود متى شئت. لن يكون هناك بتروشكا الذي يصعّر لي وجهه إذا رجعت في ساعة متأخرة. هذه ميزة من ميزات السكنى

عند آخرين. ذلك شيء معروف. طيب. فلنقل إذا أن الأمور حسنة هكذا. ولكنني ما زلت أتكلم في شيء آخر، في شيء آخر تمامًا...». في هذه اللحظة برقت في ذهنه صورة وضعه الراهن. فنظر حواليه، وأخذ يئن قائلًا: «آه.. يا رب، يا رب! آه.. يا رباه! ولكن فيم كنت أفكر منذ هنيهة؟». كذلك سأل بطلنا نفسه مرهقًا متحيِّرا، وهو يضغط بيديه رأسه المحموم.

خاطبه صوت من فوقه يقول:

- هل في نيتك أن تمضي قريبًا؟

فارتعش السيد جوليادكين، ورفع عينيه، فرأى أمامه الحوذي. كان الحوذي مبلًلا هو أيضًا حتى العظام، مرتعد الفرائص. لقد دفعه نفاد الصبر وفراغ الوقت إلى أن يلقي نظرة على السيد جوليادكين القابع وراء كومة الحطب.

- لا أعرف، لا صديقي.. هل أنوي أن أمضي بعد قليل؟ نعم، بعد قليل، يا صديقي.. ولكن عليك بشيء من الصبر...

انسحب الحوذي وهو يدمدم بكلام بين أسنانه. فسأل بطلنا نفسه دامع العينين: «ما له يتململ؟ لقد استأجرت عربة للسهرة بطولها... ويخيل إليَّ أنني لا أتعدّى حقوقي... أليس كذلك؟ لقد استأجرته للسهرة كلها وكفى!... والأجر واحد سواء أبقى هنا أم مضى بي إلى مكان آخر.. ذلك رهن بإرادتي. أنا حر.. إذا شئت مضيت وإذا شئت لبثت هنا وراء كومة الحطب.. وهذا لا يعنيك.. ليس من حقك أن تحتج. مولاك يريد أن يبقى وراء كومة الحطب... فليبق ما شاء له هواه أن يبقى... إنه لا يجور على حقوق أحد. نعم.. نعم.. تمامًا... يجب أن يكون هذا ماثلًا في ذهنك يا آنسة... أما الكوخ فاعلمي يا آنسة أنه ما من أحد يسكن أكواخا في هذا الزمان. اعلمي هذا. واعلمي أيضًا أن التخلّي عن الأخلاق لا حظ له من النجاح في عصر النور الذي نعيش فيه. وأنت فيه مثال على ذلك... أنت على ذلك مثال محزن. لقد قدرت الآنسة أنني سأعمل في أحد المكاتب، وأننا سنعيش على شاطئ البحر.. فاعلمي إذا يا آنسة أنه ما من مكاتب على شاطئ البحر.. أما أن تجعلي مني رئيسًا فذلك أمر يجب أن لا نفكر فيه. طيب.. لنتصوّر مثلًا أنني تقدمت بطلب ومضيت أقول:

«إليك هذا الطلب يا سيدي، عيّني رئيس مكتب.. واحمني من أعدائي. طيب يا آنسة لسوف يكون الجواب هو التالي: «عندنا عدد كافٍ من رؤساء المكاتب هكذا». وأما أنتِ يا آنسة فلست الآن عند مدام فالبالا التي كانت تلقنك دروسًا في الأخلاق، أنت الآن خير مثال حي محزن عليها.. الأخلاق تقضي يا آنسة أن تبقي في المنزل، وأن تشرفي أباك وأن لا تتسرعي في نشدان الزواج. سيبحث لك عن خطيب متى آن الآوان. يجب أن تعرفي هذا، طبعًا يجب على الفتاة أن تنمّي بعض المواهب. من المستحسن أن تتعلم الفتاة العزف على البيانو، وأن تتكلّم الفرنسية، وأن تعرف التاريخ والجغرافيا بعض المعرفة، وأن تعرف تاريخ الكنيسة وأن تتعلم الحساب هذه أمور لا جدال فيها... ولكن لا ينبغي للفتاة أكثر من ذلك.. نعم... هناك أيضًا مسألة المطبخ. إن فن المطبخ يجب أن يكون جزءًا من تربية كل فتاة لائقة. والآن فلنعد إلى مشروعنا. أولًا، لن يدعوكِ أن تسافري يا آنستي الجميلة. وإذا هربت

فسيلاحقونك. وبعد ذلك يحجرون عليك ويضعونك في دير من الأديرة. فماذا عساك تأمرينني عندئذ؟ هل يجب عليَّ في هذه الحالة، على غرار بعض أبطال الروايات السخيفة، أن آتي كل يوم أتأمل من أعلى إحدى التلال المجاورة جدران سجنك المتجمدة؟ وهل يجب عليَّ إزاء هذا المنظر أن أنفجر باكيًا، كما تفعل شخصية من شخصيات أحد أولئك الشعراء والروائيين الألمان السخفاء؟ أهذا ما تريدينه يا آنسة؟ أن ألفت نظرك يا آنسة، على مودّة وصداقة، أولًا إلى أن القصص التي من هذا النوع لم يبق لها رواج عندنا؛ وثانيًا إلى أنك أنت وأبويك تستحقون بضع ضربات جزاء هذه الروايات الفرنسية التي قرأتموها، والتي أعطيت لك من أجل أن تقرئيها.. اعلمي أن هذه الروايات الفرنسية لا تعلم شيئًا خيرًا.. فليس فيها إلا سُمّ.. ليس فيها إلا سُمٌّ زعاف يا آنسة. لعلك تتصورين أن في وسعنا أن نهرب فلا ينالنا عقاب، وأن نمضي نعتصم في كوخ على شاطئ البحر.. حتى إذا صرنا هنالك أخذنا نهدل هديل الحمام، ونتساقى عواطف الحب، وقضينا حياتنا سعيدين يغمرنا الفرح وتشيع في قلوبنا البهجة.. وربما تصوّرت أيضًا أن يولد لنا فرخ صغير، عصفور جميل.. فنمضي نقول لأبيك، مستشار الدولة أولسوفي إيفانوفتش: «هذا عصفورنا الجميل، فانسَ غضبك علينا وباركنا يا أبتاه!».. لا يا آنسة.. أعود فأقول لك: لا يا آنسة ما هكذا يكون التصرف السليم!... أما أحاديث الهوى والغرام فلا تعوّلي عليها يا آنسة. الزوج في أيامنا هذه سيد يا آنسة. وعلى الزوجة الشريفة التي أُحسن تأديبها أن تحاول جعل حياته ناعمة رضية بجميع ما تملك من وسائل. في عصر التقدّم الذي نعيشه الآن لا يحرص أحدٌ على مظاهر العاطفة الرقيقة والحنان الشديد يا آنسة. لقد ولّى عصر جان جاك روسو. عصرنا غير ذلك العصر. الرجل في عصرنا يعود من عمله فإذا كان جائعًا قال لزوجته: «يا عزيزتي أحب أن أكل لقمة أُسكتُ بها جوعي، أحب أن آكل قطعة من السمك المدخن مثلًا، مع قدح من الفودكا». فعليك إذًا يا آنسة أن تكوني متأهبة في كل لحظة لتقديم شيء من السمك المدخن ومن الفودكا لزوجك متى طلب منكِ ذلك. وهذا زوجك يقبل على طعامه يأكله حتى من دون أن يرمقكِ بنظرةٍ يا آنسة، وإنما هو يكتفي بأن يقول لكِ: «هيا اذهبي إلى المطبخ، فحضري طعام العشاء يا عزيزتي». سيقبلكِ مرة في الأسبوع، ولن يكون في قبلته كثير من الهوى المتأجج يا عزيزتي. ذلك ما يحدث اليوم يا آنسة. نعم، أعود فأقول لك: هي قبلة قصيرة ليس فيها هوى متأجج. هذا ما سيحدث لك، إذا نحن أردنا أن نحسن التفكير، إذا نحن أردنا أن نرى الأشياء كما هي. وما شأني أنا في هذا كله؟ لماذا تجعلينني شريكًا لك في نزواتك الخيالية يا آنسة؟ أنت تدَّعين طبعًا بأنني «رجل كريم، مخلص عزيز على قلبك...». ولكن اعلمي أولًا أنني لم أخلق لكِ. فما أنا بالرجل الحاذق في فن الملاطفة والمجاملة، وأنت تعرفين ذلك حق المعرفة.. إنني أكره السفاسف المعطرة الصغيرة التي يزجيها الرجال للسيدات.. إنني لا أصلح لأن أمثل دور العاشق الموله.

«ثم إن شكلي نفسه لا يصلح لذلك. فلن تجدي فيَّ لا حبًا في الظهور، ولا طموحًا، ولا نفاقًا يا آنسة.. إننا نعترف لك بذلك صادقين كل الصدق مخلصين كل الإخلاص! نعم، هكذا نحن! إن لنا طبعًا مستقيمًا وفكرًا سليمًا، والمكائد لا تعنينا البتة. لست

بالرجل الماكر، وأنا بهذا فخور. تلك هي الحقيقة. إنني لا أضع على وجهي قناعًا حين أكون بين أناس شرفاء. والخلاصة هي أن...

ارتعش السيد جوليادكين فجأة. إن لحية الحوذي، الحمراء المبللة، قد ظهرت له مرة أخرى من فوق كومة الحطب.

قال السيد جوليادكين للحوذي متأتئًا:

- سآتي حالًا يا صديقي، نعم يا صديقي، أنا آتٍ حالًا.

حك الحوذي نقرته، وطاف بيده على لحيته، وتقدم خطوة إلى أمام ثم وقف ونظر إلى السيد جوليادكين نظرة تفيض شكًا وحذرًا!

- أنا آتٍ يا صديقي. أنا آتٍ. عليَّ أن أنتظر قليلًا أيضًا. لحظة واحدة يا عزيزي الشهم.. هل فهمت يا صديقي؟

قال الحوذي أخيرًا وهو يتقرب من بطلنا حازمًا:

- أليس في نيتك أن تغادر هذا المكان؟

- بل أنا آتٍ يا صديقي، أنا آتٍ. إنني أنتظر قليلًا يا صديقي.. أرأيت؟

- رأيت.

- أرأيت يا صديقي؟ يجب عليَّ.. بالمناسبة: من أي قرية أنت يا عزيزي؟

- لقد ولدت في منزل أسيادي؟

- هل هم أسياد طيبون؟

- والله...

- طيب يا صديقي ابق هنا برهة يا عزيزي. أأنت في سان بطرسبرج منذ زمن طويل؟

- منذ سنة.

- أأنت مسرور بها، راضٍ عنها؟

- والله..

- طيب يا صديقي، طيب. يجب علينا أن نحمد الله على ذلك يا عزيزي. إليك هذه النصيحة يا صديقي: ابحث عن الناس الطيبين. لقد أصبحوا قلة في هذا الزمان يا عزيزي. الرجل الشهم الشريف يوفر لك شرابك وطعامك، ويعتني بك ويغسلك. أرأيت يا صديقي؟ رب دموع تظهر أحيانًا وسط الذهب. رب إنسان يبكي رغم ثرائه. وأمامك الآن مثال محزن على هذه الحقيقة. أرأيت كيف تجري الأمور يا عزيزي؟

بدا على الحوذي أنه يشعر نحو السيد جوليادكين بشفقة. قال:

- طيب. سأنتظرك. أنت باقٍ هنا مدة طويلة؟

- لا يا صديقي لا.. هل تعرف؟ لقد بدأ صبري ينفد منذ الآن يا عزيزي. لم يبق في نيتي أن أنتظر طويلًا.. ما رأيك يا صديقي؟ إنني أثق بسلامة رأيك وصدق حكمك، أحسب أنه لا فائدة من الإنتظار هنا...

- إذًا فأنت عدلت عن السفر.

- نعم يا صديقي نعم. ولكنني سأعطيك مكافأة حسنة مع ذلك، هذا وعد. كم عليَّ لك يا صديقي الشهم؟

- ما وعدتني به يا سيدي. لقد انتظرت مدة طويلة يا سيدي. لا أظن أنك ترضى لي غبنًا يا سيدي.

- خذ هذا لك يا عزيزي، خذ...

أعطى السيد جوليادكين الحوذي الروبلات الستة الموعودة. لقد قرر قرارًا حازمًا ألا يضيع وقته سدّى. إنه يريد الانصراف مهما كلف الأمر. ثم إن الجسور مقطوعة الآن. لقد صرف الحوذي. ولم يبق ثمة أي سبب يدعوه إلى الإنتظار. خرج من الفناء، وتجاوز باب الدخول، ودار نحو اليسار. ثم أخذ يركض مشرق الوجه لاهث الأنفاس، لا يلوي على شيء، ولا يلتفت إلى وراء. قال لنفسه: «لا يزال في الإمكان أن يسوّى كل شيء على خير وجه. أما أنا فقد تفاديت بهذه الطريقة مصيبة كبرى».

والحق أن السيد جوليادكين شعر فجأة بهدوء وطمأنينة، وشعر بارتياح وتخفف. وتنهد يقول: «آه... شريطة أن يسوّى كل شيء على خير وجهه»، من دون أن يجرؤ مع ذلك على الإعتقاد بأن كل شيء سيسوى على خير وجه. وأردف يخاطب نفسه: هذا ما سأفعله... لا بل الأفضل أن... أو يمكن مع ذلك أن... بل هذا ما يجب أن أفعله...

وفيما هو يستطرد هذا الاستطراد محاولًا أن يخرج من حالة الشك والتردد التي هو فيها، وصل بطلنا إلى جسر سيميونوفسكي، فلما صار هناك اتخذ هذا القرار الحكيم العاقل، وهو أن يعود أدراجه. قال لنفسه: «هذا أفضل.. من مصلحتي أن أتخذ هذا الموقف، موقف المشاهد المحايد.. المشاهد لا أكثر.. سأكون مجرد مشاهد، مشاهد غريب عن هذه القضية كلها. ومهما يحدث، فسأظل خارج القصة لا أسأل عن شيء.. ذلك ما يجب عليَّ أن أفعله بعد الآن...».

حتى إذا اتخذ بطلنا هذا القرار قفل راجعًا. إن هذه الفكرة الموفقة، وهي أن يتخذ في المستقبل موقف المشاهد، قد عززت ثقته وطمأنينته. فأخذ يردد قوله: «هذا أفضل... هذا أفضل... لا أكون مسؤولًا عن شيء، وفي الوقت نفسه أشهد كل شيء... نعم.. هذا خير حل ولا جدال...».

عاد السيد جوليادكين يقبع وراء كومة الحطب وقد اطمأن كل الإطمئنان... إنه ملجأ مريح يعصم من كل سوء. وركز انتباهه على النوافذ. ولم يطل نظره وانتظاره هذه المرة. فما هي إلا برهة قصيرة، إذ باضطراب غريب يظهر وراء جميع النوافذ

بمسكن أولسوفي إيفانوفتش. هذه وجوه تظهر، وها هي الستائر تَزاح. وها هم الضيوف يهرعون جماعات يحتشدون على زجاج النوافذ. كان يبدو عليهم جميعًا أنهم يبحثون عن شيء في الفناء. ظل السيد جوليادكين معتصمًا وراء كومة الحطب يراقب بانتباه واستطلاع، حركات هؤلاء الناس. وهو يمد رأسه تارة إلى يمين وتارة إلى شمال، بمقدار ما كان الظل الذي ترخيه عليه كومة الحطب يسمح له بذلك. وفجأة تجمد الدم في عروقه؛ وارتعش ارتعاشًا شديدًا، وكاد يسقط مغشيًا عليه من فرط الذعر، لقد أحس فجأة بأنهم لا يبحثون عن أي شيء، بل يبحثون عنه هو، هو السيد جوليادكين. كانت جميع الأنظار مصوّبة نحوه... وكان يستحيل عليه أن يهرب. ولو هرب لاستطاعوا أن يقبضوا عليه... تجمّد من فرط الرعب، وتجمع على نفسه، وشد جسمه إلى كومة الحطب وأدرك في تلك اللحظة نفسها أن الظل الخائن قد أخذ يفضحه، فهو لا يستر كل جسمه. ما أشد ما كان يفرحه في تلك اللحظة أن ينقلب إلى فأرة حتى يستطيع التسلل بين الأحطاب، فيختفي فيها هادئًا مطمئنًا. آه.. ليت هذا كان ممكنًا! ولكنه يستحيل، وا آسفاه! وقرر بطلنا أخيرًا، وقد تملكه أشد الرعب، أن يرفع عينيه وأن ينظر إلى النوافذ. قال لنفسه: هذا أفضل.. ولكن ما هي إلا لحظة واحدة حتى كان متلاشيًا تلاشيًا كاملًا. إنه الآن يحترق شعورًا بالعار. لقد أدرك أنهم اكتشفوه. نعم لقد عرفوه، عرفوه جميعًا، فهم جميعًا يلوّحون له بأيديهم، هم جميعًا ينادونه، وسمع صرير وهي تفتح، وسمع أصواتًا تهتف له بكلام...

دمدم بطلنا يقول وقد بلغ ذروة اليأس: «يدهشني أنهم لم يجلدوا هاته الفتاة بالسوط منذ الطفولة!..». وفجأة ظهر «الرجل» (والقارىء يعلم من «هو») على درجات المدخل. كان من غير قبعة، ومن غير معطف. وكان يبدو عليه أنه يلهث. هبط الدرجات وأسرع نحو السيد جوليادكين، نشيط الحركة متوائب الخطى، مظهرًا أشد الفرح بلقاء صديقه الحميم.

قال الرجل التافه مزقزقًا:

- ياكوف بتروفتش! أأنت هنا؟ أخشى أن يصيبك برد يا ياكوف بتروفتش. الجو هنا صقيع، تعال أدخل إلى البيت.

فأجاب بطلنا بصوت مذعن:

- لا... ما هذا بشيء يا ياكوف بتر وفتش، ما هذا بشيء!

- ولكن.. مستحيل.. يا ياكوف بتروفتش. إنهم ينادونك، إنهم يدعونك إليهم باحترام، إنهم ينتظرون حضورك بشوق. لقد قالوا لي: «من فضلك ائتنا بياكوف بتروفتش».

غمغم السيد جوليادكين يقول، محترقًا متجمَّدا في آن واحد، محترقًا من الشعور بالعار، ومتجمدًا من الشعور بالذعر:

- لا يا ياكوف بتروفتش.

قال الرجل الكريه بصوت يزقزق:

- نيني نيني!... مستحيل..

ثم أضاف بصوت آمر وهو يجر بطلنا نحو باب المدخل:

- هيا.. تعال...

أراد السيد جوليادكين أن يقاوم، ولكن بدا له أن من غير اللائق أن تنشب بينه وبين الرجل مشاجرة على مرأى من جميع الضيوف. فتقدّم. لا نستطيع أن نقول إنه كان يمشي لأنه كان هو نفسه لا يعلم ماذا يصنع وما الذي يجري. ثم إن هذا كله لا قيمة له.

وقبل أن يثوب إلى رشده وأن يسترد شعوره وجد نفسه في وسط قاعة الإستقبال الكبرى. كان شاحب الوجه، مشعث الثياب، منفوش الشعر، زائغ البصر. ألقى على الحضور نظرة شاملة. يا للهول! كانت القاعة والغرف المجاورة مكتظة بالناس.. رجالًا ونساءً. وها هم أولاء جميعًا يخفون إليه ويتقدمون نحوه ويحتشدون حوله، فإذا بهذا البحر المائج الهائج من البشر يدفع بطلنا إلى ركن من القاعة وأدرك هو ذلك. وبرقت في ذهنه فكرة: «إنهم لا يدفعونني نحو الباب...». والحق أنهم لم يكونوا يدفعونه نحو الباب، بل نحو المقعد المريح الذي كان يجلس عليه أولسوفي إيفانوفتش هادئًا. وقرب المقعد رأى بطلنا كلارا أولسوفيفنا.

كانت شاحبة الوجه تبدو حزينة متعبة رغم تألق زينتها، وانتبه بطلنا، خاصةً، إلى الأزهار الصغيرة البيضاء التي كانت مغروسة في شعرها الأسود.. إنه لمنظر جميل. وإلى الجانب الآخر من المقعد رأى بطلنا فلاديمير سيميونوفتش مرتديًا رداء فراك أسود على عروته وسامه الجديد. اقتيد السيد جوليادكين إلى أمام أولسوفي إيفانوفتش. كان يمسكه من إحدى يديه سميُّه الذي اصطنع لهذه المناسبة هيئة الوقار والرصانة، وهذا أمر سُرَ له بطلنا كثيرًا؛ ويمسكه من اليد الأخرى آندره فيليبوفتش الذي كان وجهه يعبر عن الأبهة والفخامة.

تساءل بطلنا: «ما معنى هذا كله؟» ولكنه حين أدرك أنهم يقودونه إلى أمام أولسوفي إيفانوفتش أشرقت في ذهنه فكرة. لقد خطرت بباله الرسالة المسروقة... وها هو ذا الآن أمام مقعد أولسوفي إيفانوفتش.

تساءل بطلنا وقد تملكه غمٌ لا سبيل إلى التغلب عليه: «ماذا يجب عليَّ أن أفعل؟ ينبغي أن أتخذ موقفًا فيه كبرياء، موقفًا صريحًا فيه نبل وفيه رفعة. ومع ذلك عليَّ أن أقول: هذه هي القضية أيها السادة...

غير أن الأمر الذي كان يخشاه كثيرًا لم يحدث، لم يحدث في الواقع. فقد استقبله أولسوفي إيفانوفتش استقبالًا لطيفًا. ولئن لم يمد له يده مصافحًا، فقد نظر إليه طويلًا وهو يهز رأسه الأشيب المهيب. هز رأسه بوقار وجلال ولكن هيئته لم تكن تخلو من لطف وتودّد. ذلك كان شعور بطلنا على الأقل. حتى لقد تراءى لبطلنا إلتماع دمعة في عين الشيخ المضطربة. وحين رفع السيد جوليادكين عينيه تراءت له كذلك دموع على أهداب كلارا أولسوفيفنا. وظهر له فلاديمير سيميونوفتش متأثرًا أشد التأثر أيضًا. وحتى آندره فيليبوفتش الذي ظلّ وقورًا رصينًا لا تبدو عليه ملامح

الاضطراب، كان وضعه يدل على شيء من شفقة يشعر بها نحو بطلنا، أما الفتى الذي ألمحنا إليه حين تحدثنا عن الحفلة الراقصة، وقلنا عنه إنه يشبه كل الشبه مستشارًا من مستشاري الدولة، فقد انتهز فرصة هذا الإنفعال العام الشامل فانفجر باكيًا في نشيج مسموع... على أن هذا كله ربما كان وهمًا من أوهام الحواس لدى بطلنا. لقد كان هو نفسه يبكي ويحس بدموعه تجري سخية على خديه الباردتين كالصقيع، وبصوتٍ يقطعه النشيج أراد أن يخاطب حاميه القديم وأن يفتح له قلبه.

هو يشعر الآن بأنه تصالح مع الإنسانية بأسرها ومع قدره ذاته. إنه يحس بالحب يملأ جوانحه، لا بالحب للشيخ الوقور فحسب، بل لجميع ضيوفه أيضًا، وحتى لسميِّه الشرير الذي أصبح لا يرى الآن أنه سميُّه ولا أنه شرير، بل إنسان عادي محبّب لطيف. أراد السيد جوليادكين أن يكلّم أولسوفي إيفانوفتش، ولكن ازدحام نفسه بالمشاعر حال بينه وبين ذلك. فلم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة، واكتفى بأن وضع يده على قلبه بحركة عريضة ذات دلالة... ومن أجل أن يقي آندره فيليبوفتش الشيخ الحساس من الانفعالات العنيفة قاد بطلنا إلى ركن من القاعة وتركه فيه، لكنه ترك له حرية مطلقة، وهذا بطلنا يشق لنفسه طريقًا بين الجمهور الكثيف وهو يبتسم ويدمدم بكلام بين أسنانه. إن الأحداث قد حيّرته، ولكنه يشعر بأنه تصالح مع البشر والقدر تصالحًا كاملًا. وها هو ذا يتقدم. وها هم الناس يصطفون في طريقه صفين، وهم ينظرون إليه نظرة استطلاع غريب وشفقة عجيبة.

وصل بطلنا إلى غرفة مجاورة، فاستقبل فيها بالترحيب، وكان يشعر شعورًا غامضًا بأن جمهرة كبيرة تسير وراءه صفًا. كان يحسّ بأن الناس تراقب كل حركة من حركاته وكل إشارة من إشاراته وكان يسمعهم يتجادلون خفية في أمرٍ هو على جانب عظيم من خطورة الشأن. كان يراهم يتكلمون ويحركون رؤوسهم ويتهامسون ويعارض بعضهم بعضًا ويشتجر بعضهم مع بعض اشتجارًا حادًا... تمنى لو يعرف فيم يتناقشون ولماذا يتهامسون ويتشاجرون والتفتَ فرأى سميَّه إلى جانبه فشعر فجأة برغبة جارفة في أن يمسك يد هذا الرجل وأن ينتحي به جانبًا. وكذلك فعل. رجاه أن يساعده في جميع الظروف المقبلة، وألا يتركه أبدًا في لحظة حرجة هذا الحرج. فهز السيد جوليادكين الأصغر رأسه بوقار وصافح يد بطلنا، فشعر بطلنا بقلبه يخفق خفقانًا شديدًا ويكاد يختلق من فرط الإنفعال. كان بطلنا يلهث ويحس بأنه مسحوق من كل جهة، ولا يطيق إحتمال جميع هذه النظرات التي تخترقه وتلتهمه وتلاشيه.. ولاحظ السيد جوليادكين، عرضًا، المستشار الذي يضع على رأسه شعرًا مستعارًا، فحدّجه المستشار بنظرة قاسية فاحصة لا تتفق وعطف سائر الآخرين.. أراد السيد جوليادكين أن يذهب إليه، أن يبتسم له، وأن يكاشفه بكلمة. ولكنه لم يستطع، ونسي الواقع خلال لحظة، وفقد الذاكرة والشعور.. فلما ثاب إلى رشده لاحظ أنه كان يطوف في وسط حلقة عريضة من الضيوف. وفجأة نادى أحدهم من الغرفة المجاورة صائحًا: السيد جوليادكين. كانت صيحة مباغتة تجاوزت الجموع، فتحرّك جميع الناس في صخب واضطراب، وأسرعوا نحو أبواب الصالون الأول، وكادوا يحملون إليه السيد جوليادكين حملًا. كان المستشار الذي يضع على رأسه شعرًا مستعارًا والذي يملك قلبًا بغير رحمة، كان قرب السيد

جوليادكين. وتناول المستشار يد السيد جوليادكين وأجلسه إلى جانبه، أمام مقعد أولسوفي إيفانوفتش، ولكن على مسافة منه من قبيل الاحترام. وأحاط الضيوف بالسيد جوليادكين وأولسوفي إيفانوفتش صفوفًا عدة، وجلسوا حولهما. صمتوا وهدأوا. كان السكون مطبقًا. إنهم ينظرون إلى أولسوفي إيفانوفتش وكأنهم يتوقعون حدثًا مهمًا. ولاحظ السيد جوليادكين أن السيد جوليادكين الآخر وآندره فيليبوفتش قد جلسا إلى جانبي مقعد أولسوفي إيفانوفتش، أمام المستشار... وطال الصمت. إنه الإنتظار.

قال بطلنا لنفسه: «هكذا في الأسر حين يكون على أحد الأقرباء أن يسافر في رحلة بعيدة. لم يبق الآن إلا أن ينهضوا ويصلوا». غير أن خواطره سرعان ما قطعها تحرك الضيوف. فها هم أولاء يردّدون جميعًا: «لقد وصل... لقد وصل...». ولكن لم يبد على أحد أنه دهش.

تساءل السيد جوليادكين وقد هزّه إحساس غريب، ارتعش له: «من ذا الذي وصل؟».

قال المستشار الذى يضع على رأسه شعرًا مستعارًا وهو ينظر إلى آندره فيليبوفتش بانتباه: «حان الوقت ». فما كان من آندره فيليبوفتش إلا أن رفع عينيه نحو أولسوفي ايفانوفتش، فهز الشيخ الوقور رأسه برصانة علامة الموافقة. قال المستشار وهو ينهض السيد جوليادكين:

- قوموا.

فقام جميع الناس. وتناول المستشار يد السيد جوليادكين الأكبر. وكذلك فعل آندره فيليبوفتش بالسيد جوليادكين الأصغر. وسار الموظفان بالتوأمين متقابلين وجهًا لوجه، سيرًا هادئًا وقورًا، وسط الجمهور المنتبه القلق. وطاف بطلنا ببصره المدهوش على ما حوله، ولكن سرعان ما نُبِّه إلى ضرورة المحافظة على النظام، إذ نُبِّه إلى سميِّه الذي كان يمد له يده.

«إنهم يريدون المصالحة بيننا»، كذلك قال بطلنا لنفسه ومد يده هو أيضًا في رقة وحنان؛ ثم مد رأسه بعد يده.. وكذلك فعل سميِّه.

خيل إلى بطلنا أن صديقه الغدار كان يبتسم له، ويغمز المشاهدين الذين كانوا يحيطون بهما غمزًا وقحًا. نعم، تراءى لبطلنا في وجه الدجال الدنيء تعبير سيء لا يبشر بخير، فلقد صعر الخائن خده في اللحظة التي كان يهم فيها أن يقبل صاحبه قبلة يهوذا.

وسمع السيد جوليادكين قرع أجراس يدوي في رأسه. وزاغت نظراته واضطربت عيناه. وخيل إليه أنه يرى جمهرة ضخمة من أشخاص هم جميعًا جوليادكين تظهر فجأة فى القاعة متشابهة كل التشابه متماثلة كل التماثل، تتدفق من جميع الأبواب في لحظة واحدة.. ولكن كان الأوان قد فات، فإن القبلة المدوية الخائنة الغادرة كانت قد أخذت أصداؤها تتراجع.

وهنا وقع حادث لم يكن في الحسبان.. فقد انفتح مصراعا باب الدخول مقرقعين، فإذا برجل يظهر على العتبة، واذا بالسيد جوليادكين يتجمد في مكانه من فرط الذعر حين يراه. تسمرت قدما السيد جوليادكين على الأرض. واختنقت في حلقه المنقبض صرخة رعب.

يجب أن نقول مع ذلك أن السيد جوليادكين كان قد تنبأ بهذا كله منذ زمن طويل. لقد سبق أن أوجس هذا الموقف. تقدم الرجل مهيبًا وقورًا ذا أبهة وجلال. إن بطلنا يعرف هذا الوجه حق المعرفة. لقد رآه مراتٍ كثيرة، رآه في هذا اليوم نفسه. كان الرجل فارع القامة بدين الجسم. وكان يرتدى رداءً أسود. وكانت عنقه تزدان بصليب كبير. كان لا ينقصه إلا سيجار بين شفتيه، حتى يكون الشبه كاملًا.. إن نظرته، كما قلنا، قد جمدت السيد جوليادكين ذعرًا ورعبًا. اقترب من بطلنا المسكين رصينًا ذا فخامة وأبهة. مد إليه السيد جوليادكين يده. فتناول الرجل اليد الممدودة إليه، وجر بطلنا الشقي وراءه. نظر بطلنا فيما حوله متحيرًا قلقًا مشوه الوجه من الذعر.

«إنه كريستيان ايفانوفتش روتنشبتس، دكتور فى الطب والجراحة. هو صديقك القديم يا ياكوف بتروفتش»؛ كذلك زقزق يقول صوت كريه في أذن بطلنا. فإلتفتَ بطلنا، فرأى أن الشخص الذي كلمه لم يكن إلا سميَّه الدنيء ذا النفس الحقيرة الخوانة الغدارة. كان وجهه يتألق فرحًا، فرحًا عاتيًا مشئومًا. وكان يفرك يديه منتشيًا، ويدير رأسه في جميع الجهات مرحًا، ويتنقل بين الناس مفتتِنًا منتصرًا. كان مستعدًا لأن يرقص من فرط الحماسة.

ووثب فجأة إلى أمام، فانتزع شمعة من يد أحد الخدم وتقدم يضيء الطريق لكريستيان إيفانوفتش والسيد جوليادكين اللذين تبعاه يسيران خلفه.

وسمع بطلنا وقع خطوات المشاهدين جميعًا يسيرون وراءهما موكبًا كبيرًا. كانوا يغذون الخطى، ويدوس بعضهم بعضًا، ويرددون جميعًا أقوال الدجال جوقة كبيرة واحدة: «لا تخف يا ياكوف بتروفتش... ما هذا بشيء... هو صديقك القديم، هو صاحبك القديم كريستيان إيفانوفتش روتنشبتس».

وخرجوا إلى الدهليز، ثم إلى السلم المضاء إضاءة ساطعة. واندفع جمهور غفير إلى السلم. انفتح باب مدخل العمارة مقرقعًا. ووجد السيد جوليادكين نفسه على درجات المدخل يصحبه الطبيب. وكانت تقف في الفناء مركبة تجرها أحصنة أربعة كانت تكدف من نفاد صبرها. وبوثبات ثلاث صار الدجال الكريه أمام العربة يفتح بابها. وأشار كريستيان إيفانوفتش إلى بطلنا باشارة مقنعة أن يركب العربة. والحق أن إقناع بطلنا لم يكن بذى فائدة. فهناك عدد كاف من الناس ليحمله إليها حملًا.

إلتفتَ السيد جوليادكين وهو يهذى رعبًا وذعرًا. كان السلم المضاء يعج بالناس. وهذه عيون مستطلعة تحدق إليه من كل جانب. وهذا أولسوفي إيفانوفتش نفسه يرأس الإحتفال من على فسحة السلم في الطابق الأول. كان جالسًا على مقعده، مقعد

المشلول، يتأمل المشهد في انتباه وشفقة. وكان الناس ينتظرون. فلما إلتفتَ بطلنا سرت في الحشد جميع دمدمة تدل على التململ ونفاد الصبر.

«أرجو أن لا يكون فى هذا كله ما يبعث على لوم.. أو ما يثير القسوة ويلفت إليَّ انتباه كافة الناس... فيما يتعلق بحياتي العامة»، بهذا دمدم بطلنا وقد أعيته الحيلة واضطرب اضطرابًا شديدًا. وقامت من حوله ضوضاء صاخبة. هؤلاء أناس يهزون رؤوسهم علامة الاستنكار. وانبجست دموع من عيني السيد جوليادكين.

«إذا كان الأمر كذلك فأنا موافق... إنني أعهد بمصيري كله إلى كريستيان إيفانوفتش»، كذلك قال جوليادكين، فما إن نطق بهذه الأقوال التي يعبر بها عن أنه يضع مصيره بين يدى كريستيان إيفانوفتش، حتى أطلق جميع الشهود صيحات وصرخات رهيبة تصم الآذان، هي صرخات فرح وانتصار. وسرى صدى هذه الصرخات في الحشد كله.

أمسك كل من كريستيان إيفانوفتش وآندره فيليبوفتش بإحدى ذراعي السيد جوليادكين، وأخذا يركبانه العربة. وكان سميُّه يدفعه من خلف على عادته الجبانة. ومرة أخيرة، إلتفتَ السيد جوليادكين المسكين إلى وراء، وأجال بصره في الحضور. فأحس برعدة تسري في أعضائه كلها، كهرة صغيرة سكب عليها قادوس كبير من ماء بارد، إذا سُمح لنا بهذا التشبيه. وصعد العربة. فسرعان ما تبعه كريستيان إيفانوفتش. فأغلق عليهما الباب. وسمعت قرقعة السوط على خواصر الأحصنة التي تحركت تجر المركبة... وهرع جميع الناس وراء العربة.

إن الصرخات المسعورة التي يطلقها جميع أعدائه تُشيّع رحيله. وظل بضع لحظات يميز بعض الوجوه حول بابي العربة التي تقله.

ولكن أعداءه أصبحوا بعيدين شيئًا بعد شيء. فأصبح لا يرى أحدًا منهم، إلا سميَّه الدنيء الذى لبث يرافق العربة مدة أطول. كان يركض على يسار العربة واضعًا يديه فى جيبي سرواله الأخضر من ردائه الرسمي. و تشبث بالعربة عدة مرات يرسل قبلات في الهواء إلى صديقه التعيس من قبيل الوداع.

ولكن التعب غلبه آخر الأمر. فأصبح ظهوره أندر فأندر إلى أن غاب غيابًا تامًا.

إن ألمًا أصم يخنق قلب السيد جوليادكين، وإن دمه الذي يغلي ويفور ينبض في صدغيه نبضًا قويًا. كان يلهث مختنقًا. ود لو يفك أزرار سترته، ود لو يعري صدره، لو يدلكه بالثلج، لو يرشه بماء بارد. ولم يلبث أن غاب عن وعيه غيابًا كاملًا... فلما ثاب إلى رشده لاحظ أن العربة كانت تجري على طريق لا يعرفه. إن على شماله ويمينه غابات. والبرية خالية مقفرة قاحلة... وانهار فجأة حين لاحت له عينان من لهب تحدق إليه فى الظلام، عينان يشرق فيها فرح جهنمي مشئوم.

«ليس هذا كريستيان إيفانوفتش. من عسى يكون هذا؟ أيكون «هو»؟ «هو»؟ لا... إنه كريستيان إيفانوفتش، ولكنه كريستيان إيفانوفتش آخر... إنه كريستيان إيفانوفتش مرعب.

قال بطلنا بصوت وجل مرتجف مرتعش، محاولًا بطواعية ومذلة أن يرق له قلب الطبيب الرهيب:

- كريستيان إيفانوفتش.. أنا لم أصنع شيئًا.. يخيل إليَّ أن..

فقاطعه كريستيان إيفانوفتش يقول:

- سيكون لك حق في مسكن بالمجان، مع تدفئة وإضاءة وخدمة، وذلك كله لست جديرًا به ولا أنت تستحقه.

دوى جوابه القاسي في أذني بطلنا دوي حكم لا رحمة فيه. أطلق السيد جوليادكين صرخة، وأمسك رأسه بيديه. وا أسفاه! لقد تنبأ بهذا كله منذ زمن طويل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



متميزون
للكتب النصية



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

Notes

[←1]

(1) Redingoat:

معطف طويل يُرتدى عادةً عند امتطاء الحصان وكان منتشرًا في القرنين 18 و19.

[←2]

(2) في تلك الفترة كان المسلم يُكنّى بالتركي، لأن المنطقة العربية كانت تعتبر جزءًا من الإمبراطورية العثمانية.